كتاب الهلال



حياة قلم

تأليف

عباس محمود العقاد

تقديم

طاهر الطناحي

عدد خاص

سلسلة ثقافية شهرية

١٢ قرشا

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس التحرير : طاهر الطناحي

العدد ١٦٥ ـ شعبان ١٣٨٤ ـ ديسمبر ١٩٦٤

No. 165 — December 1964

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

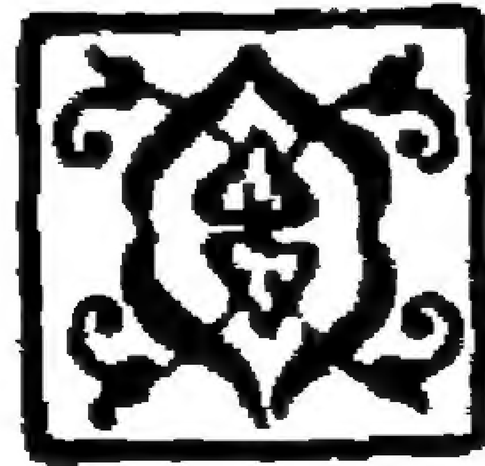
الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة جنيه مصرى ـ فى السودان جنيه سودانى فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا ـ فى بلاد اتحاد البريد العربى جنيه و ٣٠٠ مليم ـ فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف ـ فى سائر انحاء العالم ٣٥ شلنا

سعر البيع للجمهور : قطر والبحرين ٤٠ آنه ، ليبيا (بنغازى وطرابلس) ١٥٠ مليما ، الجزائر ١٧٥ فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا



كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

حياة قلم



تأليف
عباس محمود العقاد



تقديم
طاهر الطناحي



دار الهلال

تقـديم

بقلم طـاهر الطنـاحى

فى شهر يوليو الماضى أصدرت سلسلة كتاب الهلال ، كتاب « أنا » لفقيد البيان عباس محمود العقاد .. وقد حوى هذا الكتاب اربعين مقالا ، تناولت حياته الشخصية بما لها من صـفات وطبـاع وخصـائص ، وتربية أدبية وفكرية ، وبما طبع أو انطبع فى نفسه من ايمان وعقيدة ومبادىء ، وبما تأثر به من بيئة واساتذة ، أو بعبـارة جامعة : « عباس العقاد الانسان » ..!

وكنت المعت فى مقدمة « أنا » الى أن حياة العقاد لها جانبان تاريخيان : جانب شخصى انســانى ، وجانب اجتماعى عام ، يتصل بمن عاصرهم وعاشرهم من الناس فى حياته الصحافية والادبية والسياسية . ويتنـاول الاحداث التى اشترك فيها ، وخاض من اجلها عدة معارك قلمية . وكانت صناعة القلم أبرز ما فيها منذ بدأ اشتغاله بهذه الصناعة ، وهو فى السادسة من عمره

وفى منتصف اغسطس سنة ١٩٥٧م اخـذ يكتب عن الجانب الاجتماعى والسياسى من حياته بعنوان « حيـاة قلم » . فكتب عدة فصول بدأها بولادة هـذا القلم فى اسوان ، وتحدث عن ظروف هذه الولادة ، وعن الجيـل

الذى ولد فيه ، وقارن بين قلمه وقلم عبد الله النديم فى ذلك الحين ، ثم تحدث عن الصحافة قبل خمسين سنة ، وعن موزعى الجرائد ، وفى مقدمتهم المعلم « عكريشة » ، وعن احاديثه مع الساسة من الوزراء وغير الوزراء ، وكيف شق هذا القلم طريقه ، وما وقع لهذا القلم وصاحبه من أزمات ، وكيف اشتغل بالصحافة فى الحرب العالمية الاولى، وكيف انقطع عنها ، ثم عاد اليها الى آخر ما تناوله فى الفصل الثامن فى هذا الكتاب « حياة قلم » حتى انتهت هذه الحرب ، وقامت ثورة سنة ١٩١٩ م

وهنا وقف عن كتابة هذه الفصول أو المذكرات التاريخية التى تعد بلا شك جزءا من تاريخ مصر ، ومرجعا للمؤرخ فيما عالجه العقاد من موضوعات عن هذه الحقبة التى تناولت نحو عشرين عاما من الحياة العامة عاشها وساهم فيها بقلمه ..!

ثم يبقى ما تلا هذه الحقبة من جهاد وجهود ، وأحداث واطوار ، لهذا القلم فى الميدان العام .. فهل عوضتنا كتاباته الاخرى ومؤلفاته عما نقص من سلسلة هذه المقالات ؟

- ١ -

الواقع ان حياة العقاد العامة ، أو حياة قلمه منذ ثورة سنة ١٩١٩م تكاد تكون معروفة لابناء هذا الجيل من زملائه الادباء والصحافيين . ومن السهل الرجوع اليها فى الصحف والمجلات التى اشترك فيها ، وعالج فيها ماعالج من موضوعات سياسية واجتماعية وادبية . وقد كان كاتب الوفد الاول منذ فجر هذه الثورة الى أن اختلف مع زعماء الوفد سنة ١٩٣٥م كما سيجىء فى هذه الصفحات ..

وقد كتب عن هذه الثورة ، وابدى آراءه فى رجالها واحداثها كسياسى مفكر ، وكوطنى كبير ، مستقلا عن آراء حزبه ، وان كان هو كاتب هذا الحزب ، والمؤيد لسياسته التى تتفق مع آرائه فى ذلك الوقت . وقد كان زعيم الوفد سعد زغلول يقدره كل التقدير ، ويقول عنه ما يرويه لنا الاستاذ كامل سليم سكرتير مجلس الوزراء ، وسكرتير الوفد المصرى حين سافر الوفد الى أوربا للمفاوضة ، فقد كتب مقالا فى مجلة الثقافة فى ٢٧ يوليو سنة ١٩٤٠م بعنوان : « سعد زغلول كما عرفته ، رجلا ، وزعيما ، وسياسيا » . وقد جاء فيه :

« وسألته مرة عن رأيه فى كاتب كبير ـ يعنى العقاد ـ فقال :

« أديب فحل ، له قلم جبار ، ورجولة كاملة ، ووطنية صافية ، واطلاع واسع . ما قرأت له بحثا ، أو رسالة فى جريدة أو مجلة الا أعجبت به غاية الاعجاب . وهو لا يعالج موضوعا الا احاط به جملة وتفصيلا ، احاطة لا تترك بعدها زيادة لمستزيد .. وله اسلوب أدبى فريد » !!

- ٢ -

والذين يراجعون كتاب « سعد زغلول » الذى ألفه العقاد سنة ١٩٣٦م يستطيعون ان يلموا بتاريخ زعيم الثورة واحداثها ورجالها وتطوراتها ومفاوضاتها الى ان توفى « سعد » فى اغسطس سنة ١٩٢٧م . ويعد هذا الكتاب من حياته السياسية و « حياة قلمه » وطورا من اطواره الوطنية

ولما توفى سعد زغلول ، وكانت الاحزاب المصرية مؤتلفة مع الوفد ، لم يستمر هذا الائتلاف سوى عام ، ثم ما لبث الخلاف أن عاد بين الوفد وحزب الاحرار الدستوريين .

وتولى زعيم هذا الحزب رياسة الوزراة ، وعطل الحيـاة النيابية ، وحكم البلاد بيد من حديد ، حتى دعى حكمه باليد الحديدية . ورأى « العقاد » أن مصر في ذلك العهد امتحنت بالحكم الدكتاتورى ، وكان « موسولينى » قد ظهر فى ايطـــاليا بالدكتاتورية السياسية ، فألف كتابه « الحكم المطلق » فى القرن العشرين وحمل فيه على هذا الحكم الاستبدادى حملة شعواء ، وأبان فساده سياسيا وعلميا واجتماعيا . وتحدث عن الديموقراطية ونجاحها ، ونجاح الحكم النيابى . ثم اصدر كتاب « اليد القوية فى مصر » سنة ١٩٢٨ وكان الحكم المطلق وقتئذ قد اصبح عدوى فى بعض البلدان الشرقية والغربية ، وظهر هتلر بديكتاتوريته فى المانيا ، فكتب العقاد عدة مقالات ضـــده ، ثم اخرج كتاب « هتلر فى الميزان » . ثم كتاب « النازية والاديان » ..!

وكانت سنة ١٩٣٠م وقد اعيدت الحياة النيابية ، وكان العقاد وقتئذ عضوا فى مجلس النواب . ثم اشيع أن الملك فؤاد سيقيل الوزارة ، ويعطل الحياة النيابية . فوقف على منبر المجلس فى احدى الجلسات ، وتحدث عما يشاع من تعطيل الدستور ، وحل البرلمان . واحتد فى خطابه ، ودفعته وطنيته الجـــريئة الصريحة الى ان قال كلمته المشهورة :

« ان الامة على استعداد لان تسحق اكبر راس فى البلاد يخون الدستور ، ولا يصونه » ..!

وكان لهذه الكلمة دويها فى جميع الاوساط ، واتخذها المنافقون والملكيون حجة ضده ، وحبالة ينصبونها للايقاع به والانتقام من جراته .. ولما كان وقتئذ عضوا فى مجلس النواب الذى اعيد بعد استقالة رئيس الاحرار الدستوريين ، وكان يتمتع بالحصانة البرلمانية ، فقد اخذوا يتربصـــون

له حتى عطلت الحياة النيابية فىوزارة صدقي باشا ، وكان ما يزال يحرر موضوعاته السياسية ، ولم يكن قد اعتزل السياسة .. وذهبوا يجمعون مقالاته المعارضة لسياسة الحكم ، ثم أحيل للمحاكمة بتهمة : « العيب فى الذات الملكية » . فحوكم فى اكتوبر سنة ١٩٣٠م وحكم عليه بالسجن تسعة اشهر ، قضاها بين سجن الاستئناف ، وسجن قره ميدان بالقاهرة . وحينما افرج عنه فى شهر يوليو من ذلك العام قصد فورا ضريح سعد زغلول وانشد فى مستقبليه من الجماهير قصيدته الوطنية : « علىضريح سعد » التى يقول فيها :

الى الذاهب الباقى ذهاب مجـــدد
وعند ثرى سعد مثاب ومســـجد
الى مرجع الاحـــرار فى الشرق كله
الى قبـــلة فيها الامام موســـد
نحيى من الدنيا التى نســتعيدها
مكانا من الدنيـــا له العـــود احمد

ثم ختمها بقوله :

وكنت جنين السجن تسعة اشــهر
فهـــانذا فى ســـاحة الخلد أولد
ففى كل يوم يولد المـرء ذو الحجى
وفى كل يوم ذو الجهـــالة يلحـــد
عداتى وصحبى لا اختـلاف عليهما
ســـيعهدنى كل كما كان يعهـــد

وبعد خروجه من السجن ببضعة اعوام استكتبته لمجلة « كل شيء » فى « حياة السجن » . فكتب لهذه المجلة عدة مقالاتجمعها فى كتاب بعنوان : «فى عالم السدود والقيود»

ولا ريب ان هذه المدة ، وتلك المقالات ، كانت فترة هامة من حياته وحياة قلمه . وقد استكتبته يوما لمجلة المصور

عن تجاربه فى الانتخابات . وقد دخلها ومارسها ، ونجح فيها . فكتب مقالا طويلا . نقتبس منه ما يلى :

« مارست الانتخابات بانواعها التى عرفناها في مصر منذ اعلان النظام الدستورى الحديث . مارست الانتخاب على درجتين ، والانتخابات على درجة واحدة . واختبرت الاخفاق فى هذه التجارب ، كما اختبرت النجاح بالتزكية ، والنجاح بالكثرة الساحقة

« وفى وسعى أن أقول كلمة محققة عن كل نوع من هذه الانواع . وان كانت الكلمات المحققة فى شئون الانتخاب أقل من القليل . !!

« فالمحقق عندى فى الانتخاب على درجتين أنه نظـــام لا مزية له على الاطلاق . وانما تظهر صورته فى حالتين غير محمودتين : احداهما تدخل الادارة ، والثانية شراء الاصوات ..

« اما الفوز بالتزكية ، فقد طعن فيه بعض الباحثين الدستوريين ، واشاروا فى علاجه الى اعادة باب الترشيح مرة اخرى فى كل دائرة لم يتقدم لها اكثر من مرشح واحد

« اما النجاح بالكثرة الساحقة ، فقد عرفت صعوباته الكثيرة ، وعرفت اصعب هذه الصعوبات . وهو بذل الوعود الانتخابية والسعى فى تحقيقها . واذا قلت الوعود الانتخابية ، فانما اعنى الوعود العامة ، ولا اعنى الوعود الشخصية . لاننى اعلنت فى كل دائرة تقدمت فيها اننى لن أقبل الوساطة فى مسألة شخصية ، الا أن تكون تقريرا لحق ، أو دفعا لمظلمة .. »

- ٣ -

عاش « العقاد » منذ ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨م ـ ومنذ قامت الثورة القومية فى سنة ١٩١٩م بقيادة سعد زغلول ـ

فى جهاد وطنى عنيف ، مؤيدا لسياسته ، فقد كان يقدره، ويؤمن باخلاصه ووطنيته . وكان سعد يحبه ويحترمه على صغر سنه بالنسبة له . وكانت جريدة البلاغ فى عهده هى جريدة الوفد الاولى ، فكان هو كاتبها الجـــرىء ، وسهمها النافذ الذى يرمى به الوفد خصومه . ولم نر كاتبا سياسيا مثله يكتب كل يوم مقالة سياسية طول اشتغاله بالسياسة الى جانب ما يؤلفه من كتب أدبية ، وما يكتبه من مقالات فى الادب والفن والفلسفة والترجمة والتاريخ كل ثلاثاء

وقد عانى ما عانى الوفد من شدائد ، واحتمل متاعب السجن والاضطهاد ، واستمر مع خلفاء سعد فى الوفد مدافعا عن آرائه ، مناهضا للاستعمار والمســـتعمرين ، محاميا عن الاهداف التى قام الوفد من اجلها وهى الحرية والاستقلال والدستور ، ولم يكن فى تأييده لسياسة الوفد يدافع عن حزب ولا عن آراء زعيم ، لانه كان يكره الحزبية، ولم يكن كاتبا حزبيا . وقد كان يرى أن الوفد فى ذلك الوقت الذى يخوض فيه المعركة يمثل : « عقيدة وطنية » و « فكرة سياسية حرة » ، وان الصحافة الوفدية التى يكتب فيها هى وسيلة التعبير عن هذه العقيدة ، وتلك الفكرة . وقد كتب عن العقيدة الوفدية ، فقال : « . . نحن لا نحب أن نعرف العقيدة الوفدية من طـــريق البرامج والاقوال ، وانما نعرفها من طريق الوقائع التى تنطق بها أعمال الخصوم ، قبل ان تنطق بها السنة الاصـــدقاء والانصار . وتتلخص العقيدة الوفدية على هـــذا المعنى فى عبارة وجيزة هى : « المحافظة على القومية المصرية بقوة الامة المصرية » . ومن اجل هذا يبغضها اشد البغض كل من يكرهون ان تكون لهذه الامة قوة تعتمد عليها ، وتقف بها فى وجوه اعدائها . ولو لم تكن « الوفدية » هى مناط

هذه القوة ، لما ابغضها الطامعون فى ضعفنا وعجزنا عن المقاومة والاستقلال بالارادة . ولو كان للعقيدة الوفدية شركاء فى هذه المزية لابغضهم المستعمرون ومنكرو ارادة الامة .. »

الى ان يقول عن الصحافة الوفدية التى كان اكبر كتابها :

« .. انما تؤدى الصحافة الوفدية واجب التعبير عن عقيدة البلاد السياسية ، لا واجب الدعاية الحزبية وما اليها . ومامن مبدأ اصيل تدين به صحافة مصرية بريئة الا والامة تصدقه قبل ذلك تصديق من لا يحتاج فيه الى اقناع ، او تدليل .. »

هكذا كان رأيه فى «الوفد» . وعلى هذا المعنى كان يدافع عنه ويؤيده ، وهو فى ذلك كان يدافع عن عقيدة وطنية ، ويؤيد مبدأ وطنيا كان يؤمن به كل الايمان ، وهو « المحافظة على قومية الامة بقوة الامة » لا بقوة احد سواها

ولم ينصرف العقاد يوما عن تأييد هذه العقيدة ، ولم يخرج عن سياسة الوفد الذى تأسس وقام على هذه العقيدة ، حتى أصاب الوفد مااصابه من الانحراف وانتقل من هيئة شعبية وطنية الى حزب سياسى يقوم على برامج ، ويعتبر الحكم وسيلة لتحقيق هذه البرامج ، ويسعى ما استطاع الى تولى الوزارة ، ويتهافت عليها تهافت المستوزرين ..!

- ٤ -

وفى اوائل عام ١٩٣٤م نظم العقاد « نشيده القومى » وكان وقتئذ يحرر مقالاته السياسية فى البلاغ . وقد جاء فى مطلع هذا النشيد :

قد رفعنا العلم   للعلا والفدى

فى ضمان السماء

حى ارض الهرم حى مهد الهدى
حى أم البقاء

وعلى أثر نشر هذا النشيد اجتمع طائفة من كبار أدباء مصر ومفكريها ، وأقاموا له حفلة تكريم فى مسرح حديقة الازبكية ـ برياسة زعيم الوفد ـ حضرها جمهور كبير من اعلام الفكر والبيان ، واعضاء البرلمان والوزراء ورجال التعليم ، وكرائم السيدات . وكان فى مقدمة المتكلمين عن العقاد الدكتور طه حسين ، فالقى خطبة ضـــافية عن « العقاد ولواء الشعر » . قال فيها :

« انه مهما كرم العقاد ، فان مكرميه لن يبلغوه حقه من التكريم بالقياس الى احسان العقاد اليهم ٠٠ ! »

ثم يستطرد ، فيقول : « تسألوننى لماذا أؤمن بالعقاد فى الشعر الحديث ، واومن به وحده ، وجوابى يسير جداً ، لماذا ؟ . لاننى اجد عند العقاد مالا اجـده عند غيره من الشعراء ٠٠ وان شئتم ، فانى لا اجد عند العقاد ما أجده عند غيره من الشعراء ، لانى حين اسمع شعر العقاد أو حين أخلو الى شعر العقاد ، فانما اسمع نفسى ، واخلو الى نفسى

« انما ارى صورة قلبى ، وصورة قلب الجيل الذى نعيش فيه ، وحين اسمع لشعر العقاد ، انما اسمع الحياة المصرية الحديثة ، واتبين المستقبل الرائع للادب العربى الحديث .. »

وبعد ذلك يضرب الامثلة من « ديوان العقـــاد » . ويشيد بقصائده ، ولا سيما قصيدة « ترجمة شيطان » التى يقول فيها انه لم يقرأ مثلها لشاعر فى أوربا القديمة وأوربا الحديثة ، ثم يقول فى النهاية : « ضعوا لواء الشعر فى يد العقاد ، وقولوا للادباء والشعراء : أسرعوا واستظلوا بهذا اللواء فقد رفعه لكم صاحبه » ٠٠ !!

وكان خريف سنة ١٩٣٤م ، وتألفت وزارة محمد نسيم باشا الثالثة فى ٢٢ نوفمبر من ذلك العام ، بعد استقالة وزارة عبد الفتاح يحيى باشا التى سارت على سياسة اسماعيل صدقى باشا . وكانت الامة غير راضية وقتئذ عن سياسة صدقى فى الحكم والحياة النيابية التى قامت على دستوره الجديد ، فلما تولى نسيم باشا الحكم ، وأوقف دستور صدقى باشا ، انتظرت الامة منه أن يعيد دستور ١٩٢٣م ونظامه النيابى ، وانتظرت من الوفد أن يطالبه بذلك خصوصا وقد اعلن تأييده للوزارة النسيمية، ولكن نسيم باشا كان يتباطأ فى الاستجابة لرغبة الامة . وكلما الحت عليه بالرجوع الى الحياة النيابية ودستور سنة ١٩٢٣م الذى كان خيرا من دستور صدقى باشا ماطل وتغافل ، واخذيحكم الامة حكما فرديا غيردستورى. واثارت سياسة نسيم باشا « كاتب الوفد الاول » منذ ظهرت بوادر هذا الحكم ، ولم تمض على نسيم باشا ثلاثة اشهر ، فأخذ ينقد سياسته ويحذر رجال الوفد من اطماعه ونواياه . فلم يوافق الوفد على معارضة « العقاد » للوزارة النسيمية التى كان يؤيدها ، ويعلم صلتها بالانجليز وحدثت مشادة بينهما فى بيته انتهت بخروجه على سياسة الوفد التى كانت تمالىء هذه الوزارة . وكان « العقاد » يكتب مقالاته وقتئذ فى جريدة روز اليوسف ، فاشتدت حملته على هذه السياسة وعلى زعيم الوفد وصحبه ، واضطر نسيم باشا ان يصدر فى ١٥ نوفمبر سنة ١٩٣٥م بيانا سياسيا جعل عنوانه : « بيان للناس » . فكتب عباس العقاد مقالا نشرته روز اليوسف فى اليوم التالى بعنوان : « قصة الدستور فى بيان نسيم باشا » جاء فيه :

« وان للدستور فى بيان نسيم باشا ـ على حد تعبير

صديقنا الدكتور طه حسين ـ لقصة ، وانها لتختلف عن كل ما اذاعه المطبلون للوزارة النسيمية والمزمرون ، حين طلعوا علينا باسطورة منتصف شهر مايو الماضي ومنتهاه، ثم باعجوبة الخريف والشتاء .. لكن مالنا وللانشاء الذى يتطرق اليه التحريف والتصحيف او الشدة فى التعبير والاساءة فى التصوير .. وامامنا بيـــان رئيس مجلس الوزارة وقد تضمن من الوقائع مايكفى سرده فى تـرتيب لتقديم القصة للقراء أصدق تقديم ..»

ثم سرد هذه الوقائع التى أحصاها فكانت ثلاثة وعشرين واقعة . وفى مقدمتها : « ولى نسيم باشا الحكم ، وهو لا يقصد الى اعادة دستور ١٩٢٣م بالذات ، اذ اكتفى الامر الملكى الذى استصدره فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٣٤م بان يشير الى ان البلاد سيوضع لها نظام دستورى ولما أراد نسيم باشا تنفيذ الامر الملكى الصادر له أبلغه المندوب السامى ان الحكومة البريطانية ترى « ان البلاد قد تستفيد من تأجيل المسألة ، وان مصلحة البلاد تقتضى عند ســـنوح الفرصة ان يكون شكل الدستور الجديد ، موضع درس مهم يتناول جميع وجوه المسألة »

وقد علق العقاد فى نهاية مقاله على الوقائع التى تضمنها البيان ، فقال :

« وبعد ، أفليست هذه القصة التى استخرجناها بكل أمانة من بيان نسيم باشا ، مؤيدة التأييد كله ، لكل ماسبق لنا ذكره عن نسيم باشا وموقفه من الوزارة ومن الانجليز ومن الدستور ؟

« وقد قلنا منذ الساعة الاولى انه قد ولى الحـــكم متفاهما مع « مستر بيترسون » على أن يحكم مصر من غير دستور سنتين كاملتين ، وان الدستور الذى يقـــدم

لمصر بعد ذلك لا يكون هو دستور ١٩٢٣م ، بل دستور جديد محدود !! »

- ٦ -

لقد اقسم « العقاد » لزعيم الوفد فى اكتوبر سنة ١٩٣٥ وهو يشير الى قلمه الرصاص الذى كان يكتب به مقالاته — وكان يحمله وقت جداله معه فى بيته بالاسكندرية — ألا ينتهى هذا القلم حتى تنتهى وزارة نسيم باشا من دست الحكم . وقد صدق فما كاد يمضى اليوم الرابع من يناير سنة ١٩٣٦م حتى استقالت الوزارة النسيمية استقالة اشبه ما تكون بالاقالة وتولت الحكم بعدها وزارة « على ماهر باشا » !

واصر « العقاد » على مخالفته لزعيم الوفد فى سياسته التى كانت تهدف الى تولى الوزارة فى ذلك الحين ، مع مهادنة الاستعمار ، وممالأة مندوب المستعمرين فى مصر ، واشتد فى حملته على الوفد فى معارضته ؛ واحتد زعيم الوفد ، وهو يجادله فى اجتماع ضمه وضم سكرتير الوفد وبعض اعضائه ، وذكره « بانه زعيم الوفد » فقابل العقاد احتداده بأشد منه ، واجابه قائلا :

« انك زعيم الوفد ، لان هؤلاء الذين حولك اجلسوك على هذا الكرسى ، أما انا ، فان قلمى وحده هو الذى وضعنى فى مكان قدره رئيسك سعد زغلول وقدرته الامة »

واخذ الوفد يحارب جريدة روز اليوسف ، ويحاربه ، حتى عطلت هذه الجريدة . وكان قد انفصل قبل ذلك من عبد القادر حمزة صاحب البلاغ لخلاف شخصى لا صلة له بالسياسة . فاتفق مع صاحب امتياز جريدة «الضياء» عبد الحميد حمدى على اصدار جريدته لحسابه . وكان هو « مدير السياسة » . ورئيس التحرير « كليم ابو

سيف » وصدر العدد الاول منها بتاريخ ٨ فبراير سنة ١٩٣٦ م فى ١٢ صفحة افتتحه «العقاد» بمقال ملأ أعمدة الصفحة الاولى بعنوان : « عهد وذكرى » . جاء فيه ما يوضح فيه خطته ، فقال :

«فى هذا اليوم نحن بادئون بعمل جديد ، ومثابرون على خطة معروفة معهودة لزمناها عشرين سنة فى خدمة الصحافة والقضية الوطنية . فمن الاطالة على حضرات القراء ، أن نفيض فى الشرح ، ونسهب فى العهود والوعود فيما هو معروف معهود . وحسبنا اليوم ان نقول اننا سنمضى على ما كنا فيه ، لنكون قد قلنا ما فيه الكفاية ، واستغنينا عن الفضول والتكرار . فان كان لابد من ايضاح لهذا الاجمال ، فايضاح هذا الاجمال اننا سنعلن ما نعتقده من رأى فى غير محاباة ولا احجام ، واننا لن نتردد فى ابداء الرأى الذى نؤمن به ، كلما وجب ابداؤه وتعزيزه واننا منذ اليوم الذى قضت فيه هذه الخطة نفسها بان نستقل عن جميع الهيئات والاحزاب قد آلينا على انفسنا الا يعوق هذا الاستقلال عائق ، ولا يحجبه حجاب نحن قادرون على ان نميطه ونعلو عليه .. فسياستنا فى جميع المسائل والحوادث سياسة قومية تنظر الى الاعمال ، لا الى العناوين ، والى المبادىء القويمة ، والمصالح المصرية ، لا الى الاحزاب والهيئات .. »

ثم انتقل الى حرية الرأى والشجاعة الادبية فى ابدائه — تلك الحرية التى حاربه فيها زعيم الوفد وقتئذ . فقال :

« حرية الرأى والشجاعة الادبية فى ابدائه هما المثل الاعلى فيما نتوخاه من عمل صحافى ومن خلق قومى تدين به الامة ، وتعكف عليه ، ولا تعدل به مطلبا من المطالب ، ولا برنامجا من البرامج ، ولا وعدا من الوعود ! ..

« حرية الرأى والشجاعة الادبية فى ابدائه أنفس من

الاستقلال ، لان الامة التى تملك رأيها ، وتملك شجاعة ايمانها هى مستقلة فعلا وحقا . ولو احتلتها فيالق الغاصبين .. فأما اذا خسرت الامة حرية رأيها وشجاعة ايمانها ، فلا خير لها فى استقلال ، ولا دستور ، ولا نيابة ، ولا انتخاب ، لانها تساق سوق العبيد لكل من خطر له ان يسودها من الاقرباء أو البعداء . وتعيش عيشة العبيد، ولو لم يكن لها سيد قريب أو غريب ٠٠ ولا فرق بين عبد مسود ، وعبد مطلق اليدين والقدمين . لان العبودية فى النفوس والقلوب لا فى القيود والاغلال .. »

ثم أخذ يحصى الحقائق التى دافع عنها ، واختلف فيها مع الوفد ، ورأى فيها آراء سديدة صدقتها الحوادث ، وأثبتت صحتها الايام . ثم قال فى النهاية :

« .. نعم ذلك ما صنعناه ، ونصنعه فى كل حين . وذلك هو العهد الذى نعاهد القراء عليه . وتلك هى الذكرى التى نعود بها الى الاذهان والضمائر .. » !

- ٧ -

هذه مقتبسات من الافتتاحية التى صدر بها هذا العدد . وقد وطد « العقاد » العزم على متابعة اصدارها. ولكنه ما لبث ان حاربه خصومه بأساليبهم الحزبية ، واتفقوا مع متعهد توزيع الصحف على قتلها ، وهى فى المهد . فانصرف « الكاتب الكبير » عن السياسة الى الكتابة الادبية وتأليف الكتب كما كانت عادته فى كل ازمة يتعطل فيها عن الكتابة السياسية ، فيجد فى ميدان التاليف والكتابة فى الصحف الادبية والعلمية مجالا لعلمه البليغ وفكره الخصب ، وادبه الرائع ، وعلمه الفياض

انقطع « العقاد » عن الكتابة السياسية ، أو انصرف عنها حينا ٠٠ ثم كان انشقاق الوفد الثانى بزعامة احمد

ماهر ، وتألف « حزب السعديين » . وأصدر جريدة الدستور ، وطلبوا منه ان يكون رئيسا لتحريرها ، فلم يقبل ، واعتذر بانصرافه عن الكتابة السياسية . وكان وقتئذ يؤلف كتاب « سعد زغلول » الذى صدر فى ستمائة وثلاثين صفحة . ولما اصدر هذا الحزب جريدة «الاساس» كان محمود فهمى النقراشى زعيم هذا الحزب ورئيس الوزارة وقتئذ بعد مقتل احمد ماهر ، فالح على صديقه « عباس العقاد » ان يحرر فى جريدة الاساس ، فاخذ يكتب مقالاته السياسية مستقلا فى آرائه التى يراها فى الاحداث الوطنية والمسائل القومية كعادته فى كل ما يكتب وخصص « يوم الثلاثاء » للكتابة الادبية . ولكن جهده الاكبر منذ تعطلت جريدة الضياء فى سنة ١٩٣٦ قد انصرف الى تأليف الكتب وتحرير الفصول الادبية فى المجلات الشهرية والاسبوعية

ونستطيع ان نقول ان المدة التى بدأت من سنة ١٩٣٦ الى ان انتهت بوفاته فى مارس سنة ١٩٦٤ كانت أخصب انتاجا ، واكثر تأليفا من غيرها فى « حياة قلمه » المباركة. فقد الف فيها خمسة وسبعين كتابا من نحو مائة كتاب ونيف الفه طول حياته

هذا عدا نحو خمسة عشر الف مقال او تزيد كتبها فى الاداب والعلوم والفنون فى الصحف العلمية والادبية مما يملأ مئات من الكتب الاخرى الى ما خلف من مؤلفات غزيرة

- ٨ -

ولقد كان ديمقراطيا فى حياته ، واشتراكيا تعاونيا فى مذهبه . فقد سئل يوما : « لماذا هو ديموقراطى ؟ » فاجاب : « لاننى لست بالمذل ولست بالذليل ، ولست

بالمؤمن بصلاحية الاستبداد فى جميع الاحوال ، وهذه هى الاسباب التى تبغض الى الاستبداد حيث كان ، وتحبب الى الديموقراطيـــة حيث كانت . ولو كانت بين اناس لا يستحقونها احسن استحقاق

« فالحرية فى اقبح اوصافها خير من الاستبداد .. وقد شبع العالم من عيوب الحكم المطلق الوفا بعد الوف من السنين .. »

وقال عن مذهبه الاشتراكى من مقال كتبه فى ذلك :

« انه هو اشتراكية التعاون التى تحراها ولاة الامر فى وطننا ، لاصلاح المجتمع بتحسين معيشة العامل والفلاح ، وتحديد الثروة على انواعها ، وتقريب المسافة بين طبقات الامة وهى اشتراكية تؤتى ثمراتها على التحقيق ، كلما تتابعت بها التجربة بعد التجربة ، على اساس التوفيق بين تقييد الاحتكار والاستغلال ، واطلاق النشاط الحر ، والكفاية الضرورية فى ميادين العمل كافة ... »

– ٩ –

وقد كتب فى عهد ثورتنا الحاضر مقالات عن العـروبة والعرب والسياسة العربية من جوانبها العامة . وكتب عن كتاب « فلسفة الثورة » للرئيس جمال عبد الناصر مقالا ضافيا قارن فيه بين الثورة الفرنسية والثـــورة التركية ، والثورة الصينية ، والثورة المصرية . ثم قال عن كتاب رئيس الجمهورية جمال عبد الناصر :

« .. وبعد هذه المقارنة السريعة بين ثورتنا ، وثورات غيرنا نرى ان التفاهم على التفصيلات قريب كالتفاهم على الاصول الكبرى

« فقد قرات الصفحات الثمانين التى كتبها الرئيس جمال عبد الناصر فى كتاب « فلسفة الثورة » فخرجت

منها وانا أعتقد أن الخلاف عليها اقل خلاف فى مثل هذه الصفحات وفى مثل هذا الموضوع

« صواب ولا شك ان الحركة المصرية ، لا توصف بانها تمرد عسكرى

« وصواب ولا شك أن الحاضر يعيش ببقية من مساوىء العهود الماضية . وهذا هو باب الاسف والاسى ، ولكنه كذلك باب الامل والعزاء ، لانه يدفع اليأس من النفوس اذا عولج ، فلم يذهب به العلاج بين عشية وصباح « اذ لم يكن يمكن فى غمضة عين أن تزول رواسب قرون »

« وصواب كذلك ، ان الشك آفة معطلة للجهـــــود معطلة للافكار والآراء ، فليس الانصاف وحــــده بالذى يشفع لاصحاب الشكوك ، ويعفيهم من عقاب لم يستحقوه وحدهم بعد اجيال واجيال . ولكن العلاج المأمون نفسه هو الشفيع البليغ قبل شفيع الانصاف

« يقول السيد الرئيس جمال عبد الناصر : (كان من السهل وقتها ، وما زال سهلا حتى الان ان نريق دماء عشرة أو عشرين ، أو ثلاثين ، فنضع الرعب والخوف فى كثير من النفوس المترددة ، ونرغمها على ان تبتلع شهواتها واحقادها واهواءها ..)

« ثم يقول : (.. ولكن اية نتيجة كان يمكن أن يؤدى اليها مثل هذا العمل ؟.. كان من الظلم ان يفرض حكم الدم علينا دون ان ننظر الى الظروف التاريخية التى مر بها شعبنا والتى تركت فى نفوسنا جميعا تلك الآثار)

« نعم . يكون ذلك ظلما ، ويكون اكثر من ظلم ، لانه يصيب من لم يصبه العقاب فيضاعف داء الشك والحذر ، ويبطل فائدة العلاج ، وييئس من عقباه .. »

ثم يتناول « العقاد » بعد ذلك سائر ما جاء فى « فلسفة

الثورة » بالتعليق .. ويقول فى ختام المقال :

« .. على ان الصفحات الثمانين التى تحمل اسم « فلسفة الثورة » لا تنحصر بالقارىء فى حدود الافق المصرى ، وان كانت لا تخرج به من آفاق المسألة المصرية فى أوسع حدودها . **فالمصرى فى عصرنا هنا لا يهتم بوطنه حقا ان لم تشغله علاقاته بثلاثة آفاق أو عوالم ، لاانفصال لها من وطنه ، وهى العالم العربى ، والعالم الافريقى والعالم الاسلامى من اقصاه الى اقصاه**

« .. اين نحن من العالم العربى ؟

« اين نحن من العالم الافريقى ؟

« اين نحن من العالم الاسلامى ؟

« نحن فى قلب كل عالم من هذه العوالم ، فليس فى وسعنا ان نجهل علاقتنا بها ومستقبلنا معها . يقول الرئيس جمال : (ان نصف الاحتياطى المحقق من البترول فى العالم يرقد تحت أرض المنطقة العربية . فنحن اقوياء اقوياء ..)

« ويقول : (اننا لن نستطيع بحال من الاحوال حتى لو اردنا ــ ان نقف بمعزل عن الصراع الدامى المخيف الذى يدور اليوم فى اعماق افريقيا بين خمسة ملايين من البيض ، ومائتى مليون من الافريقيين . اننا فى افريقيا ، والنيل شريان الحياة لوطننا يستمد ماءه من قلب القارة ..)

« ويقول الرئيس عن العالم الاسلامى : (حين اسرح بخيالى الى ثمانين مليونا من المسلمين فى اندونيسيا ، وخمسين مليونا فى الصين ، وبضعة ملايين فى الملايو ، وسيام وبورما ، وما يقرب من مائة مليون فى الباكستان ، واكثر من مائة مليون فى منطقة الشرق الاوسط ، واربعين مليونا داخل الاتحاد السوفيتى ، وملايين غيرهم فى ارجاء

الارض المتباعدة ـ حين أسرح بخيالى الى هذه المئات من الملايين الذين تجمعهم عقيدة واحدة اخرج باحساس كبير بالامكانيات الهائلة التى يمكن ان يحققها تعاون بين هؤلاء المسلمين جميعا ، تعاون لا يخرج عن حدود ولائهم لاوطانهم الاصيلة بالطبع ، ولكنه يكفل لهم ولاخوانهم فى العقيدة قوة غير محدودة)

ويعلق « العقاد » على كلام الرئيس ، فيقول :

« وهذا كله صحيح فى الجملة والتفصيل . وليس الاهتمام به من طموح الشباب ، كما يتخيل المتخيل الوادع فى عقر داره ، بل أخشى ان أقول انه من اعباء الشيخوخة قبل اوانها .. بل من همومها فى ابانها ، ان كان حمل الهموم البعيدة وقفا على الشيوخ . !

« ماذا نصنع ان جنى البترول على العالم العربى ، فضيعه بدلا من تزويده بأسباب القوة والمناعة

« وماذا نصنع ان أصبحت أفريقية للمستعمرين الاوربيين ولم تصبح فى الغد القريب افريقيه للافريقيين

« وماذا نصنع ان تهدم معنى الحياة ، كما تمثله المادية الحيوانية ، أو كما تمثله الحضارة الحسية ، ولم نعتصم من التيار الجارف بعصمة شريفة تعمر نفوس الملايين ، وترتفع بها من غمار الذل والاستكانة ، أو غمار القنوط والحيرة ؟

« فروض جسام . ولكنها فروض واقعة لا تهدأ ولا تنام .. » !!

- ١٠ -

ذلك بعض ما جاء فى مقال العقاد عن « فلسفة الثورة » . وهو مقال يعد من عيون مقالاته التى لم تجمع فى كتاب . وقد آثرنا أن نتحدث عنه فى هذا التقديم

أما مقالاته الفلسفية والادبية والعلمية الاخرى فقد أضفنا بعد الفصل الثامن الى هذا الكتاب فصولا أخرى تحتوى على « ذكريات شخصية » ومقالات عن أرض الميعاد وهى بحوث كتبها بعد زيارته لفلسطين قبل التقسيم ، ومقالات أخرى فى الادب والفلسفة والشعر والدين . وهذه المقالات اخترناها مما لم ينشر فى كتاب من كتبه . وفى عزمنا أن ننشر من هذه المقالات مجموعات أخرى فى كتب ملاءمة لموضوعاتها المتقاربة ، أو المتجانسة فى الفن ، والفلسفة والعلوم ، والاداب .. عما قريب !..

وقد أنتج فى الاثنى عشرة سنة الاخيرة أضعاف ما أنتجه فى غيرها من السنين السابقة لعهد الثورة . فمنذ قامت الثورة المصرية فى سنة ١٩٥٢ الى أن توفى الف ما يربو على أربعين كتاباً . وهذا يدل على نشاطه الكبير فى شيخوخته بعد أن بلغ الثالثة والستين من عمره

ولقد كانت الدور العلمية والادبية تتسابق الى نشر مؤلفاته ، كما كانت الصحف والمجلات تهتم بنشر بحوثه ودراساته . وكان من عادته فيما عدا مؤلفاته ومقالاته السياسية أن يفضل اقتراح الجريدة أو المجلة فى الموضوع الادبى أو العلمى الذى تريده ، أما الموضوعات السياسية فهو صاحب اقتراحاتها ، لا يقبل من أحد أن يملى عليه اقتراحاً سياسيا يكتب فيه ، ولو كان سعد زغلول الذى كان يقدره ويحبه . وفى ذلك يقول :

« اننى أفضل اقتراح المقالات الادبية للمجلات والصحف السيارة لسببين :

« أحدهما أنه يريحنى من حيرة التردد بين الموضوعات الكثيرة ، فلا أضيع الوقت بين المناسب والانسب ، وبين الحسن والاحسن . وثانيهما أن محررى المجلة أو الصحيفة

أولى باختيار موضوعاتها وتنسيقها . لان الكتاب قـــد يكررون الموضوع اذا اختار كل موضوعه مستقلا باختياره من غير مشاورة ولا مقابلة . فلا محل للاعتراض على محرر المجلة اذا اقترح موضوعالكل كاتب يعاونه على عمله . ولا مساس بكرامة الكاتب من الاقتراح عليه ، بل هو نقيض ذلك دليل على الثقة ، وتحقيق لقول القائل : « اطلب تجد » ويقصدون به القدرة على الاستجابة لكل سؤال

« واننى على ترحيبي بالاقتـــراح الادبى ، أرفض كل اقتراح سياسى بالكتابة فى مسألة من مسائل السياسة وقد كان سعد زغلول رحمه الله ـ وهو زعيمنا الذى نحبه ونجله ـ يعلم ذلك ، فلا يقترح على الكتابة ، ولا الكف عن الكتابة . وغاية ما كان يستبيحه من طلب الكتابة اذا أرادها أن يبسط المسألة للمناقشة ، ويسمع ما نقوله فيها ، فان وجـد أن الرأى متفق مع وجهـة نظره قال : « اود ان اقرأ لك شيئا فى هذه المسألة » .!

« وقد حدث أن اللورد جورج لويد « المندوب السامي فى ذلك الحين » طلب اليه أنيكفنا عن الحملة عليه ،وارسل اليه من يبلغه أنه يحسبه موعزا بها ، فما زاد على ان قال قولته المشهورة : « هذا شرف لا أدعيه ، أو تهمة لا أدفعها »

« ولم يفض الينا بما حدث الا بعد انقضاء الازمة . وقد سرت فيها الاساطيل للانذار والارهاب ، أو للتهويل والتمثيل . واننا نحمد الله على ما فرق به بين الادب والسياسة ،فلولا ذلك ما طلبنا بانفســـنا اقتراحا فى الكتابة الادبية ، ورفضنا الاقتراح فى السياسة وأنكرناه وان تحركت له الاساطيل » ! ..

هذا ما اردنا أن نقدم به « حياة قلم » . وأن نتـابع احداثه وتطوراته السياسية والادبية بالاجمال ، بعـــد ما

وقف به الاستاذ العقاد عند ابتداء ثورة سنة ١٩١٩ م • فقد كان فى عزمه أن يكمله • ولامر ما وقف به هـــذا الموقف ..

ويرى القراء فيما قدمنا من صفحات هـذا التقـديم صورة واضحة ـ وان كانت مركزة فى لمحـــات ـ عن جهاد هذا القلم وصاحبه فى نحو خمســة واربعين عاما من حياته الفذة .. !

فحياة قلم العقاد حياة فذة عظيمة بلا ريب ، ليست كحياة أى كاتب أو أديب فى عصره • ويزيد هذه الحياة قيمة ومكانة ان صاحب هذا القلم كان عصاميا فى نشأته وجهاده ، وأنه فى كل ما حصله من علوم وفلسفة واداب ، كان أستاذ نفسه وولى أمره ، ومدرسة فكرية جامعة ، ومكتبة نفيسة حافلة بالاطلاع الواسع

وقد زود اللغة العربية وعلومها وآدابها بثروة قيمة الى ثروتها الكبرى • ولو أن كتابات العقاد ومؤلفاته ، فقدت من المكتبة العربية لخسرت خسارة فادحة لاتعوض ، لانها عصارة فكر قدير ، وحصيلة قريحة خصبة ووليدة ثقافة أصيلة ، وانتاج ذهن عبقرى ، عاش صاحبه أديبا مجاهدا ، وعالما مفكرا ، ومؤلفا غزير الانتاج واسع الاطلاع ، وفيلسوفا سامى المبادىء ، عظيم الاهداف ..!

طاهر احمد الطناحي

الفصل الأول

ولادة قلم



ولادة قلم

الا اعرف نفسى ؟

سؤال نسمعه كل يوم ولا نجيب عنه ، ولا يجيب عنه قائله ، لانه فى عرفنا جميعا غنى عن الجواب ، أو جوابه بلسان الحال يغنى عن جوابه بلسان المقال ، وكأننا نقول لكل من يسأله : عفوا .. كيف لا تعرف نفسك ؟ .. تعرفها بالتحقيق !

ومع هذا اقول بعد تجربة طويلة للبواعث النفسية التى تدفعنى الى اكبر الاعمال وأصغر الاعمال على السواء :

ان الانسان يعرف نفسه بالتخمين لا بالتحقيق ، وانه كثيرا ما يكون فى تخمينه عنها غريبا يبحث عن سر غريب ، ولا فرق فى هذا بين البحث عن أعمالنا والبحث عن أعمال غيرنا الا فى الدرجة والمقدار ، بحكم العادة والتكرار

حديث مع نفسى !

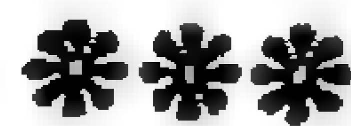
انى أعمل فى تحرير الصحف من خمسين سنة ، (1) وكنت أكتب لها متطوعا قبل ذلك بسنوات قليلة ...

(1) كتب هذا الفصل ـ وهو أول فصول حياة قلم ـ فى اغسطس سنة ١٩٥٧

وأريد القارىء فأقول انني منذ بلغت سن الطفولة وفهمت شيئا يسمى المستقبل لم اعرف لى أملا فى الحياة غير صناعة القلم ، ولم تكن امامى صورة لصناعة القلم فى اول الامر غير صناعة الصحافة

ولكنني مع هذا اسأل نفسى الآن كما سألتها من قبل : لماذا اخترت هذه الصناعة دون غيرها فى طفولتى ، وجعلتها أملا من آمال الحياة الكبرى .. بل أمل الحياة الاكبر؟ فلا ادرى باعث هذا الاختيار على سبيل التحقيق، ولا استغنى فيه عن التخمين او التخمين الكثير ، بعد المقارنة بين ذكريات الطفولة وملابساتها وبعد الترجيح من هنا والشك من هناك ، كما يفعل الباحث فى السير والتراجم حين يعمد الى التخمين عن حياة الاخرين

واكثر من هذا انني « أضبط » نفسى وهى تروغ منى وتحاول ان تقنعنى بوجهة غير الوجهة التى تعنيها او تعنينى ، ثم نتلاقى مبتسمين ، واكاد أسألها : انت هنا ؟ وتكاد تسألنى : وها أنت ياصاح ؟.. ثم لا نلبث ان نعلم اننا لم يفهم بعضنا بعضا من الكلمة الاولى ، واننا نحتاج بعدها الى كلمة او كلمات نثوب بعدها الى التفاهم والاتفاق



قلت انني لم اعرف لى فى طفولتى أملا غير صناعة القلم

وهذا صحيح ..

وهذا غير صحيح ..!

صحيح اذا نظرنا الى الوجهة القصوى فى نهاية الطريق

وغير صحيح اذا نظرنا الى عطفة هنا او منعرج هناك او زقاق بين بين فى اثناء الطريق ..

كلا ! بل تمنيت حينا أن أكون جنديا . وتمنيت حينا آخر أن أكون عالما زراعيا ، وهما فيما يبدو صناعتان متباعدتان !

ولكنني لم البث أن علمت انني تعلقت بالجندية لانني اريد صناعة القلم ، وتعلقت بالعلوم الزراعية لانني أريد صناعة القلم ، وان صناعة القلم كانت تلمحني بعينيها الساحرتين من وراء النقاب وأنا احسبني اغازل صناعة السيف أو اغازل صناعة المنجل والمحراث ..

حادث مع قومندان الانجليز

كانت لعبة الجيوش فى أواخر القرن التاسع عشر لعبة الاطفال المفضلة فى اسوان . وكانت دروب المدينة وحيشان المدارس والمكاتب ميادين قتال لا ينتهى بين جيش مصر وجيش السودان وجيش الدراويش وجيش الترك وجيش الانجليز .. وكلهم بين قادة وجنود من صغار الاطفال الذين لا يجاوزون العاشرة ، لان المسألة كانت جدا — ولم تكن لعبا فحسب — مع الاطفال فى هذه السن على الخصوص . اذ كانوا يسمعون ان الدراويش اذا دخلوا قرية قتلوا رجالها ، وسبوا نساءها ، وحملوا أطفالها مطعونين على اسنة الحراب ، فلا جرم تشغلهم هذه الحرب عن كل شاغل من شواغل الخطر والخوف فضلا عن شواغل الالعاب ..

ومما اتمثله امامي حتى الساعة ، وابتسم له كلما تمثلته — منظر زميلنا المقدام « عبد المعطى فرج » قائد الجيش السودانى المغير على مكتب « القومندان » فى المعسكر الانجليزى وهو يصيح واذنه فى يد القومندان الجبار :

« مش انا يا عمي .. مش أنا والله يا مستر » ..

ويكاد القومندان يقهقه وهو يدفعه الى الخارج ويزجره قائلا « ساعلمك كيف تنط يا خنزير ! »

ذلك اننا في هذه الهجمة زدناها حبتين ، ولعلها زادت فى الحقيقة اكثر من حبتين !..

قررنا ـ نحن قادة الجيوش المصرية والسودانية ـ ان نهجم حقا على القومندان الانجليزى فى معقله بجـانب المدرسة ، وكان هذا القومندان رجلا صارما يخـافه الانجليز من مرءوسيه ويستعيذ من شره أهل المدينـة الخاضعون لاحكامه العرفية ، فما هو الا ان سمع دبة عبد المعطى تحت السور حتى وثب الى الباب مستغربا ان يجترىء أحد على اقتحـام مـكتبه هـذا الاقتحـام فى وضح النهار ، وفتح الله على قائدنا المغوار ـ عبد المعطى ـ بالعذر الوحيد الذى لا يقبل التصديق فى هذا الحرج الشديد : اذنه بين اصبعى الرجل ولسانه يصيح : انـه ليس هو المقبوض عليه

على الربابة !

هذه اللعبة ـ لعبة الجيوش ـ كانت شغلنا الشاغل فى المدينة التى لا لعب ولا لهو فيها ، وكانت من جانبى أنا على الاقل لعبة عسكرية ادبية فى وقت واحد .. لاننى كنت قائد الجيش المصرى الذى يطلب المبارزة من الاعداء ويطلبها على الطريقة العنترية الهلالية اليزنية المشـهورة فى ملاحم شعراء الربابة ، فلا يبدأ الصدام قبل تبادل الشعر الحماسى على حسب المقام ..

وكان زملاؤنا ـ او اعداؤنا ـ يستعينون فى تحضـير هذه الحماسيات بشعراء الربابة الذين امتلأت بهم قهوات البلدة فى ايام الحملة السودانية واغنوها عن المســارح

وملاعب البهلوانات والقرقوزات ، لازدحام المدينة بالجنود والباعة من أبناء الصعيد ـ طلاب هذا الضرب من القصص والاناشيد ـ ومن لم يجد من الطلاب بغيته عند شـاعر الربابة طلبها فى بيت هنا او قطعة هناك من كتب المحفوظات او روايات التمثيل ، وفيها الكثير من مواقف الفخـر والحماسة أو مواقف التخويف والتهويل ..

وكنت انا قد جربت نظم الشعر فى بعض المقاصـد المدرسـية ، فشجعتنى التجربة على نظم الاناشـيد الحماسـية لميدان المبارزة ، واردت أن اثبت للسامعين اننى صـاحب تلك الاناشـيد فالتزمت فى نظمهـا أن أذكر اسمى كاملا فى كل قطعة منها . وانتصرت بهـا انتصارا اعظم من انتصار القتال . اذ اوشكت المناوشة كلها ان تنحصر فى الاستماع الى قصائد الفخر والحماسة بغير قتال ..

وانتهت مدتى فى الجندية بنهاية هذه الجنـدية المتطوعة !! .. فلم يعسر على ان أفهم ان حماسـة النشيد هى بيت القصيد عندى من الجندية والتجنيد ، وانها كانت منفسا للملكة الناشئة التى لم تستقر بعد على قرار ..

سر الولع بالزراعة

أما الولع بالعلوم الزراعية ، فلم ألبث أن علمت انه فى دخيلته ولع بتطبيق الاشعار التى كنت اقراها عن الازهار والعصافير والحدائق وجداول الماء والانهار .. وربما كان مدخلها الى نفسى أعمق من ذلك واخفى مكانا على النظرة الاولى التى نظرتها بها يوم ذاك ، فان علوم الزراعة تعين على مراقبة اطوار الحياة وغرائب الحيوان والنبـات ، وليس اوثق من العلاقة بين الدراسات النفسية وبين تلك

الغرائب والاطوار ، ولا اراني حتى الساعة اوثر كتابا فى سيرة علم من اعلام التاريخ على كتاب فى طبائع الاحياء والحشرات او آثارها القديمة فى بقايا الحفريات ..

كانت أمنية الجندية وعلوم الزراعة اذن ترجمة لامنية الكتابة مستعارة فى صورة من صور الصناعات الاخرى ، وبخاصة حين نذكر انها كتابة لا تخلو من نضال ، ولا تخلو كذلك من زراعة ولا من عناية بالحياة والاحياء ..

ومثل هذه الترجمة فيما اظن معهودة فى كل محاولة ناشئة قبل ان تستقر على قرارها ، فلا يزال الناشيء يتمنى شيئا بعد شيء ويجهل ما يتمناه حتى يثبت فيه على القرار الاخير .. ويومئذ يعلم انها كانت جميعاامنية واحدة فى باطنها ، وانه كان بينه وبين نفسه فى هرب ولقاء كأنهما فى طراد البحث والاستخفاء

اول مجلة !

واحسبنى حتى الساعة لم ابلغ من معرفة الباعث الصحفى فى نفسى مبلغ اليقين الجازم الذى لا رجعة فيه ولكنني على يقين جازم من اننى انشأت صحيفة فى طفولتى الباكرة ، واننى لم انشئها قبل أن أطلع على ودائع دولاب المنظرة فى بيتى ، واكثر ما فيه صحف اسبوعية او شهرية قديمة ، واكثر هذه الصحف القديمة من مجلات عبد الله نديم ، وليس بينها اكثر عددا ولا اكبر حظوة عندى يومذاك من مجلة « الاستاذ »

ودولاب المنظرة مستودع عزيز يعرفه ابناء الريف ولا تخلو منظرة فى بلدة ريفية من دولاب منه على الاقل ، يفرغ فى جوف الحائط ويقام عليه باب بمفتاح او بغير مفتاح ، ويغلب ان يكون الباب بغير مفتاح لان الودائع التى

يحرص عليها اصحابها لا تودع فى المناظر على متنـــاول الداخل الفريب

وعلى تعداد الصحف فى دولاب المنظرة عندنا لم تكن بينها صحيفة أبرع فى العناوين من صحف عبد الله نديم، وكان هذا الصحفى المطبوع استاذ زمانه ، بل لعـــله استاذ من اساتذة العناوين فى كل زمان ..

من عناوينه عنوان « كان ويكون » للترجمة وعنوان « التنكيت والتبكيت » لاسم صحيفة ، وعنوان «المسامير» لكتاب هجاء ، وعناوين اخرى بهذه البراعة لعشرات من الفصول والاخبار

معارضة النديم !

ولفتتنى العناوين البارعة فقرأت كل ما وجدته من صحف النديم ، ووجدتنى ذات يوم أقطع الورق قطعا على قدر المجلة وأعمد الى مكان العنوان منها فأكتبـــه بخطى متأنقا وأعارض عنوان « الاســـتاذ » بعنـــوان « التلميذ »

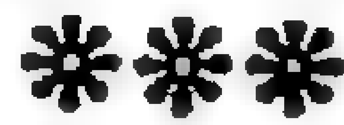
أما المقالة الافتتاحية فقد كانت أيضا من قبيــــــل المعارضة لمقالة من أشهر المقالات التى تردد صداها زمنا فى البيئات المصرية ، وهى المقالة التى جعل عنوانها « لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا » وافتتح بها الجزء الثـــانى والعشرين من السنة الاولى

فكتبت مقالى الافتتاحى وجعلت عنوانه « لو كنا مثلكم ما فعلنا فعلكم »

وكان فحوى مقال النديم اننا نطلب الاستقلال وندعى اننا والاوربيين أشباه وأمثال ، ولكن الاوربيين ينكرون هذه الدعوى ولا يكلفون انفسهم غير دليل واحد يثبتون

به الفارق البعيد بيننا وبينهم ، فاذا قلنا لهم نحن مثلكم قالوا لنا تلك دعواكم ، ولو كنتم مثلنا لفعلتم مثلنا ..

واستغرقت مقالة النديم اكثر من عشرين صفحـــة ختمها بقوله : « ان آخر الدواء الكي وقد بلغ السيل الزبى فان رفأنا هذا الخرق وشددنا أزر بعضنا .. أمكننا أن نقول لاوربا نحن نحن وانتم أنتم ، وان بقينا على هذا التضاد والتخاذل واللياذ بالاجانب فريقا بعد فريق حـــق لاوربا ان تطردنا من بلادنا الى رءوس الجبال لتلحقنـــا بالبهيم الوحشى وتصدق فى قولها لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا »



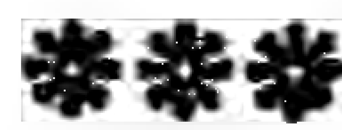
وتناولت فى مقالى فقرات النديم واحدة واحدة بردود لا اذكرها الان ، ولكنى أذكر منها ما يدل عليه العنوان ، وفحواه اننا نحن الشرقيين لو كنا مثلكم ــ أيهـــــا الغربيون ــ فاتحين منتصرين لما فعلنا فعـــلكم من نهب الاموال واستباحة الحقوق وافتراء الاكاذيب والتعـــلل بالمواعيد ، ولكننا لسنا مثلكم ولا نريد ان نفعل فعلكم ، وسترون فعلنا عما قريب ..

ثم اصدرت من صحيفة التلميذ المخطوطة بضعة اعداد لم يكن لها من قراء غير زملائى فى المدرسة وأقاربى المشجعين أو المتندرين المتفكهين . ولم يكن لها من اشتراك غير تعب النسخ لمن يراها مستحقة لهذا الثمن ..

عادة .. من أيامها !

أخالنى الآن على حق اذا قلت ان هـــذا السر ــ سر دولاب المنظرة ــ هو كذلك سر الاتجاه الاول عندى الى

صناعة القلم ، ويؤيد هذا الظن الراجح انني تعودت من أيامها عادة لم تفارقني الى اليوم فى تجهيز ورق الكتابة الصحفية بصفة خاصة .. فهذه الورقة التى أكتبعليها الان مقصوصة على النحو الذى اخترته لصفحات مجلة « التلميذ » ... ومتى كتبتها طويتها طولا كما تطوى المجلة ووضعتها فى غلاف مستطيل كالغلاف الذى توضع فيه المجلات ، وقد اتخذت من هذه الاوراق ومن ذلك الغلاف ذخيرة حاضرة اوصى بصنعها اذا نفدت من السوق ، كما تنفد احيانا فى بعض ايام الحروب العالمية العالمية



وعلىهذا النحو من التخمين نعرف انفسنا باحثين مترددين ، قبل أن نصل الى اليقين ، ان وصلنا الى يقين ..

لكننى لا تفوتنى كلمة سمعتها من صديق كان يناقشنى كلما تساءلت عن سر اتجاهى الى صناعة القلم فيقول : وهل من حاجة الى البحث عن سر لهذا الاتجاه ؟ ألا يكفى أنك أنست من نفسك القدرة على الكتابة فاتجهت الى صناعة الكتابة ؟ ..

ولست على رأى الصديق فى هذا التعليل لاتجاهاتنا النفسية ، فان الملكة النفسية تخلق فينا قبل ان تخلق لها أدواتها ، وربما كانت سهولة الكتابة عندى نتيجة مستفادة من سهولة القراءة ، ولم أكن قارئا الا لاننى سأكون كاتبا يوما من الايام متى تيسرت الاداة

على ان شعور الطفل بقدرته على الكتابة لا يابى عليه ان يتمنى الوزارة او يتمنى الوجاهة الاجتماعية أو يتمنى

صناعة القلم مبتدئا بعمل من الاعمال الكتابية فى الصحافة ، ولست أعتقد ان مئات الاطباء والمهندسين والصناع وذوى الملكات المنوعة الذين ظهروا من ابناء جيلنا قد استلهموا اختيار صناعاتهم من وحى القدرة على علم من علومهم المدرسية ، بل لعلهم توجهوا وجهتهم فى مستقبلهم على الرغم من جميع تلك العلوم ..

جيل وجيل

كان عبد الله النديم استاذ مدرسته فى الصحافة والدعوة الوطنية ، وكان كل من نشأ بعده بقليل بين واحد من اثنين : اما تلميذ يقتدى به ، واما خصم يبغضه وينحى عليه ..

ونشأ مصطفى كامل فى هذه المدرسة ، وكان خصوم النديم يزعمون ان الخديو لم يعرض عن الاستاذ ويقبل على التلميذ الا لان ابناء الاسرة الخديوية غضبوا لتقريبه رجلا كان يحاربهم فى الثورة العرابية ويعمل على تقويض عرشهم ، فاختار الخديو من تلاميذه شابا بعيدا عن هذه الشبهة وميزه على استاذه لمعرفته باللغة الافرنجية ، وقال ولى الدين يكن فى كتابه « المعلوم والمجهول » :

« من أجل هذا قال أكثر الامراء من الاسرة الحاكمة على مصر ان مقام الامارة يقرب منه النديم لانه عدو اسرته وجنسه ، وبهذه السياسة المضحكة آل الامر الى الاعتماد على « كامل » وقد كان كامل ممن يرددون نغمات النديم ، وانما ميز المقلد عن المجتهد المامه باللغة الفرنساوية واستطاعته بيان آرائه للغربيين ولم يفز النديم بمثل ذلك »

الا ان الامر لم يكن فى هذه المسألة خاصة أمر اللغة الافرنجية ، لان الخديو قرب اليه الشيخ على يوسف الازهرى وهو ممن انشأوا الصحف منافسة للنديم وتطلعوا الى محاكاته فى المنهج والاسلوب ، ولكنها مسألة المدرسة الصحفية التى كانت تحمل علم الدعوة امام الصحافة المسخرة للدعاية الاجنبية ، ولم تكن هناك مدرسة تحمل هذا العلم فى أول عهد الاحتلال غيرمدرسة النديم

ويصدق على هذا جيل النديم والجيل الذى تلاه ، ولكنه لا يصدق على الجيل الذى نشأ بعد ذلك بسنوات ، لان هذه الفترة قد اتسعت لعوامل جديدة فى السياسة والتفكير تخالف العوامل التى غلبت على الثورة العرابية او على جيل المخضرمين بين الثورة والاحتلال

أنا .. والنديم

ولهذا ارجع الى ظواهر كثيرة صاحبت نشأتى الصحفية فلا أستطيع ان أقول اننى على الجملة من تلاميذ مدرسة النديم ، وان كان النديم أول من لفتنى الى العمل فى الصحافة وكانت مطالعته أول مطالعة وجهتنى الى هذه الصناعة ..

لا بل هنالك مشابهات عديدة بين النديم وبينى لا أدرى هل جاءت من وحى القدوة الخفية أو جاءت مصادفة بغير قصد منى ولا من أحد ..

فقد تعلمت صناعة التلغراف كما تعلمها النديم ، واشتغلت بالتعليم فى مدرسة خيرية كما اشتغل النديم ، وجربت الاستخفاء على الطريقة البوليسية أكثر من مرة

فى أبان الحرب العالمية الاولى ، وكذلك فعل النديم عند مطاردته فى أعقاب الثورة العرابية ..

ولكننى – مع هذه المشابهات – لم أشعر من قبل ولا أشعر الان بأن الرجل قدوتى المختارة بين أمثلة النبوغ التى أتمناها أو بين « الشخصيات » المثالية التى أجلها واحب أن أنتمى اليها ..

وأحسب أن المرجع فى هذا الاختلاف الى سببين : أحدهما يرجع الى الاحوال العامة ، والاخر يرجع الى المزاج الشخصى الذى فطرت عليه ..

فالاحوال العامة فى عصرنا تخالف الاحوال العامة قبيل الاحتلال أو فى الفترة بين الثورة العرابية والاحتلال ، لان دخول الانجليز مصر كان مسألة دولية تعمل فيها الدولة العثمانية عملا « قانونيا » يصح الاعتماد عليه باعتبارها صاحبة السيادة القانونية على الديار المصرية ، وكانت مناورات الدول المتنافسة على فتوح الاستعمار بابامفتوحا على مصراعيه يتسع للمساومات والدسائس والمعاكسات ويتعلق الامل به من جانب المصريين ، ولو الى حين ..

وهذا فيما نظن أحد الاسباب التى تحولت بأنظار عبد الله النديم وتلاميذه الى الدولة العثمانية ، وجعلت سيادة هذه الدولة على مصر ركنا مهما فى برنامج مصطفى كامل والحزب الوطنى الذى قام على يديه ..

أما فى عصرنا – نحن الذين ولدنا بعد الاحتلال – فقد أصبحت مسألة الاحتلال من أعبائنا الوطنية التى لا عمل فيها للدولة العثمانية ولا للمناورات الدولية ، وانما يقع العبء الاكبر فيها على عواتقنا نحن المصريين .. فلا يجوز لنا أن نفرط فى مبدأ الاستقلال من أجل صيغة « شكلية » لاتفيدنا فى جهادنا ان صح انها كانت تفيدنا قبل ذاك ..

هذا هو سبب الاختلاف بين جيلنا وجيل النديم فيما يرجع الى الاحوال العامة

وأما سبب الاختلاف الذى يرجع الى المزاج الشخصى فخلاصته فى كلمتين : ان الرجل كان ينزع كثيرا او قليلا الى شوء من التهريج ، واننى نشأت فى بيئتى البيتية بين ابوين محافظين أشد المحافظة على سمت الوقار و«اللياقة» ونقلت هذا الخلق منهما بالوراثة كما نقلته بالقدوة والمحاكاة ..

كل الناس .. ولا عباس !

ومما يحضرنى من ذكرياتى فيما دون العاشرة اننى رفضت كل الرفض أن ألبس البنطلون القصير يوم دخلت المدرسة فى نحو السابعة من عمرى ، واننى رفضت أشد الرفض أن أجيب نداء المعلم حين دعانى باسم « عباس حلمى » جريا على تقاليد ذلك العهد التى بقيت الى الآن فى أسماء المعاصرين . . فلم يكن أحد من التلاميذ يدعى باسم ابيه ولكنهم كانوا يلقبون بالقاب حلمى وصبرى ولطفى وحسنى وشكرى وماشاكلها على حسب المطابقة لاسماء المشهورين أو الموافقة لجرس اللقب ورنينه فى الاسماع ، فبقيت واحدا من قليلين يذكرون بأسماء آبائهم بين أبناء ذلك الجيل ، ولولا اصرارى على رفض اللقب المستعار لكان اسمى اليوم « عباس حلمى محمود » كما كتب فى قائمة « التصنيف » اى توفيق الاسماء والالقاب ..

والى اليوم يذكر شيخاتنا وشيوخنا فى الاسرة كلمة الامهات التى كن يرددنها لاطفالهن كلما اصابهم مايسوءهم مع التورط فى المزاح معى وراء الحد الذى اسيغه ، فاذا ذهبوا الى امهاتهم يشكون ماأصابهم كان الجواب الذى

يقال بين الضحك والغضب : امزح مع من شئت يابنى .. ولكن « كل الناس ولا عباس ! »

ومن الطبيعى لطفل فى هذا المزاج أن ينظر الى مثله الاعلى فلا يراه فى صاحب التنكيت والتبكيت وصاحب المسامير ، واحسبنى لم أفضل الاستاذ الامام محمد عبده على صاحبنا النديم الا لسبب من جملة أسباب ترجع الى هذا المزاج ، فان وقار محمد عبده هو القدوة التى ارتضيها حين أنظر الى النديم فيظفر منى بالثناء ولا يظفر منى بالاقتداء ، وكلاهما فيما عدا هذا الخلق صنوان ينتميان الى الثورة العرابية والى مدرسة جمال الدين والى العمامة والبيئة الازهرية ..

مدرستان !..

وأيا كانت أسباب الاختلاف بين النديم وبينى ، فالعصر الذى نشأنا فيه لايسمح لمدرسة واحدة أن تطغى على أفكار الناشئة فى كل بقعة من بقاع البلاد المصرية .. لانه كان عصرا مزيجا مضطربا بين عصرين ذهب أحدهما ولم يخلفه العصر القادم على رأى واضح مقسوم بين كل فئة من الناشئين ومايوافقها وتوافقه من التفكير الحديث

كان عصرنا « برج بابل » يبنى ويعاد بناؤه بين عام وعام ..

كنا نعيش فى عصر الجامعة الاسلامية على مذاهب ، ونعيش فى عصر الجهاد الوطنى على مذاهب ، ونعيش فى عصر التجديد الفكرى على مذاهب ، ولا نرى أمامنا مذهبا واحدا فى قضية من قضايانا الكبرى ، وكلها مشكلات ..

فالجامعة الاسلامية مدرستان : مدرسة جمال الدين ومدرسة الدعاة الرسميين ..

مدرسة جمال الدين تعنى بالجامعة الاسلامية أن تكون جامعة شعوب متيقظة مسئولة عن شئونها مرعية الحقوق مع ملوكها وأمرائها ، فضلا عن حقوقهـــا مع الطـامعين المتربصين بها ..

ومدرسة الدعاة الرسميين تعمل للملوك والامراء وتريد من الجامعة الاسلامية أن تكون وحدة سياسية بزعامة هذا الخليفة أو ذاك من ملوك المسلمين ، وأعلاهم صوتا فى مصر من كان يعمل لخليفة بنى عثمان ..

ومدرسة الجهاد الوطنى على هذه الحال :

مذهب يعتمد على مناورات الدول وحقوق الســيادة الشرعية ، ومذهب يستضعف هذا الرأى ، ويحسـب العمل فيه من ضياع الوقت على غير جدوى ، وبخاصة فى أمر التعويل على السيادة العثمانية . لان حقوق هذه السيادة لم تكن عصمة للمعتمد عليها ، بل كان مجـــرد الانتماء الى الرجل المريض صاحب التركة المنتظرة ــ كما كانت الدولة العثمانية تسمى فى ذلك الحين ــ ذريعة الى ضياع البلد فى معركة النزاع على التركة أو فى مســاومات التقسيم والتفريق !..

بلبال !

ويزيد البرج بلبالا خليط الاصوات المنبعثة من طغمة الدعاة المأجورين المسخرين لخدمة الدسائس الاجنبية ..

فمن هؤلاء من كان يضرب المعـــول فى أركان الدولة العثمانية جاهدا مكابرا باسم الاصـلاح والثـــورة على الاستبداد ، وهو فى باطن الامر صنيعة للدول وسمسار من سماسرة الاستعمار الذين يقصدون فى الواقع الى هدم الاسلام وتمكين المستعمرين من الدولة المستقلة الباقية بين بلاد المسلمين ..

ومن هؤلاء من كان يعلن الغيرة على حقوق مصر والدولة العثمانية ، وهو فى باطن الامر صنيعة السياسة الفرنسية فى الشرق يناوىء الاحتلال بأمرها ويورط البلد فى المشكلات تحقيقا لمآربها ..

ومنهم من كان يثير دعوة الجامعة الاسلامية ليتخذها وسيلة الى ايقاع الشقاق بين أبناء الوطن الواحد ، تأييدا لدعوى الدول التى تستفيد من تهمة التعصب الدينى ، وتلوح بها لاقناع الاجانب بحاجتهم الدائمة الى الحماية من دولة أوربية ..

ومنهم من كان يطلب الدستور ، ولكنه لايطلبه حبا للحرية ولا انصافا للامة بل تعزيزا لسلطان الخديو .. وتمهيدا لاطلاق يده فى ميزانية الدولة ووظائف الحكومة بمعزل عن دار المندوب البريطانى ومستشاريها فى الدواوين ..

بلبال ، واى بلبال ..

وأشد منه اختلاطا بلبال آخر فى ميدان الفكر والثقافة ، يضطرب فيه القول بين تكفير من يعجب بالثقافة الحديثة وبين اتهام من يزدريها بالجهل المطبق والبهيمية العجماء . وسوف نعرض لهذا البلبال الفكرى فى مكانه من الفصول القادمة .. لاننا نبدأ بالكلام عن الصحافة وموضوعاتها الغالبة عليها قبيل اشتغالى بالتحرير فيها ، ثم نقفوه بالكلام على غيره من الموضوعات ..

بلبال يهون الى جانبه ضوضاء برج بابل .. فأين يذهب الطفل الناشىء فى دروب هذا التيه وزواياه بين مهابطه ومراقيه .. ؟!

وأنا فى السادسة عشرة !

لا أعيد هنا كل ماعرض لى فى هذا الطريق من حيرة وشك

وعثرات وأزمات

لكننى أعلم علم اليقين اننى كنت على قرار واضح فى كل قضية من هذه القضايا حين بلغت السادسة عشرة ، ثم عملت لاول مرة فى تحرير صحيفة الدستور ..

الجامعة الاسلامية عندى هى جامعة جمال الدين ، أو جامعة شعوب متيقظة متعاونة لا جامعة ملوك وعروش تساق لخدمة هذا الخليفة أو تخليف ذلك السلطان ..

الدولة التركية نتمنى بقاءها وصلاحها ، ولكننا لانتمنى سيادتها ولا نستمع لمن يحاربها باسم الشورى او النقمة على الاستبداد ..

الدول الاجنبية لاتنفعنا ان لم ننفع أنفسنا ، وسياسة « مصر للمصريين » هى اقوم سياسة يتبعها المصريون ويهتدون بهديها فيما لهم من حق وعليهم من واجب ..

الحزب الوطنى حزب مخلص مجتهد ، ولكنه مفرط فى مجاملة « يلدز » و « عابدين » مقصر فى مساعيه نحو « مصر للمصريين »

الملوك والامراء يخدمون القضايا القومية بمقدار ماتخدم عروشهم ، فان تلاقت مصالحهم ومصالح الوطن فحبا وكرامة ، وان تشعبت الطريق بين هذه المصالح وتلك المصالح فلا خفاء بالطريق القويم ..

الحكم الدستورى لاغنى عنه ، ولاوجه للمقارنة بينه وبين حكم الاستبداد بحال من الاحوال ..

داخل النطاق

منذ كتبت فى صحيفة الدستور لم تخرج كتابتى عن هذا النطاق فى قضية من هذه القضايا ..

لم أمدح الخليفة « عبد الحميد » الا فى مناسبة واحدة

وهى اعلان الدستور ، ويومئذ كتبت أبياتا أهنئـــه بها وأسجل تاريخ السنة بحساب الحروف الابجدية ، فكان التاريخ هذه الشطرة :

« قد انشأ الدستور عبد الحميد »

ومجموع حروفها بحساب الجمل « ١٣٢٦ » وهى السنة الهجرية التى أعلن فيها الدستور ..

ولما توفى مصطفى كامل شيعته صحيفة الدستور ـ وهى من صحف الحزب الوطنى ـ برثاء أبلغ من رثاء صحيفة اللواء ، ولكننى أحجمت عن رثائه بثناء خلو من النقد وأحجمت فى ذلك المقام من نقد سياسته قبل الاستانة وقبل الخديو وقبل السيادة العثمانية ، وكاشفت الاستاذ فريد وجدى بحرجي وحرج صحيفته وهى لســـــان الجامعة الاسلامية الاولى ولســـــان الحــــزب الوطنى الثانى بعد اللواء ، فقال لى رحمــــه الله أنـــه يفهم هذا الحرج وأنه يقوم عنى بما أتحاشاه ، فآثرت الصمت عن الرثاء على ثناء بغير نقد ، أو نقد متحفظ ، متحرج ، بين مضطرب الاراء ..

***

وانقطعت الصلة بينى وبين الصحيفة بضعة أشـــــهر لا أكتب فيها ولا أكتب اليها ، ولكننى كتبت اليها مقالى الوحيد من الخارج يوم أعلن الدستور فى ايران ، وقلت فيه مهنئا للشاه الصغير : لو كنت فى فرنسا لــــــكان مصيرك كمصير الصبى ابن لويس السادس عشر ، ولكنك تحمد الله لانك فى بلد اسلامى وتحمد لشعبك ـ ولاريب ـ جميل هذا الصنيع

والان ـ بعد نصف قرن كامل ـ أقول اننى قـــد جربت هذا البرنامج السياسى ، الصحفى ، فى مشكلات هذه الحقبة وازماتها جميعا .. فحمدت مغبة هذه التجربة ،

ولم أجد فيما وجدته من الحوادث المتناقضة برنامجا أصح منه ولا أصلح لقضية مصر وقضايا الامم الشرقية ، ولا أعلم أن الحوادث بعد الحوادث كشفت لنا عن خطة أهدى منه للعاملين وأحق منه باتباع المتبعين ..

وبعد ، فانني لا أحب أن أنافق القارىء باصطناع التواضع الكاذب طلبا للثناء الأكذب ، فأقول ان الحكاية سهلة على كل من يطلبها ، وانها حكاية يطلبها كل من شاء بغير عناء ..

الاستقلال ..

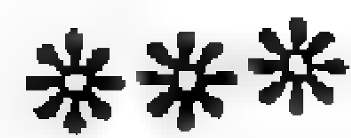
كلا ! .. ليس من السهل على كل ناشىء فى العشرة الثانية من عمره أن يسلك سبيله بين تلك النقائض والشبهات دون أن يروض نفسه على استقامة القصد الى الحقيقة واستقلال الرأى بين شتى الدوافع والمغريات ..

ولكننى أعود فأقول انه لااستقلال الرأى ، ولااستقامة القصد ، كانت كافية لهدايتى الى سبيلى لو لم أستفد من ظروف الاونة التى نشأت فيها وظروف البلد الذى نشأت فيه ..

لقد كانت الآونة فى مصر آونة نادرة ، لم تمتحن فيها العقول بعد بمحنة المحن فى العصر الحديث : محنة تكوين الراى جماعات جماعات ، فلا ينطوى الشاب فى جماعة صاخبة حتى يحرم القدرة على نقدها ونقد سواها ، فهو مع جماعته التى انطوى فيها يقبل خطأها كما يقبل صوابها ، وهو مع الجماعات الاخرى يرفض صوابها كما يرفض خطأها ، وانه لخاسر مضلل فى كلتا الحالتين ..

وكانت البلدة التى نشأت فيها بلدتى اسوان بأقصى الصعيد ، يكاد الناشىء فى مثل سنى أن يأوى بها الى

صومعة من صوامع الفكر يقلب فيها وجوه النظر فى كل مايسمع أو يبصر من الشئون العامة ، بغير تضليل أو تهويل .. وتهب الزوبعة القومية فلا تفاجئنا فى وسط غبارها فتعمى البصائر عما فيها ، ولكنها تقترب منا رويدا رويدا فلا تصل الينا حتى تنكشف على جلاء ..

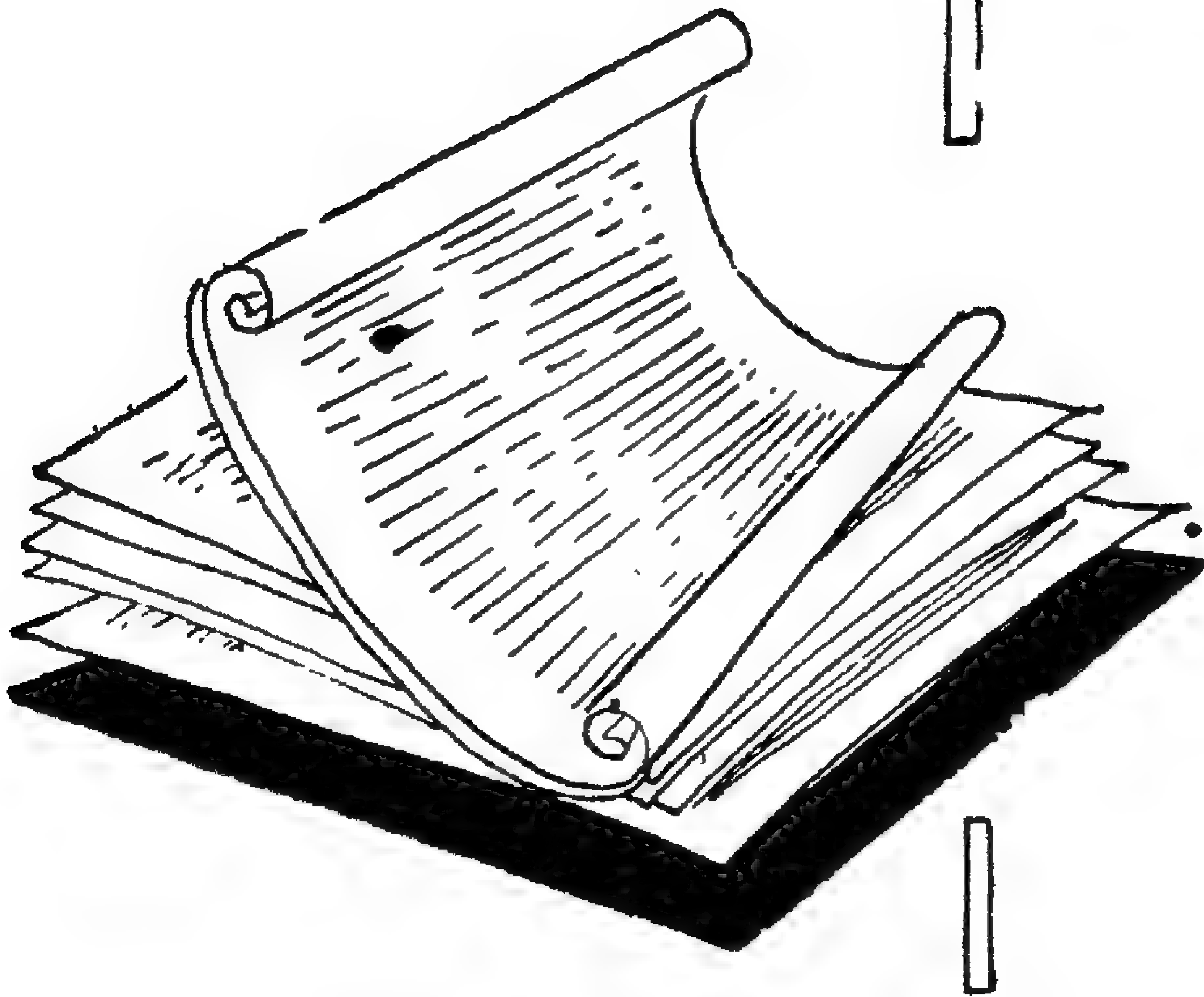


وهل فى ذلك عبرة ؟..

نعم .. عبرة قريبة فيما نرى ، فخير مايصنعه الشاب فى فترة تكوين الرأى أن يروض نفسه سنوات على النظر الى ماحوله مستقلا عن طغيان الجماعات ، فاذا دخل فى جماعة منها بعد ذلك عرفها بمحاسنها وعيوبها معرفة تمييز وتقدير ، ولم يعمل فيها آلة من الآلات ..

الفصل
الثاني

قلم يشقّ طريقه



صحيفة مطبوعة بعد المخطوطة

أصدرت صحيفتى المخطوطه ـ التلميذ ـ وأنا تلميذ فى الثانية عشرة ، لم أبرح المدرسة ، ولم أملك فى يدى مبلغا من المال يكفى للتفكير فى طبع ورقة ... ان وجدت المطبعة حيث كنت فى الصـــعيد الاقصى .. وهى غير موجودة ! ..

لكننى الآن موظف حكومة ، تخرجت من المدرســـة الابتدائية واشتغلت بالقسم المالى فى مديرية الشرقية ، وعرفت لى مبلغا من المال أقبضه فى أول كل شـــهر : خمسة جنيهات !..

ومن هذه الجنيهات الخمسة استطيع ان أدخر جنيها فى كل شهر ، وان اجمع من هذه الجنيهات المدخرة مبلغا يكفى للانفاق على العددين الاولين من صحيفة مطبوعة ، ثم لا حاجة بعد ذلك الى المال لان الصحيفة تباع وتأتى بتكاليفها عددا بعد عدد ، أو عددين بعد عددين ..

وكنت قد عرفت شيئا عن تكاليف الطباعة فى مدينـــة الزقازيق عاصمة الشرقية ، لاننى اشتقت الى بلدتى بعـــد ان فارقتها يافعا لاول مرة فنظمت قصـــيدة على وزن قصيدة المعرى التى يقول فى مطلعها :

عللاني فان بيض الامـــانى
فنيت والظـــلام ليس بفان

فقلت فى مطلع قصيدتى :
ذكرانى نعيمهـــــا ذكـرانى
حبـــــذا لو علمتما ما أعانى

وقلت منها اذكر اســـوان :
« الست ارجو عودا الى اسوان »
ولا يحضرنى الآن الشطر الاول من البيت ..

وراقت القصيدة من سمعوها من الزملاء المتأدبين ، فاقترحوا على طبعها ليحتفظ كل منهم بنسخة منها .. وتكفل احدهم بتقديمها لمطبعة المدينة فلم تكلفناورقا وطبعا أكثر من ثلاثين قرشا لمائتى نسخة ، وقيل لنا أنها تكلفنـا أقل من خمسين قرشا اذا طبعنا منها مائتى نسخة أخرى فعرفنا السعر وعرفنا الفرق بين تكاليف طبع القصيدة وتكاليف طبع الصحيفة ، وهى فى تقدبرنا تقع فى ثمـانى صفحات بدلا من صفحتين

حسبة ميسورة مشجعة ، ومرتب شهر واحد يكفى للبدء فى طبع الصحيفة على بركة الله ! ..

وماذا يبقى بعـد الطبع مما يحتــــاج الى التدبير والاستعداد ؟ ..

لا شىء ! ..

فالتحرير مضمون بغير كلفة ، لاننى محرر الصحيفة الوحيد ..

والتوزيع مضمون لا خوف عليه ، وكيف لايكون مضمونا وهؤلاء قراؤنا يتهـــافتون على اقتناء الطبعـــة الاولى

ويستنفدون منها مائتين في يوم أو يومين ؟

***

ومن البديهي انني لا أصدر الصحيفة وانا موظف بالحكومة .. ولا أطبعها ، من ثم ، في الزقازيق حيث طبعت القصيدة

الا انها عقبة هينة لا يصعب علينا تذليلها ، فليس أهون من الانتقال الى القاهرة بعد الاستقالة من الوظيفة ، وليس ابناء القاهرة بأقل من ابناء الزقازيق اقبالا على قراءة المنظوم والمنثور .. وكنت اذهب الى القاهرة مرة في كل أسبوع او اسبوعين ، اشهد التمثيل في مسرح الشيخ سلامة حجازي ، وأزور حي الازهر باحثا عن الكتب الادبية القديمة بثمن رخيص ..

فذهبت الى القاهرة ، واحببت ان احقق وادقق واستوفي المعلومات اللازمة قبل الشروع في العمل .. ووقع اختياري – لاستقصاء البحث في المسألة – على صاحب مكتبة عتيقة عظيم الخبرة بالمطبوعات القديمة والحديثة ، كثير الاتصال بالصحفيين والادباء ، تعودت أن اشتري منه ما أجده عنده وان أوصيه باستحضار الكتب النادرة من الطبعات المرجوعة ..

والواقع ان « الاستقصاء » الذي عولت عليه لم يكن ليعوقني عن المضي فيما نويت ، وانما هو مسألة شكلية على حكم العادة في الاستشارة والاستخارة .. وليقل صاحبنا ما يقول ، فانني اعددت الصحيفة كتابة وتقسيما وتبويبا وتسمية واخطارا للحكومة ، ولم يبق من معداتها شيء غير الطبع والتوزيع ..

***

وكنت اتردد بين اسمين : اسم البرق واسم رجع

الصدى ، ولا احسبني يومئذ قصدت الفرق بين الاسمين وعنيت مافيه من الدلالة على الصحيفة التى تقود الآراء ويلتف بها الشعراء كما يلتفون بالبيرق ، أو عنيت مافيه من الدلالة على الصحيفة التى تردد اصداء الآراء ولا تزيد على عرض الحوادث والانباء ..

لا احسبنى قصدت الى هذه التفرقة ، ولكننى انتهيت على غير قصد منى الى تفضيل اسم « رجع الصدى » على اسم « البيرق » ... وكتبت العنوان بخطى ليخرجه الحفار كما كتبته ، بدعة من بدع التجديد فى العناوين !..

ولست انسى نظرة الكتبى العتيق الى من تحت نظارته الملحومة فى موضعين او ثلاثة ! ..

ماذا ؟ تترك خدمة « الميرى » وتشتغل بالغزازيط والجرانيل ؟ ان كنت لاتدرك ما انت مقدم عليه فانتظر هنيهة لترى مائة من هؤلاء « الصائعين » الضائعين يتمنون التراب تحت قدميك فى وظيفتك ولا يصلون اليه ... لا ياصاحبى لا ... اننى اراك اعقل من هذا يابنى .. فلا تخيب املى فيك ..!

ولم يقنعنى كلامه لاننى لم اسمع منه جديدا عن خدمة « الميرى » وقداستها فى عرف ابناء جيله ، ولم يزحزحنى تحذيره قيد شعرة عن نية المضى فى الاستعداد والتنفيذ ..

وانما زحزحنى عن هذه النية قيد فرسخ ـ لا قيد شعرة وحسب ـ منظر او منظران من المناظر التى كانت تتكرر فى كل حلقة صحفية ولايستغربها أحدمن المتفرجين لانها من ادوات المهنة المتفق عليها ومن أدوارها التى تعاد فى كل قصة ، فلا يجهلها الا الذين يجهلون الصحف والصحفيين أو الجرنالجية وجماعة الغزازيط وتجار

التجريس والتنبيط !

كانت بجوار المكتبة مطبعة صغيرة تطبع فيها الصحف الاسبوعية وكان « مدير » احدى الصحف يرجو صاحب المطبعة أن يعجل باصدار العدد ويأبى صاحب المطبعة أن يخرج العدد ، ما لم يحصل على أجرته وأجرة العدد السابق الذى صدر قبل أسابيع ، ووقف المدير ينتظر وكيلا له أرسله الى المشتركين للتحصيل وعاد الوكيل على صورة يقصر عنها أمل المتسول الذى يريد أن يبالغ فى اثبات صناعة التسول واستدرار شفقة المحسنين ، والمسيئين ! ..

فصاح به المدير : ما وراءك ؟ ..

فأخرج له الوكيل ايصالا معادا من أحد المشتركين ، وقال ان الاشتراك مسدد قبل الآن ..

فسأله المدير : واين الايصال الآخر ؟

قال الوكيل : ان الرجل قطعة ورماه فى خلقتى ! ..

فهم المدير بضربه وهو يقول مختنقا من الغيظ : رماه فى خلقتك ؟ مستحيل .. ان فضيحة بيته معروفة يخشى من الاشارة اليها بكلمة ، فلا تقل انه قطع الايصال ورماه فى خلقتك الشريفة ، بل قل انك سكرت بالاشتراك كعادتك وجئتنا برائحة الخمر تفوح من فيك ..

وكان هذا أول الادوار التقليدية المحفوظة ولم يكن آخرها ولا أقبحها ، وفى واحد منها الكفاية للعدول على الاقل عن الخطوة الاولى ، وقد عدلت عنها الى الآن

ولكن .. لم أحتقر الصحافة

ان هذه المناظر المخجلة حقرت فى نظرى طائفة من المتطفلين على الصحافة ، ولكنها لم تحقر صناعة

الصحافة ، ولا نزلت بأعلامها النابهين الى منزلة أولئك المتطفلين ، ولست اعتقد اننى كنت مستطيعا ان احتقر هذه الصناعة من أجل ذلك المنظر المخجل ، ولو كنت من المستخفين بها والزاهدين فيها .. لأن قوة الدعوة القلمية فى تلك الفترة قد بلغت فى القاهرة مبلغا لا يدانيه ما بلغته فى عاصمة من عواصم المشرق والمغرب ، ولا أخالها تبلغه اليوم على عظم الفارق بين صحافة اليوم وصحافة مصر والشرق قبل خمسين سنه ..

كانت القاهرة مركزا لكل دعوة تهتم بها دول العالم ذوات المطامع فى الشرقين الادنى والاقصى ، ومركزا لكل دعوة يديرها دعاة الجامعة الاسلامية ودعاة الوحدة العربيةودعاة تركيا الفتاة ودعاة الاصلاح فى ايران واوسط آسيا ، ودعاة الحركات الوطنية فى مصر نفسها وفى سائر الاقطار الافريقية من شمالها فى بلاد المغرب الى جنوبها فى بلاد السواحل وزنجبار

وكانت قوة هذه الدعوة تخيف الملوك والساسة على عروشهم وعلى أرواحهم وأبدانهم ولا تمهلهم أن يتجاهلوها أو يغفلوا طرفة عين عن أخطارها وعواقبها ، وقد حدث أن حركة فى القاهرة زلزلت عرش عبد الحميد فى الآستانة ، وان رجلا شهرته دعوة القلم واللسان ذهب الى ايران لاتمام هذه الدعوة فطرده الشاه واهانه اثنان من وزرائه ، فقتل الثلاثة جميعا ، وقال قاتلوهم انهم قضوا عليهم بالحق انتقاما لذلك الداعية الطريد : جمال الدين ..

كانت هذه الحقيقة من وقائع الحال الغنية عن المقال ، ومن طرائفها المروية ان السلطان عبد الحميد كان ينام فى

يللز وعيناه فى شارع محمد على بالقاهرة ، واتفق يوماً أن المويلحى الكبير (١) صاحب مصباح الشرق ـ دخل مكتب « المؤيد » ووجد فيه نخبة من كتاب عصره وفضلائه ، فتوقف عند الباب وقال وهو يرفع يديه الى سقف الحجرة : قادر أنت يارب أن تسقط هذا السقف على من تحته فيستريح عبد الحميد ! .. قال محمد عبده ، وكان من زوار الحجرة : نعم .. لو تقدمت أنت خطوتين !

وتلك نادرة من نوادر الفكاهة التى تخلقها الحقيقة الواقعة ، وما يكون لها أن تخلقها لو كانت محض مزاح ..!

تهيأت القاهرة لاجتماع هذه القوة فيها لامتيازها بين عواصم الشرق بمركزها التاريخى ومركزها الحديث ، ولم تتهيأ لها مدينة أخرى على مثالها من الاستانة عاصمة الخلافة الى ما دونها من عواصم الولايات والحكومات ، ولم تكن القاهرة عاصمة الدعوة الكبرى مصادفة ولا لعلة من العلل العارضة ..

فالاستانة هى عاصمة الخلافة ، ومركزها بهذه الصفة أهم المراكز فى العالم الاسلامى وعالم السياسة الشرقية على اجماله .. ولكن قيام الدعوات القلمية ، أو اللسانية فيها أمر لا يخطر على بال الدعاة لشدة الحجر فيها على الاقلام والالسنة ، وحظر الاجتماع فيها وتأليف الجماعات للمقاصد السياسية ..

وعواصم الشرق الادنى مهمة بشهرتها وموقعها ، ولكنها لم تكن قط مركزا يتلقى منه العالم الشرقى دعوة عامة على نطاق واسع ، وحكمها حكم الآستانة فى حرية الدعوة والاجتماع ..

---

(١) يقصد ابراهيم المويلحى صاحب صحيفة « مصباح الشرق » ووالده محمد المويلحى

اما القاهرة فقد كانت ، منذ بنيت فى أيام الفاطميين ، مركز داعى الدعاة ، استاذ الاساتذة فى فنـــون الدعوة بالقول والاشارة ، أى بالخطب والرسائل والرموز السرية والموالد والزفات ! ..

ثم أصبحت مركز الاعلان الاقتصادى والسـياسى فى الحقبة التى اشتدت فيها المنافسة بين أصحاب التجـارة من طريق البحر الاحمر واصحاب التجارة من طريق رأس الرجاء ..

ثم جعلها الخديو اسماعيل قطعة من أوربا بمحاكمهـا المختلطة ، وامتيازاتها الاجنبية ، واشتباك المصـالح المتعارضة فيها بين الدول ، وتلاطم التيارات حولها من داخل البلاد العثمانية فى شـئون الحكم او شـئون الثقافة ..

ثم انطلقت فيها حرية الصحافة وحرية الاجتمـاع ، فتمت فيها معدات الدعوة ، وترادف عندها نمط الدعوة القديم ونمط الدعوة الحديث ..

تاريخ الشرق مرتبط بصحافته ..

وفيما تقدم من العوامل والمهيآت كفاية ..

ولكننا نحسب انها لم تكن لتفعل فعلها بين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين لو لم تكن الدعوة فى هذه الفترة مطلوبة من كل صوب ، ولو لم تكن بلاد الشرق متعطشة الاسماع الى كل صوت ينادى بكلمة الأمل ، أو كلمة النصيحة والتحذير ..

ولا ننسى سحر « الكلمة المطبوعة » فى جدتها قبـل ان تبتـذلها كثرة التـداول ، وتدخلها الالفة فى عداد اليوميات الرتيبة التى تنتظر فى أوقاتها ولا تحتـاج الى لهفة فى الانتظار ..

وان تعجب لسر من أسرار تلك الدعوة فى نفـــاذها ، وبعد مداها ، فأعجب للبون الشاسع بين ضخامة أثرها وضآلة وسائلها ، وأنظر الى البون الشـــاسع مثـلا فى صحيفة كصحيفة « العروة الوثقى » أو « أبو نضارة » أو « الطائف » أو « الاستاذ »

وريقة ذات مقال وبضعة أخبار من قبيل الاخبـــــار البوليسية او البرقيات المقتضبة ، وتحاول ان تتبع أثرها الى أقصى مداه فلا تستقصيه ، لانك قد تسمع صداه فى تخوم الصين وعلى متون الرمال فى جوف الصحراء ..

ولا محل للمقارنة من الوجهة الفنية بين تلك الصحافة وصحافتنا اليوم ، ولكن لا محل كذلك للمقارنة بين دعوة يطلبها الناس ويتشوقون اليها ودعوة تطلبهم وتحتـــال عليهم بأفانين الترغيب والتقريب

منظر الحساب بين مدير الصحيفة الاسـبوعية ووكيلها قد يصح أن يثنينى عن طبع العدد الاول من صـــحيفتى المطوية وأن يضعف أملى فى تحصيل تكاليفها بعد عدد أو عددين ..

ولكن هل تراه يذهلنى عن هذه القوة الهائلة وأنا أحسها من حولى كالدوامة المدوية فى لجة البحر الموار بالامواج والرياح ؟ ..

ان الف دجال باسم الطرق الصوفية لا يمسحون من الضمائر قداسة الدين ، وان الف دجال باسم الصحافة لا يمسحون قداسة « الكلمة » الحية بين أناس يحتاجون الى الكلمة حاجتهم الى العمل فى ساعة اليقظة من سباتهم الطويل ..

ان الصحف التى تستغل مخاوف الملوك وفضائح الدول لا تســـــتطيع أن تملأ الجو من أعلاه الى أدناه ، ولا أن تستوعبه بجميع زواياه ..

فاذا وجدت هذه الصحف ، فهى الشفاعه المقبولة أو غير المقبولة لوجود طبقات فى الجو الصحفى الى جانبها ، تنزل من الملك الى الوزير ومن الوزير الى الرئيس الصغير ومن الرؤساء الى عمد القرى ومشايخ الحارات ، ومن هؤلاء الى ما دون ذلك فى طبقات ذلك الجو الفسيح ..

وليقل العائب العاتب ما شاء ، فانه لن يســتطيع أن يقول فى النهاية شيئا عن تاريخ الشرق الحديث دون أن يقول معه شيئا عن الدعوة القلمية وعن الصـــــحافة والصحفيين ..

صحيفة الدستور

كانت صحيفة « الدستور » التى اصدرها الاستاذ « محمد فريد وجدى » منذ نصف قرن أول صحيفة يومية عملت فى تحريرها ..

ولا أقول انه كان « عمل ضرورة »

ولا اقول كذلك انه كان عمل اختيار

ولكنه كان ضرورة مختارة بين ضرورات ، اذا صح هذا التعبير ، وأبادر فأقول انه صحيح غاية الصحة ، لاننا فى اعمالنا التى نعدها من معالم حياتنا لا نستطيع ان نقول عن عمل واحد انه كله اختيـــــار ، أو أنه كله اضطرار ..

وكان فى وسعى قبل العمل فى تحرير الدستور ان أعمل فى تحرير « اللواء » أو فى قلم الترجمة باللواء على الاصح .. لاننى علمت انهم يطلبون مترجمين يعرفون

الانجليزية او الفرنسية ، بعد تفكيرهم فى انشاء «لواءات» غير اللواء العربى تصدر باســم « الاســــــتاندرد » و « ليتندار » ••

التحرير أو الترجمة

وكانت الترجمة الصحفية من اعمال تلك الفترة التى كان امثالى يستطيعونها ، وكانت ظروف التعليم والنشأة « الاسوانية » مما يرشحنى لادائها ، ويجعلنى من المفضلين فى « امتحاناتها »

فقد كنا نتعلم دروسنا المهمة باللغة الانجليزية ، ومنها دروس الجغرافيا والمعلومات العامة « أو الاشياء »

وكانت صحف المدارس المقــــروءة فى انجلترا بين « المطالعات » الاضافية المقررة علينا فى السنة الرابعــة الابتدائية

والى هنا نتساوى جميعا فى مدارس القطر كله ، ثم يأتى دور النشأة الاسوانية بمزية تنفرد بها مدينة أسوان ولا تشاركها فيها سائر المدن فى الوجهين

كانت المكتبات الافرنجية تفتح فى موسم الشتاء لبيع الكتب والمجلات والصحف الاجنبية المحلية ، وكان كبار الزوار لا ينقطعون عن زيارة المدرسة خلال الموســم الذى كان يمتد من ديسمبر الى مارس ، وتتبع زيارتهم احيانا دعوات خاصة نجلس فيها مع ابنائهم وبناتهم ولا نتكلم اثناءها بغير اللغة الاجنبية ••

وتضاف الى ذلك حالتان طارئتان على أسوان ـ فى ذلك الحين ـ لم تجتمعا لبلد من بلدان السياحة ، وهما حملة السودان وبناء الخزان ••

ففى اثناء حملة السودان ، كان الحاكم العســكرى

ومحافظ المدينة وقاضي المحكمة وقادة الفرق الموزعون على المصالح ، طائفة من الانجليز العسكريين او المدنيين لا يعرفون العربية ، وكان كل بيت فيه « ولـــد من اولاد المدارس » مرجعا نافعا لقراءة الاوراق الرسميه او ترجمة العرائض الى « الحكام » على حسب الاجتهاد ، وكان«نصف الفرنك » نفحة سخية يحصل عليها « الولد » المترجمالذى يستطيع ان يخط فى الورق بضعة سطور تدل على معنى من المعانى مفهوم بالاشارة او بالتخمين .. فأما « الولد » الذى تتكرر الشهادة له بحسن الترجمة فنصف الفرنك قد يصعد فى معاملته الى نصف ريال ، ويزداد التقدير مع زيادة القرابة أو الجوار ..

أما بناء الخزان فقد جلب الى المدينه مئات منالمهندسين والخبراء والمفتشين يقرأون الصحف الافرنجية طـــوال العام ، ويدفعنا حب الاستطلاع الى النظر فى هذه الصحف وفى صحف السائحين ، فلا يفوتنا ـ مع تتابع النظر ـ أن نعرف اقسام الصحيفة وعناوينها وأماكن البرقيـــات والاخبار منها ، وان نختطف عبارة هنا وتعليقا هناك فلا يخفى علينا معناها بالمقابلة بعد المقابلة او بالتصحيح بعد التصحيح ..

مع مصطفى كامل ..

فلما علمت أن « اللواء » يطلب مترجمين يعـــــرفون الانجليزية ، خطر لى ان استقيل من وظيفتى وان ارشح نفسى للعمل فيه ..

ولكنى ترددت ، وطال التردد حتى احجمت ، ثم فضلت ترك هذه « الفرصة » وانتظار فرصة غيرها لسببين :

« أولهما » اننى اذا اقدمت على هجر الوظيفة الحكومية

مفضلا عليها الصحافة فليكن ذلك لاكتب لا لاتـــرجم ، فانني ما احببت الصحافة لانها مورد رزق افضل من موارد الوظائف الحكومية ، ولكنني احببتها لانها مجال للكتابة او صناعة القلم بغير وساطة من صـــــناعة النقـل أو الترجمة ! ..

والسبب الثانى شخصية مصطفى كامل رحمه الله ، فان محادثتى الاولى له لم تشجعنى على مزاملته فى عمل دائم ، وصورته لى رجلا معتدا بذاته ، ضيق الحظيرة ، لا يسمح حتى للفكاهة او « للقافية » أن تفتح عليـــــه بابا لتصحح قولة قالها أو رأيا ارتآه ..

كنت اتبرع بالتعليم فى المدرسة الاسلاميه بأسوان ، وحضر مصطفى كامل متفقدا للمدرسة ومعـــــــه الكاتبة الفرنسية مدام « آدم جولييت » وسيدة انجليزية ،وكانت الحصة حصة محفوظات ولغة .. فأملى مصطفى كامل على التلاميذ هذا البيت لابى العلاء :

والمرء ما لم تفد نفعا اقامته

غيم حمى الشمس لم يمطر ولم يسر

وترجمه للسيدتين بطلاقة وايقاع ، ثم طلب من التلاميذ ان يشرحوه ويعلقوا عليه ، فاضطربوا ولم يحسنوا الشرح او التعليق ..

والتفت مصطفى كامل الى ، والى الاستاذ « محمد شلبى عيد » متسائلا ، فأدركته قائلا ان التلاميذ معذورون .. لانهم فى أسوان يعلمون ان الغيم الذى يظلل الرؤوس شىء نافع لا يضربون به المثل لقلة النفع .. فلعله انفع لهم من شعاع الشمس ومن المطر ..

« حسن تخلص » كنت أقدر من « خطيب » مثله ان يتقبله بالاستحسان والارتياح ، ولكنه تجهم وزوى وجهه،

وبدا لى ان الاستدراك عليه ـ ولو من باب الفكاهة ـ امر كثير على طاقته الفكرية والنفسية ، وأرى الان انها لم تكن منه فلتة عارضة فى زيارة عاجلة ، لان حياة الرجل كلها لا تعرض لنا لمحة واحدة فيها شىء من سماحة الفكاهة او سماحة التوفيق بين الاراء ٠٠

فريد وجدى ٠٠ والدستور

ولم يطل بى الانتظار حتى اعلن الاستاذ فريد وجدى ، عن عزمه على اصدار « الدستور »

ولم يكن اسم « فريد وجدى » غريبا عنى ، ولا عن قراء ذلك الجيل من طلاب الثقافة الاسلامية الفلسفيه ٠٠ فقد كانت له كتابات ضافية يرد بها على كتاب الغرب وفلاسفته المنكرين لحقوق المسلمين وفضائل الاسلام ، وكانت له شهرة بالاطلاع على ثقافة الدين وثقافة العصر الحديث ، فلما لقيته وحادثته لم يكن أيسر من الاتفاق معه على العمل فى صحيفته ، وخرجت اقول لنفسى ان اكبر خلاف بينى وبين كاتب كهذا لن يعوقنى عن العمل معه ، لاننى عجبت لحرية فكره ، مع اشتهاره بالتعصب والمحافظة ، بل بالتزمت والحرج فى شئون الدين والدنيا ٠٠ فما من فكرة قط كان يرى انها قضية مسلمة ، وأنها لا تقبل المناقشة

وأظن اليوم أن فرط الثقه بقوة الحجة والقدرة على الاقناع هو الذى كان يسوغ له ان يسمع كل رأى ، ويقبل كل تحد ، ويجيب عن كل سؤال ٠ ودام عملى فى صحيفة الدستور من عددها الاول الى عددها الاخير الا أشهرا قليلة فارقتها فيها ثم عدت اليها ٠٠ فأكاد اقول ان ما خالفته فيه اثناء هذه المدة اكثر مما وافقته عليه ، ولكنه لم يغير

كلمة واحدة كتبتها لمخالفة رأيه

كان شديد الايمان بالجامعة الاسلامية على منهج قريب من مناهج الرسميين ، ولم يكن كغيره من طلاب الكسب والجاه من وراء هذه الدعوة ، بل كان يخسر الكثير فى احرج أوقات الحاجة الى المال • ومن ذلك انه رفض الاتفاق مع حزب تركيا الفتاة اعتبار « الدستور » لسان حال للحزب فى سياسته العثمانية بعد ان تكفل الحــزب بالانفاق على الصحيفة وسداد ديونها ، لان الحزب كان يشترط ان ترفع من عنوان الصحيفة كلمة « لسان حال الجامعة الاسلامية » •• ولم تمض أسابيع حتى كان الرجل يبيع كتبه بثمن يضارع ثمن وزنها من الورق ليؤدى مرتبات الموظفين والعمال

وعلى هذا التشبث بهذه الدعوة كنت اخالفه فيهـــا ، وأرى انها تعمل لنفسها ، ويعمل لها الزمن أضــعاف ما يعمله المنقطعون لها من دعاتها المخلصين وغير المخلصين •• فلم يحاول قط ان يفرض على رأيا فى قضية من قضاياها بغير الاقناع أو السكوت ••

وكانت صحيفة « الدستور » لسانا ثانيا للحزب الوطنى بعد اللواء • وكان موقف الحزب الوطنى معروفا من سعد زغلول وبخاصة بعد قيام الشيخ جاويش على تحريراللواء، ولكننى كنت اؤيد سعدا وأرد على ناقديه فى الدستور ، فلم يمنع كلمة واحدة مما كتبته فى هذا الموضوع ••

وكان من غلواء الاستاذ وجدى فى محاربة الاختــلاط الجنسى أنه كان يشجع الهواة على انشاء فرق تمثيلية يتم فيها التمثيل بغير ظهور النساء على المسرح ، وهذه حذلقة تغرى بالسخرية حتى فى تلك الاونة •• ولم يكن الرجل

على جهل بتاريخ التمثيل فى الغرب الحديث أو القديم ، فكان اذا لمح منى بادرة من بوادر السخر الخفية لم يزد فى حدته على أن يقول : « لقد أجازها شكسبيركم لضرورة من ضروراته ·· فهل وقفت ضرورات الدنيا كلها عند شكسبير » !

الغاضبون !

واعتقد ان اختيار اسم الصحيفة وحده كان ميزانـــا لنزاهة هذا الرجل ولحريته الفكرية والدستورية ، يغنى عن كثير من الموازين ··

وماذا فى « اسم » على رأى شكسبير أيضا ؟ ··

فيه كثير وكثير ، ولا سيما فى العصر الذى سميت فيه الصحيفة باسم الدستور ··

كان اسم « الدستور » يغضب قصر « يلدز » ويغضب قصر عابدين ، ويغضب « قصر الدوبارة » ··

وكان الحزب الوطنى يطلب الدستور ولكنه يتحرج من الدعوة العامة اليه ، لانه ينكر مقاصد المطالبين به من رعايا الدولة العثمانية ، ويشفق من غضب السلطان عبد الحميد · ويراجع القارىء اليوم صحيفة « اللواء » فيرى انها كتبت عن المطالبين بالدستور فى تركيا ، قبل اعلانه هناك بيوم واحد ، فقالت انهم قوم يسبحون فى الخيال··

وكان الخديو يحرض على طلب الدستور سرا كلما اراد بالتحريض عليه احراج الانجليز والحد من سلطة المندوب البريطانى والمستشارين ، ولكنه كان يرفض الاصغاء الى هذا الطلب كلما ثاب الى شىء من الوفاق بينه وبين المحتلين ·· ولهذا كان حزب القصر يسمى نفسه « حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية » ·· ولا يخفى الفارق بين الدستور

واصلاح الدواوين على مبادىء الدستور !

وكان حزب الامة » كما يدل عليه اسمه يعارض الحكم المطلق للعرش ... وللعرش فى عاصمة الدولة العثمانية ، وكان ... بالاستقلال التام فيهدده المؤيد بحكم القانون لان السيادة العثمانية مقررة فيه ، ولكن حزب الامة على مناداته بحصر الحقوق كلها فى الامة لم يخل من اقطاب مخلصين كانوا يحسبون الطفرة فى الحكم النيابى خطرا حقيقا بالحذر والاجتناب ..

فاذا ظهر من بين هذه الصفوف رجل لا سند له من أصحاب العروش ، ولا من جمهرة الاحزاب ، فاختار كلمة « الدستور » دون غيرها اسما لصحيفته الوليدة فهو اسم يدل على كثير ، وان غضب صاحبنا شكسبير ! ..

صحافة المتطوعين

فى هذه الصحيفة بدأت عملى الاول ، فماذا كان عملى الاول هذا ؟ او بماذا نسميه فى « تقاسيم » الصحافة الاخيرة ؟

لا يوجد له اسم واحد ، وقد يحيط به على الجملة اننى كنت نصف هيئة التحرير برمتها ، اذ لم يكن فى قلم التحرير غير كاتبين اثنين ، احدهما انا والاخر صاحب الصحيفة !

ولا نبخس فى هذا المقام فضل « التطوع » فى تحرير صحيفة الدستور ، ولا فى تحرير غيرها من صحف تلك الفترة .. فقد كان قوام المقالات الصحفية من « تحرير المنازل » وكانت اشهر الفصول على الاطلاق فى ذلك العهد فصولا كتبها المحررون المتطوعون ، وكل حامل قلم فى البلد محرر متطوع ما عدا الجالسين على مكاتبهم فى دور

الصحف المحدودة ، وهم معدودون على الاصابع

ولقد كان نصيب « الدستور » من التطوع اوفى نصيب اذ كان فيها « محرر متطوع » دائم يكاد ينهض بعمل الترجمة الفرنسية وحده ، ويكتب الى جانبها التعليقات وحواشى الاخبار والمتفرقات ..

كان الاستاذ « احمد وجدى » شقيق الاستاذ فريد صاحب الصحيفة هو ذلك المحرر المتطوع الدائم ، وكان رحمه الله شابا المعى الذكاء كريم الخلق مستقيم الذهن مجتهدا فى كل عمل تولاه ، وقد تولى عملا قليلا فى الصحافة ثم تولى عمله فى المحاماة أمام محكمتى الزقازيق والمنصورة ، فاشتهر فى الاقليمين ايما شهرة ، وقامت شهرته على الذمة والعفة كما قامت على البراعة والبلاغة ، ولو امهلته المنية بضع سنوات لما عرفت مصر اسما اشهر من اسمه فى عالم المحاماة

وكان زملاء « الاستاذ احمد وجدى » يتطوعون معه بالكتابة والترجمة من حين الى حين ، ولكنهم اضربوا جميعا — أو كادوا — بعد الخلاف الذى حدث بين فريد وجدى ومصطفى كامل .. وكان فحوى هذا الخلاف ان صاحب الدستور اعترض فى مجلس ادارة الحزب على اختصاص وزارة الخارجية البريطانية بالاحتجاج على الاحتلال ، وقال ان هذا الاختصاص ربما اعطاها الصفة « الاستثنائية » التى تدعيها فى مصر ، ولا ضرر من تعميم الاحتجاج على صيغة من الصيغ اذا كانت الصيغة المكتوبة لا تسمح بتوجيهها الى اكثر من دولة واحدة ، فاعرض مصطفى كامل عن اقتراحه واعرض معه أكثر الاعضاء ، وكتب فريد وجدى خلاصة المناقشة فى الدستور فحسبه المؤيدون الأليون منشقا على الحزب وقاطعوه ، ومنهم بعض أولئك

الطلبة « النجباء » الذين كانوا يتطوعون للكتابة فى صحيفة الحزب الثانية !

الا اننا ـ نحن هيئة التحرير ـ المؤلفة من صاحب الصحيفة ومنى ، كنا نعمل فى التحرير والترجمة والتصحيح وتهذيب الرسائل والاخبار ·· وكان الاستاذ وجدى قليلا ما يبرح داره ، فكنت انوب عنه فى أعمال الصحيفة الخارجية ، ومنها الحصول على الاخبار وعلى الاحاديث ، وبينها اول حديث للوزراء المصريين ··

والاخبار لم يكن خطبها فى ذلك العهد بالامر العسير··

كان لها مكتب بديوان الداخلية ترسل اليه النشرات من جميع الدواوين ، ومعظمها عن التعيينات والتنقلات وصرف الاموال فى المشروعات العامة ·· ولم تكن هناك حاجة بالمخبرين الى استطلاع النيات والتقاط الاسرار ، فان السياسة الكبرى كانت فى علم المندوب البريطانى ومستشاريه ومفتشيه ، وليس لاحد من الصحفيين صلة بهؤلاء غير اصحاب « المقطم » وبعضهم وكلاء الصحف الاوربية ، وصلاتهم جميعاً لا تفيدهم شيئاً من اسرار السياسة العليا ، ولا تطلعهم على خبر من اخبار الميزانية قبل اوانه ··

فالمخبر البارع ، والمخبر العاجز ، فى النهاية على حد سواء ·· الا أن طائفة من المخبرين كانت تساوم « الادارة » على تكاليف المهنة وتوهم وكلاء الحسابات فيها انها تحصل على اخبار النقل والتعيين والاعتمادات المالية من قصاصات « المسودات » فى سلال المكاتب المهملة ، وظلت هذه الحيلة تروج عند بعض الصحف الى ما بعد ايام الثورة فى اعقاب الحرب العالمية ، ورأيت بعينى واحداً من هؤلاء المخبرين يبسط هذه القصاصات ويجمع

متفرقاتها ويلصقها ليزعم بعد ذلك انه قد جاء بالخبر المضنون به على غير المجتهد الاريب

***

كنت اذهب الى مكتب الاخبار الصحفية بديوان الوزراة فأرى هناك على التناوب عشرين أو ثلاثين صـــحفيا من مندوبى الصحف العربية ..

وليس من هؤلاء جميعا واحد فرد يذكر اليوم أو يعرفه السامعون اذا ذكر ، ولكن القارىء قد يعجب لاختلاف مقاييس النظر والتقــدير اذا علم اننى كنت فى نظرهم جميعا فضوليا متطفلا على الصناعة ، وسمعت احدهم يتكلم عن عمر منصور مندوب المؤيد ، وعبد المؤمن الحكيم مندوب الاهرام ، وسامى قصيرى مندوب المقطم ، وجورج طنوس مندوب الوطن .. فاذا هو يشيعنى بالاشارة الساخرة ، وهو يسب الزمن لانه قضى عليه بالعمل فى الصحافة مع أمثالى :

« يحرق دين ها « البريس » press .. ما عاد غير ها الزعران يسود ورقاتها .. »

الفصل الثالث

الصّحافة قبل خمسين سنة



قبل خمسين سنة

بعد شهرين من العمل فى داخل الصـــحافة المصرية ، أمكننى أن الخص حياتها عند أوائل القرن العشرين فى كلمة واحدة :

تلفيق ! ..

فلولا ضرورة قضت بوجود الصحافة يومئذ على صورة من الصور لكان من أعجب العجائب حقا أن توجد صحيفة واحدة ، وان تعيش ـ اذاوجدت ـ أكثر من بضعة شهور

كانت موارد الصــحف كلهــا من الاشتراكات ، وثمن النسخ الموزعة ، وأجور الاعلانات .. وكانت هذه الموارد لا تكفى كل الكفاية للانفاق على الصحيفة الى أمد طــويل ، ولكنها مع ذلك لم تكن خالية من عقباتها وموانعها ولا من جرائر الخلل الدائم فى وسائلها ومواعيدها

فلم يكن للصحيفة ، المنتظمة ، بد من مورد آخــر غير الاشتراكات وغير البيع وغير الاعلانات ،وهو كذلك مورد مضطرب معرض بطبيعته للفوضى وتبدل الأحوال ،ونعنى به مورد «الاعــانات » السرية من اصــحاب الدعــايات ، ومعظمها دعايات تصدر من قصور الملوك والأمــراء أو من دواوين وزارات الخارجية والسفارات

فالاشتراكات الصحفية قبل خمسين سنة ـ كانت من

الموارد الثابتة المنتظمة ، بالقياس الى موارد الصحف فى العصر الحاضر لان الصحف فى العصر الحاضر تعتمد على البيع فى الاقاليم ولا تعول كثيرا على الاشتراكات ولم تكن وسائل البيع فى الاقاليم ميسورة للصحف اليومية ، فضلا عن الاسبوعية او الشهرية الى زمن قريب ..

وكانت الاشتراكات خليقة أن تمد الصحف بمورد نافع لو خلت من موانعها وعثراتها ، ولكنها كانت فى الواقع مولودة بموانعها وعثراتها ، أن صح هذا التعبير ..

كان أعيان الريف يحبون أن يشتركوا فى الصحف اليومية لانها مظهر من مظاهر الوجاهة و « الاهمية » فى القرية او البلدة الصغيرة .. ولم يكن بالقليل بين مظاهر الوجاهة اليومية ان يحضر ساعى البريد الى الدار يوميا ليدق الباب على مسمع من الجيران وينادى بصوت يشبه صوت المنادى باسم « المحكمة » فى ساحة القضاء :

« بوسطة » !..

فاذا بالحى كله يترقب « سماعا » جديدا بعد هذا النداء ، يحيط بانباء الارض والسماء ، ويتحدث عن المسكوف و « الانجلاطيرا » وملك «الفرنسا» أو الجمهور كما كانوا يسمعون عنه منذ أيام حملة نابليون ، ويتخللها بالاسطورة الطريفة التى تسمى بالترنسفال .. وبينها وبين السودان فى الجنوب الوف الاميال ، وياله من « واقع » وراء الخيال !

ولم يكن الوجيه الريفى يبخل بثمن هذا المظهر ، أو يماطل الصحفية بقيمة الاشتراك حبا للمطال .. ولكنه يجود به عن طيب خاطر لو وجد أمامه من يقبضه منه لحساب الصحيفة ، وأين هذا الذى يقبضه لحساب الصحيفة ويؤديه بالامانة والوفاء ؟..

لقد كانت الصحف تنشر ، بين آونة واخرى ، خبرا مكررا عن الوكيل « فلان » الذى ألغى توكيله وأصبح غير معتمد فى تحصيل الاشتراكات .. وكانت هذه الصحف تنشر قبل ذلك أعلانا موجها الى وكيلها فى هذا الاقليم أو ذاك تنبهه الى موعد السداد وتلوح له بالتهديد والانذار . وقد ينفع التهديد مرة ولا ينفع مرات ، ولكنه يعاد ثم يعاد ، ويتجدد مع الوكيل الجديد تارة ومع الوكيل القديم تارات ، ولا تستغنى الصحيفة عن مراجعة الوكيل القديم لقلة الوكلاء المتخصصين لهذه الصناعة أو المدربين عليها فى معاملة الصحف والمشتركين والموظفين وأفراد « الجمهور الصحفى » على التعميم ..

« حق » الصحيفة

وكانت للوكيل فنون فى معاملة الموظفين واغرائهم بالثناء أو تهديدهم بالتشهير والانتقاد .. ولا غنى له عن هذه الفنون لانه كان يستعين على الدوام بالموظف الكبير والموظف الصغير فى تحصيل « حق » الصحيفة و «حقه» هو فى سوقه السوداء .. من وراء الستار ..

ولا مناص من الوكيل لتحصيل الاشتراكات ..

ولا حيلة فى قبول الوكيل على علاته ، لان معاملات الصحف لم تكن فى ذلك العهد قد ثبتت ذلك الثبات الذى يسمح «بتكوين» طائفة من الاعوان المدربين ينقطعون لها ويثابرون عليها ، فاذا نجح من الوكلاء واحد من عشرات فانما ينجح بعد أبتلاء الصحيفة بخسائر هؤلاء العشرات ، على دفعات !

ولنذكر أن الوكيل ـ على عيبه هذا ـ لا يستطيع أن يعمل فى بلاد يجهلها ولا يقيم بين ظهرانيها .. فلابد له

من موطن فى أقليم يعرفه ، ولا يتسع هذا الاقليم المحدود لاكثر من مئتى مشترك على أكبر تقدير ..

وكم يصل من هذا المحصول الى خزانة الصحيفة بعد المطال والعمولة والسوق السوداء ؟ ..

قليل .. جد قليل !

وكل صحيفة احتاجت الى هذا القليل ، فقد كان عليها أن تقبل وسائله وتتجرع غصصه ، وتغضى عما تعلمه من عيوبه ومحظوراته ..

عدة الشغل

ومنها — بل فى مقدمتها — ان تنشر الصحيفة كل ما يصل اليها من رسائل الوكيل أو من مدائحه وأهاجيه فى الواقع ، لانها « عدة الشغل » التى يعمل بها ، ولا عمل له بغيرها ، بين الاعيان والموظفين .. فمن تصدى لتحصيل الاشتراكات — وتحصيل غيرها فى السوق السوداء — فلا أمل له فى محصول ينفعه وينفع الصحيفة بغير تخويف واغراء ، ولا ضير بالتخويف والاغراء فى سبيل الخدمة العامة والمصلحة القومية .. ولكنه الضير كل الضير على الوكيل « الاريب » الذى يستطيع أن يجمع المئات من لذعة هنا وأكذوبة هناك ثم يتركها ليقنع بالعشرات وما دون العشرات

واحسب — بعد هذا كله — أن التفاؤل فريضة على الناس يضطرهم اليها الصدق الواقع ان لم يضطرهم اليها شعورهم بالحاجة الى الامل والعزاء ..

ان الامور لا تقاس بأسوأ الظروف فى جميع الاوقات ، فكثيرا ما تتمخض الظروف السيئة عن حسنات لم تكن

في الحسبان • ولقد رأينا في ذلك العهد اناسا عملوا في وكالة الصحف يدينون أنفسهم بنزاهة القــاضي وأمانة الطبيب ، ويشتغلون بهذه الصناعة لانها « هواية » تمــلأ الفراغ بالرحلات والمقابلات في غير عنت ولا اضطرار ، ولكنهم شذوذ القاعدة الذي يبعث فينا التفاؤل كما أطبقت علينا ظلمات الشؤم والقنوط ••

أما القاعدة المطردة يومئذ ، فقد كانت صفحة من صفحات الصحافة الحالكة في تطورها الاخير .. وكانت «تصنيفة» الوكلاء الصحفيين في القرن العشرين تدل على الموردالذي تتسرب منــه اشــــتراكات الاقاليم ، فهي « تصنيفة » يتلاقى فيها الكاتب العمومي المتجول ، وقارىء الأعراس والمآتم ، ومأذون الشرع المفصول : وصاحب الصـــناعات التي لا تحصى .. لانه « متشرد » عام يشتغل بجميـــع الصناعات !

التوزيع

أما التوزيع بأيدي الباعة فقد كان موردا للصــــحف اليومية أهم من مورد الاشتراكات وأيسر منه في متاعب التحصيل ، ولكنه لو اجتمع برمته من جميع الصــحف الكبرى التي كانت تصدر في القاهرة قبل خمسين سنة ، لما كان فيه الكفاية لاصدار صحيفة يوميـــة واحدة في هذه الايام

وكان اربعة أخماس النسخ المعدة للبيع توزع في القاهرة وضواحيها •• ولولا ان الاسكندرية كانت مســـتعدة بموزعيها المشتغلين ببيع الصحف الاجنبية لما تأتى تدبير مسألة التوزيع فيها ..

ومن المناظر المألوفة اليوم في عواصم القطر أن يـــرى

المارة للصحيفة اليومية اربع سيارات أو خمسا تتسع الواحدة منها لحمل عشرات الالوف من النسخ وتتولى نقلها يوميا على خطوط الاسكندرية أو بور سعيد أو الاقاليم الوسطى فى الوجه البحرى أو أقاليم الصعيد ...

فقبل خمسين سنة لم تكن فى القطر المصرى سيارة واحدة من هذا القبيل ، ولو وجدت فيه سيارة واحدة لفرغت من عملها فى حمل صحف القاهرة جميعا بعد نصف ساعة ..

المعلم عكريشة

وكان المعلم عكريشة يجلس الى ناحية المكتب وفى يده الجوزة التى لا تفارقه ، وأذناه الى الكاتب الذى يسأل « أولا فأول » عن عدد الوارد من كل صحيفة ، الى ان يتم الوارد من جميع الصحف اليومية .. ثم تبدأ عملية التفريق على المساعدين من المتعهدين ، فأنصاف المتعهدين ، فالباعة المتفرقين ..

ولا يكلفك الامر اكثر من جولة سريعة بالنظر فى هذه الزاوية الضيقة لتحصر كل ما صدر من صحف مصر الكبرى فى ذلك النهار : المؤيد ، واللواء ، والاهرام ، والمقطم ، والوطن ، ومصر ، والظاهر ، والراوى ، والجوائب المصرية ، والمحروسة ، فى بعض الاحايين ..

وكانت هذه الصحف تصدر معا فى وقت واحد بين الساعة الثانية والساعة الثالثة فى المساء ، ويحملها عمال عكريشة أو عمال الصحف من مطابعها الى الزاوية المعروفة ، فلا تلبث « عملية » النقل والصف والتفريق أكثر من ساعة واحدة بنصف حمولتها ..

وما كانت صحف القـــــاهرة الكبرى تحتـــاج الى مكان للتوزيع أوسع من « زاوية عكريشة » على جانب من رصيف المحكمة المختلطة بجوار العتبة الخضراء ..

ولم تكن «زاوية عكريشة » هذه مكتبا ولا شـــبه مكتب ، ولكنها كانت منضدة من مناضد الكتبة العموميين على ذلك الرصيف .. وكان المعلم « عكريشة » متعهـــد بيع الصحف جميعا يستعيرها فى مبدأ الامر من كاتبهـا الذى كان يستغنى عنها بعد الظهر ــ أى بعد الفراغ من كتابة العرائض للمحكمة وكتابة الرسائل لصندوق البريد ــ ثم بدا له أن يشتريها وكاتبها جملة واحدة ، لاتســـاع دائرة العمل وزيادة الاقبال على الصحف اليومية بعـــد قيام الاحزاب السياسية ، على أثر قضية دنشواى ..

ثم يخلو الرصيف الا من المعلم عكريشة وكاتبـــه ومنضدته وقلمه الذى يحمله وراء أذنه ، الى أن يودعــه مكانه فى الدواة النحاسية الصـــفراء .. ومتى خـــلا الرصيف هناك لم يبق مكان فى القاهرة خلوا من صـــبى من صبيان المعلم الكبير ، تكاد تحسبهم أسرع من التـــرام لانهم يصلون حيث لا يصـــل الترام ، وتـــكاد تختلط أصواتهم بأصوات بائعى الخضر والفاكهه ، ومنها النـــداء على « الوطن ومصر العال ! » ..

وليس أمامى احصاء دقيق لتوزيع الصـــحف فى تلك الايام ، ولكنه على الحد الاقصى لا يزيد على خمسة الاف للصحيفة الواحدة ، لانه الحد الاقصى الذى تبلغه طاقة المكنات الطباعية ، قبـــل وصول مكنـــات البخار والكهرباء !..

الاعلانات

ولا نعرف اليوم صحيفة تستطيع ان تسقط الاعلانات

من حسابها ثم تطمع فى البقاء واستيفاء ابواب الاخبار والتعليقات ، ولكن صحافة الامس كانت تستطيع بلاتردد أن تسقط اعلاناتها من عددها الاول ثم لا تفقد شيئـــا يعوقها أسبوعا عن الصدور ..

وكانت التقاليد الموروثة ـ والاميــــة معــا ـ عائقين طبيعيين لظهور « الاعلان » الصحفى الى ســــــنوات قليلة مضت .. لعلها هى السنوات التى ظهرت فيهـا أول شركة للاعلان الصحفى فى هذه البلاد . .

كان من التقاليد الموروثة أن يشترى الانسان لوازمــه « المهمة » من حيث اشتراها أبوه وجده

وكان الريفى ينزل القاهرة لشراء لوازم الفــرح ، أو لوازم البناء والاثاث ، فيذهب الى أمكنة معروفة بأسمائها لا تتغير من جيل الى جيل ، وكلهم يعرف عناوين مدكــور والماوردى والجمال والحمصانى ومخازن الحدائد والاخشاب فى ناحية القلعة وسوق السلاح ، ولا نظن أن متجرا من متاجر القاهرة المشهورة نشر اعلانا واحـــدا ليكسب به « زبونا » لم يكن يعرفه قبل ذلك الاعلان ..
اما المتاجر الصغيرة التى تباع فيها لوازم البيـــوت اليومية ، فقد كانت معروفة فى احيائها وقراها بغير حاجة الى اعلان مكتوب ...

لهذابقيت اعلانات الصحف سنوات عدة وهى مقصورة على اعلانات البيوع القضائية واعلانات الوفيـــات أو اعلانات « ختمى فقد منى وليست على ديون ولم أوقع على سندات أو كمبيالات .. »

واعلانات « الاختام » وحدها عنوان صــــادق لنصيب الصحف من قراء الاعلانات .. لانها عنوان للاميــة التى

تعجز عن كتابة الاسماء . ومع هـــذه الامية ، لا أعلان ، ولا قراء للاعلان !.

الاعلانات السرية

ونحن الان تكتب ونقدر ونتذكر ولا نرجع الى الصحف التى عاشت فى مصر وانطوت بعد حين .. ولكننـــا لا نجازف اذا قلنا أن مصاريفها كانت عـلى التحقيق اكبر من مواردها التى يدل عليها حساب البيع والاشـــتراك والاعلان .. ولولا أنها اعتمدت فى وقت من الاوقـــات على مورد الاعانات « السرية » لما طال بها الاجل شهورا ، فضلا عن سنوات ..

وقد تعلم مبلغ الحاجة الى هذه الاعانة اذا علمت أن شركات البرق ـ كشركة روتر وهافاس ـ كانت تتـلقى اعانة رسمية من الحكومة المصرية، وأن مطبوعات الدواوين والسفارات كانت تحال ـ علانية ـ الى بعض الصـحف لطبعها ، مع وجود المطبعة الاميرية

ولم تكن مصادر الاعانة مجهولة بين العاملين فى الصحافة والسياسة ، وان لم تبلغ من الصراحة فى زمن من الازمان مبلغ الاعتراف المكتوب

وربما انقسمت هذه المصادر فى جملتها الى مصــدرين أثنين على شيء من الدوام والانتظام .. وهما القصــور الملكية ودواوين السفارات ووزارات الخـــارجية ، وقصر « يلدز » فى الاستانة كان مصدر القسط الاوفر من اعانات الصحافة والصحفيين المتطوعين ..

وقصر « عابدين » بمصر كان المصدر الآخر الـــذى ينافسه يوما ويعمل معه يدا بيد فى عامة الايام ..

وكان بخل عباس المشهور يغل يده عن التبرع بالمال من خزانته الخاصة ، فكان يحيل أعوانه من الصحفيين تارة الى ديوان الاوقاف وتارة الى ديوان الرتب والنياشين ..

أسعار الرتب

وكانت للرتب اسعار مقررة من الباشوية الى البيكوية من الدرجة الثالثة

فكانت رتبة الميرمران الرفيعة تباع بألف جنيه ، ورتبة البيكوية من الدرجة الاولى تباع بثمن يتراوح بين خمسمائة جنيه وسبعمائة جنيه ، وكانت رتبة البيكوية من الدرجة الثانية تباع باربعمائة جنيه أو ثلثمائة جنيه ، وتقدر أسعار النياشين والاوسمة بمقدار قيمتها من المعدن والجواهر وقيمتها من الاولية فى ترتيب التشريفات

ولقد بيعت رتب كثيرة فى القهوات ، وبيعت رتب مثلها فى مكاتب التحرير والتوكيل . . ولكنها لم تهبط فى السوق — على ما نعلم — الى ما دون مكاتب التوكيل فى القاهرة والاسكندرية .. ولو ان سمسارا من سماسرتها خانه الحظ أو غلبه الطمع فباع رتبة من هذه الرتب لرجل محكوم عليه فى جريمة شائنة ، لبقيت هذه التجارة موردا للصحافة الى ختام عهد الخديويين ..

والوكالة البريطانية وسفارة فرنسا كانتا فى هذا المجال ندين كفأين — أو اكثر من كفأين — لقصور الملوك والامراء، ولكن الوكالة البريطانية كانت تكافىء خدامها بالمنافع الجزيلة من الوساطات والشفاعات فى دواوين الحكومة ، وقد تجود بالمال من مصروفات «الميزانية» ومن مصروفاتها هى اذا اقتضى الحال .. ولا تقصر السفارة الفرنسية

عن زميلتها في بذل هذه الاعانات على اختلافها ، ولكنهـــا كانت تعوض الخدمات الحكومية بالصفقات التجـــارية ومساعدات المصارف والشركات ، وقل فيها مالم تـــكن للفرنسيين مساهمة فيه ..

ومن الوظائف التى كانت تبدو للنظر ــ بريئة ــ من هذه الشـــبهات وظيفة المدير العام لدار الكتب المصرية التى كانت موقوفة ــ باتفاق العرف ــ على علماء الالمان. ولكن هذه الوظيفة عملت فى الدعاية الخفية أحيانا ما لم تعمله وظيفة فى السفارات السياسية ، وكان اتصال المدير العام لدار الكتب بزمرة الصحفيين وحملة الاقــلام أمرا لا غبار عليه ، لانهم كانوا يقصدون الى دار الكتب للمطالعة والمراجعة والنسخ فى جميع الاوقات . وماذا يحول دون الاتفـــاق على حملة منظمة فى الصـــحف خلال مقابلة او مقابلتين لنسخ هذه الورقة أو استعارة ذلك الكتاب ؟ ..

ونعود الى الدستور

ونعود الى صحيفتنا التى بدأنا فيهـــا عملنـــا نسأل : كيف عاشت من مواردها الصحفية ؟ وكيف كانت ترجو أن تعيش كما عاشت الصحف فى ايامها ؟ ..

نقول اليوم ان ظهورها بوسائلها التى عهدناها ، ولا يخامرنا الشك فيها ، كان عجبا من العجب . وخلاصـــة ما يقال عنها أن قلة مصروفاتها كانت هى السند الاكبر لبقائها المزعزع فى عمرها القصير

ضاع الامل فى الاشتراكات بعد شهر او شهرين ، ولم يكن صاحب الصحيفة ــ على شهرته بالنظريات ، مجردا من الدراية الحسنة فى تنظيم الاعمـــال ، فاخترع طريقة الاشتراك الشهرى بالاذونات مع خصم رسوم البريد من

بعض هذه الاذونات ، وأفادت هذه الطريقة قليلا ولكنها كانت ، على أحسنها ، فائدة تأجيل للقضاء المحتوم

وكسدت سوق البيع بعد الخلاف بين الدستور واللواء، فقصرت الادارة عدد المطبوع من النسخ على الطلب اليومى، ولم يزل هذا الطلب اليومى يتناقص من أسبوع الى أسبوع ..

ومن لطائف الاستاذ فريد وجدى - وكان يمزح أحيانا ولا يقول الا صدقا - ان موظف الادارة فاتحه فى نقص أجور الاعلان فقال له متململا : ألا تحمد الله لاننا لا نغرم حتى الان اعلانات فى الصحف عن ظهور الدستور ؟!

أما الاعلانات السرية فقد كان الدستور خليقا أن يجمع منها الكثير لولا أن الاستاذ فريد وجدى رحمه الله كان يحسب انه يسخر أصحاب الدعايات لرسالته الدينية ولا يفهم أنهم يسخرونه لدعايتهم السياسية .. وقد يصل الامر الى تبرعات الافراد ، فلا يقبل منها الرجل ما يزيد على قيمة الاشتراك المكتوبة على الصحيفة .. وحدث من ذلك أن السيد توفيق البكرى أراد أن يعرب للصحيفة عن شكره لموقفها منه أمام الخديو فى مسألة « زفة المحمل » وحضور الطرق الصوفية فيها ، فأرسل الى الاستاذ وجدى مبلغا لا أذكره على التحقيق ، ولكنه يزيد على قيمة الاشتراك بكثير .. فأمر صاحبنا كاتب الحسابات أن يكتب للسيد ايصالا بقيمة الاشتراك ، ويعيد اليه بقية مبلغه مع الايصال ..

وماذا تكون النتيجة ؟

تكون على هذا نتيجة مكتوبة قبل المقدمة ، ولولا قلة المصروفات - كما أسلفنا - لاتصلت النتيجة بالمقدمة فى أيام ، أو على الأكثر فى أسابيع !

ستة جنيهات

كانت المصروفات القليلة سببا من أسباب بقاء الصحف المصرية فى سنواتها الاولى ..

وتظهر قلة المصروفات من تكاليف التحرير فى الصحف اليومية الكبرى ، فقد كان قلم التحرير فى أكبر الصحف لا يزيد على خمسة من المحررين والمترجمين والمخبرين وملخصى الاخبار من الاقاليم ، يبدأ مرتبهم من خمسة جنيهات فى الشهر ويندر جدا ان يجاوز العشرين ..

وكان قلم التحرير فى صحيفة الدستور يشتمل على محرر واحد غير صاحب الصحيفة ..

وهذا المحرر الواحد هو كاتب هذه السطور ، يشترك فى التحرير والترجمة وتلخيص الاخبار ، ويتناول فى الشهر مرتبا لا يقنع به الآن احد يعمل فى الصحف من البوابة الى السعاية ونقل الاوراق بين المكاتب ، ودع عنك التحرير والترجمة وجلب الاخبار ..

ذلك المرتب « مبلغ وقدره » ستة جنيهات ، ولم يكن يزيد على مرتبى من وظيفة الحكومة بأكثر من جنيه واحد .. فلم تكن زيادة المرتب احدى المغريات لى على ترك الوظائف الحكومية للاشتغال بالصحافة ، لان المرتبين متقاربان مع الفارق فى الضمان والترقية ومستقبل المعاش ..

الا ان القيمة فى هذه المرتبات لا تحسب بحساب الارقام فان الستة ربما ساوت ثلاثين فى الوقت الحاضر او اربت على الثلاثين ..

كانت خمسة مليمات فى ذلك الحين تعطيك مائدة افطار حسنة فى الصباح ، وقد ترضيك هذه المائدة عند الضرورة

فى طعام الغداء أو العشاء ..

مليم ثمن نصف رغيف (شقة من الخبز) يساوى وزن الرغيف فى منتصف القرن العشرين ..

ومليمان ثمن الفول والزيت

ومليم ثمن صفحة من السلطة

ومليم ثمن برتقالة او يوسفية او اصبع موز أو اربع بلحات ..

فان اردت التنويع امكنك ان تغير هذه الاصناف بالحلاوة الطحينية أو العسل والطحينة او الجبن أو البيض ، ومن هذه الاصناف ما يغنيك عن الفاكهة والحلويات !..

ولك ان تتوسع فى طعام الغداء ، فلا تقنع بالاصناف التى تقدم على مائدة الافطار .. ولكنك لا تحتاج الى أكثر من عشرة مليمات للصفحة من الخضر المطبوخة وعشرة مليمات للصفحة من الارز ، وعشرين مليما للصفحة من الخضر وفيها قطعة من لحم البقر أو الضأن

وقس على ذلك سائر المأكولات ..

دروس التلغراف

وكانت مشكلة السكن يومئذ ايسر من مشكلة الطعام ..

فكنت انا من سكان الضواحى الخلوية ، لا يكلفنى السكن فى الشهر اكثر من ثلاثين قرشا لحجرة ذات نوافذ مطلة على الطريق ومروج الخلاء ، ولم يقع اختيارى على الضاحية التى سكنتها ـ بجوار حدائق القبة ـ لاننى كنت من طلاب الترف وسكان المنازل الخلوية ، ولكننى كنت اتعلم دروس التلغراف بمدرسته فى ضاحية الدمرداش ،

فاخترت السكن الى جوارها وضمنت اجور المواصلات باشتراكات « مجانية » على حساب مصلحة السكك الحديدية . فلما اشتغلت بالصحافة خسرت اجور المواصلات ، ولم اعوضها بتذاكر الاشتراك فيالترام اوقطار كبرى الليمون .. اذ كان طلب هذه التذاكر مخالفا لمبدأ صحيفتنا « الحنبلية » .. فعوضتها بخمسة مليمات فى الترام ، أو بمشوار على الاقدام ، وقد كنت من الفلاسفة المشائين قبل ان اسمع باسمهم بين الفلاسفة الاقدمين ، وكنت لا أعجز عن مشوار بين أسوان والخزان أو بين اسوان وابى الريش ، فلماذا اعجز عن مشوار بين القاهرة وحدائق القبة أو الدمرداش ؟..

لا موجب لهذا العجز على التحقيق ، وبخاصة بعد العلم بمدرسة الفلاسفة المشائين ، وبعد ترشيحى بهذه الصفة للتلمذة على استاذ الاساتذة ومعلم المعلمين : سيدنا ارسطو كما كان يقول استاذ الجيل « احمد لطفى السيد »

ديوان زهير .. بقرش

هذه ضرورات المعيشة المادية ، فما القول فى ضروراتها النفسية أو الادبية ؟

لقد كانت أيسر من ذلك فيما أعرفه من شئونى الخاصة .. ولعلها ايسر من ذلك فى شئون الكثيرين ..

ففيما عدا شهود التمثيل مرة أو مرتين عند عرض الروايات الجديدة لم يكن لى مطلب عزيز غير شراء الكتب العربية والافرنجية

فهل تراني أعجز عن « قرش صاغ » ثمنا لديوان البهاء زهير ؟ او عشرة قروش ثمنا لديوان المتنبى ؟ او قرشين ثمنا لكتاب المستطرف فى كل فن مستطرف ،

وعلى هامشه ، أو فى ذيله ، كتابان آخران ؟ ..

واذا زادت الحسبة الى الجنيهات ، فهل ترانى أعجز عن رحلة الى دار الكتب المصرية لمراجعة المجلدات أوللنقل منها « عند اللزوم » ؟..

أما الكتب الافرنجية فقد كانت لها طبعات يبـــاع فيها الكتاب بشلن واحد ، وكانت هذه الطبعات تحيط بالنخبة المختارة من كتب المنظوم والمنثور، ومايصعب الحصول عليه فى طبعة منها لانها مخصصة لصنف من الكتب تنتقيه ولا تعنى بغيره ، فليس من الصعب ان تحصل عليه فى طبعة مثلها فى الثمن وفى جودة الورق والتغليف .. وعلى هذا امكننى فى خلال ستة اشهر ان اجمع مائتى كتاب من عيون كتب الادب الغربى فى جميع اللغات ، مترجمة الى اللغة الانجليزية ..

بارك الله فى مصطلحات السياسة وفوارق الاشـــكال والعناوين فى العلاقات الدولية

فما زلت من ذلك الحين اومن بأنها شىء صحيح ملموس الاثر ، وليست حروفا على الورق ، ولا الفاظا تطير مع الهواء ..

فالبلاد المصرية كانت ــ فى الواقع ــ تابعـــــة للدولة البريطانية فى سياستها الخارجية وحكومتها الداخلية .. ولكنها لم تكن كذلك فى مصطلحات السياسة ، ولا فى اشكال العناوين ..

ولهذا استطعت ان اشترى كتابا يباع فى انجلترا بثلاثة جنيهات ولا ابذل فيه اكثر من اربعين قرشا فى مكتبات القاهرة ، لانه صادر من مطبعة المانية حصلت على حقـوق طبع الكتب وبيعها فى كل مكان غير « الاملاك البريطانية »

ولم تكن مصر قط من الاملاك البريطانية بحكم القانون ،

فليس فى العرف الدولى ما يمنع المطبعة الالمانية ان ترسل الى مصر جميع مطبوعاتها لتبيع الكتاب منها بمارك واحد ، أو بشلن واحد على وجه التقريب .. فاستغنينا بهذه الطبعة زمنا عن الكتب الانجليزية فى طبعاتها الغالية ، وهانت مشكلة الكتاب بعد مشكلة الغذاء

ولم تبق الا مشكلة الكساء !..

وقد كانت حقا مشكلة المشاكل لا مراء .!.

لانها تحتاج الى مبلغ متجمع لا يوجد فى اليد ساعة الطلب ، ولا تحلها عندى حيلة التقسيط لانه ـ على ندرته فى ذلك الحين ـ لم يكن مريحا لمن يبيع الكساء ولا لمن يلبس الكساء ..

ومرة واحدة حللت هذه المشكلة بشراء بذلتين قديمتين ، ولكن الجوار الصالح هدانى الى حيلة اصلح من هذه الحيلة لتدبير هذه المشكلة ، وهى درس خصوصى لتاجر أقمشة يتولى تفصيل القماش وتسليمه كسوة كاملة ، ويوفينى الاجر ـ بذلك ـ كسوة كل ثلاثة أشهر .. ولم تزد مدة التعليم كله على كسوتين ، لنشاط التلميذ أو لبراعة الاستاذ !.. أو لرغبة الفريقين معا فى « فسخ » العقد بسلام !

خصلة مشتركة

وأخال ، بعد هذه القصة عن الكفاية ، اننى قد نسيت ان اقول ان قلة المصروفات كانت خصلة مشتركة بينى وبين الصحافة التي عملت فيها ، فقد كنت فى سن الحاجة الى المصروفات قليل الحاجة الى المصروفات ، واصح من ذلك ان أقول ان مطالبى فى حياتى ليست بالقليلة ولكنها ليست كذلك من النوع الذى يتوقف على المال ..

وكفاية المرتب ، على أية حال ، مهمة جدا فى كل عمل نعمله لنعيش من رزقه

هى شىء مهم جدا ولا كلام ..

ولكن هل ترانا نفهم انها هى الشىء المهم الوحيد ، أو ان شيئا آخر لا يهمنا مثلها على تفاوت المرتبات والاجور؟.

من يفهم ذلك ففى تجاربه نقص يتعبه فى عمله ويتعبه فى معيشته .. فالرغبة فى العمل الذى نتوفر عليه مهمة جدا كالمرتب الذى نتقاضاه منه ، ونحن نستريح بستة جنيهات نتناولها من عمل نرغب فيه ولا نستريح باثنى عشر نتناولها من عمل نبغضه ونساق اليـــه ولا نود ان ننجزه محسنين أو غير محسنين !

وقد بدأت عملى فى الصحافة راغبا فيه مقبلا عليه ..

ووجدت من اللحظة الاولى اننى اريد ان افرغ فيـــه جعبة المعرفة التى حصلتها من مطالعاتى الصحفية ، ومن مطالعاتى فى الكتب ، وفى الحياة ..

وبعض هذه المعرفة صبيانيات مضحكة لا تقـــدم ولا تؤخر فى الموضوع ، ولكنها تدل على حكم العادة وتواتر النظر والسماع ..

« عم » العقاد !

كيف اوقع مقالتى الاولى ؟ وكيف يكون توقيعى الملتزم فى جميع المقالات ؟

وقعتها كما توقع المقالات التى كنت اقرأها فى المجلات الاجنبية ، فكان توقيعى باللقب وبالحـرفين الاولين من الاسمين : « ع.م العقاد »

ومثل هذا التوقيع لا ينجو من السنة الزملاء الهازلين

فى بلد « القفش » والقافية .. فسرعان ما ظهر لى مقالان أو ثلاثة حتى دغموا الحرفين فى اسم واحد ، وراحوا يتحدثون عن مقالات « عم العقاد ..! »

وماذا قال عمك ؟.. وماذا تقول يا عم ؟.. واكتب لنا يا عمنا بما تراه .. وقس على ذلك بقية القافية فى مختلف الاوضاع والنداءات ..

ويأبى العناد ان ارجع عن « عم العقاد » ..

أو لعله لم يكن عنادا محضا ولا صبرا على السخرية بغير مبالاة ، فليس من الكسب الرخيص للكاتب الناشىء ان يذكر وان يكون فى توقيعه اغراء بذكره .. واما السخرية فهى شهرة نابية فى جميع الاسماع ، ولكنها تهون اذا اصابت الفطاحل النابهين كما تصيب الناشئين المبتدئين..

وهكذا مضى « عم العقاد » يكتب بهذا التوقيع من العدد الاول الى آخر الاعداد !

أما الموضوع فقد كان « المقالة الادبية » فى المرتبة الاولى ثم تليه المقالة على الاجمال فى مختلف الشئون ..

وكان أدب المقالة فى تلك الاونة يستوعب مطالعاتى الحديثة أو يكاد ..

كنت أدمن القراءة فى كارليل ، وماكولى ، وهازلت ، ولى هنت ، وارنولد ، وغيرهم من ائمة فن المقالة فى القرن التاسع عشر .. وكان بعض هذه المقالات مما ينشر فى الصحف اليومية ، لانها تمتد حتى تبلغ فى المجلة ثلاثين أو اربعين صفحة ، وبعضها مما يصلح للنشر فى الصحافة الاسبوعية كما يصلح للنشر فى الصحافة اليومية ، ومن هذه المقالات كنت اترجم ما يصلح للنشر فى الصحيفة السيارة ، وعلى غرارها كنت اكتب ماأكتب عن ادباء العرب والفرس ومسائل النقد والتعليق ..

فن المقالة !

ولم يخطر لى ان اخترع جديدا فى فن المقالة الادبية ، اذ كانت الصحافة المصرية كلها قد قامت على فن المقالة منذ انشأتها قبل الثورة العرابية وكانت « الجريدة » قد سبقت « الدستور » فى تاريخ الصدور ، وكان من كتابها المتقدمين « محمد السباعى » تلميذ « لى هنت » فى فن المقالة على اسلوب المدرسة الانجليزية ، فكان رائد هـذا الفن فى تحرير الصحف غير مدافع ، وكان له فيه ابداع يعرفه قراء كتابه الذى سماه « بالصـــور » واراد ان يعارض به مقالات الترسيم والتخطيط المعروفة باســـم « الاسكتش » sketch فى أدب الغرب الحديث ، فلم احاول فى كتابة مقالاتى جديدا غير تقريب الموضوعات من الدراسة النقدية ، ولم اطرق غـير القليل من موضـــوعات النقد الاجتماعى أو موضوعات المقالة الوصفية والمقالة العاطفية، لاننى كنت مع اشتغالى بالكتابة مشغولا بنظم الشعر فى موضوعاته ، وهو أولى بالوصف العاطفى من المقالات ..

على اننى احمد الله لان المتقدمين على فى الصحافة لم يغلقوا على جميع الابواب ، فبقى لى فى الصحافة المصرية باب واحد استطيع ان اقول انى كنت أول السابقين اليه..

وذلك هو باب الاحاديث مع الوزراء والساسة .. فلا أعلم ان احداً من الصحفيين المصريين سبقنى الى اجراء حديث عام مع وزير مصرى أو رئيس شرقى يسمع له قول فى السياسة ، واخالهم معذورين بعض العذر فى هـــذا التأخير ، واخالنى محظوظا بعض الحظ فى هذا السبق المقدور ، لان الاحاديث امر مرهون بأوانه لا يدركه أحـد قبل موعده ولا بعده ، ولا هو بالمعقول فى صحافة مصر على عهد الاحتلال قبل حادث دنشواى وقيام الاحزاب ..

من كان يحادث الوزراء المصريين فى شئون السـياسة العامة ، وماذا يقول الوزير للرأى العام اذا اراد المقال ؟ واى برنامج له يعرضه على الناس ؟ وأى رأى كان له بعد رأى المستشـار ورأى قيصر قصر الدوبارة من وراء المستشار ؟

احاديث الوزراء

ان حديثا يجرى مع وزير لا يملك من أعمال وزارته غير التوقيع والسـكوت لهو اللغو بعينه ، فلا حـرج على الصحفيين المصريين اذا تجنبوه .. وقد تجنبوه معذورين حتى خطر لى ان اقتحم هـذا الباب لاول مرة ، فكان اقتحامى اياه فى الحق عنوانا لصفحة جـديدة فى تاريخ الوطنية المصرية ، ولم يكن مجرد سبق فى الصحافة يتكرر كل يوم ..

وجرى الحديث الاول مع سعد زغلول فى وزارة المعارف، وجرى غيره من الاحاديث مع الغـازى احمد مختـار « قوميسير » الدولة العثمانية كما كانوا يسمونه فى زمانه .. وكان على ضآلة نفوذه فى مركزه شخصية من اقوى الشخصيات العسكرية والسياسية التى عاشت فى ذلك الزمان ..

وكنت اعلم أن حديثا يتطرق الى نظام الجيش فى عهد الاحتلال ، ويفوه به اكبر القـادة العثمانيين فى مركزه الرسمى بالديار المصرية ـ لن يخلو من ضربة تقض مضاجع المحتلين ..

ولقد كان ما قدرت ، فان الرجل خبطها خبطة عنيفة ، وقال لى لما سألته عن العدوان على المحمـل المصرى فى جزيرة العرب : ان الذنب ذنب النظـام لا ذنب الامن فى

الجزيرة العربية ، وانه كان يستطيع ان يفتح الجزيرة كلها بفرقة كالفرقة التى تحرس المحمل فى كل عام !

يا خبر !..

ان كلمة دون هذه الكلمة فى المساس بنظام الاحتلال العسكرى قد اوشكت ان تطيح بعرش عباس الثانى ، وقد حركت الدولة البريطانية بحذافيرها لتهديده وارغامه على الاعتذار ..

فكيف تراهم يصبرون على تلك الضربة من قائدعسكرى يمثل الدولة العثمانية ؟..

الا انهم مكروا ولم يجهروا ، وبدأت بينهم وبين القائد الكبير ازمة متوترة متواترة .. نصرهم فيها عليه سماسرة الخذلان فى الاستانة ، فكان الفازى مختار خاتم « القوميسيرين » فى هذه الديار ..

ثورة على الخديو

اذا كنت قد خرجت من صحيفة الدستور بأولية من أوليات الصحافة المصرية ، فهذه هى « أوليتى » التى خرجت بها من اول عملى فى صحيفة يومية : أول صحفى مصرى حصل على حديث من وزير عامل فى الوزارة ، أو من رئيس شرقى كبير يسمع له رأى فى السياسة ..

وقد كدت ان اضيف اليها « أولية » اخرى ذهبت غير محسوس بها ، قبل أن تحبو من مهدها ..

كدت اكون اول كاتب يحاكم على حملة صحفية موجهة الى سياسة الامير فى شئون مصر وفى شئون الاصلاح الازهرى على التخصيص ..

كانت سياسة الوفاق يومئذ فى عنفوانها ، وكان مدار

هذه السياسة على التعاون بين السلطة الفعلية سلطة الاحتلال وبين السلطة الشرعية سلطة الامير .. وقامت السياسة فعلا ـ بعد عزل اللورد كرومر ـ على اطلاق يد الخديو فى مسائل الحكم التى تعنيه ، ومنها مسألة الازهر والاوقاف ومسألة الرتب والنياشين ..

وفى هذه الفترة تنمر الخديو للحركة الوطنية ، وادار ظهره لطلاب الدستور ، وعمل جهده على استئصال نهضة الاصلاح فى الازهر بعد وفاة الاستاذ الامام ، واعلن عداءه لمدرسة القضاء الشرعى وكاد يقضى عليها ..

وثارت الثائرة على الخديو من داخل الازهر وخارجه ، فتكلم مرة عن نهضة الاصلاح الازهرى واقسم انه يغار على الاصلاح غيرة اصدق من دعوى المدعين للغيرة عليه ..

وكتبت يومئذ مقالا مطولا استغرق الصفحة الاولى من صحيفة « الاخبار » التى كان يصدرها الشيخ يوسف الخازن ويحررها الاستاذ توفيق حبيب . قلت فيه ما فحواه ان الملوك لايحتاجون الى القسم لانهم يثبتون نياتهم بالاعمال لا بالاقوال !

براءة المشايخ !

وكان فى وسعى ان اكتب هذا المقال فى صحيفةالدستور لان صاحبها ـ الاستاذ فريد وجدى ـ كان كما اسلفت من ارحب خلق الله صدرا لحرية الراى وحرية المناقشة ولكننى قدرت له حريته هذه فلم اشأ ان أحرجه فى مسألة ترتبط بالازهر والاصلاح الدينى . وقد كانت له فى العالم الاسلامى مكانة تشبه مكانة الاقطاب الدينيين ..

فلما ظهر المقال فى صحيفة الاخبار بتوقيع (ع الاسوانى) قلقت له الحاشية الخديوية ، وظنوا انه من ايحاء بعض

المشايخ الازهريين .. فأكبروا هذا « التمرد » من معقل الخديو الامين فى أيامه ، فاستدعت النيابة صاحب الاخبار وسألته عن اسم صاحب المقال ، فأذنت له ان يطلعهم عليه، ولعلهم اطمأنوا الى هـــذه النتيجة بعد ان علموا ببراءة المشايخ من الشبهة ، فانطوت المسألة ووقفت عند هــذا الحد ، اشفاقا من اثارة القضية الازهرية فى أطوارالتحقيق والمحاكمة والدفاع وتعليقات الصحف واحاديث المتحدثين

ولولا ذلك لسبقت نفسى بثلاث وعشرين سنة ، فكنت أول من حوكم على تلك العيوب الملكية التى يحملها اصحاب العروش ويحاسب عليها أصحاب الاقلام

يومية وغير يومية

كانت الصحف المصرية عند أوائل هذا القرن تنقسم الى يومية وغير يومية ، ولم تكن هناك صحف اسبوعية بالمعنى الذى نفهمه من الصحافة التى تصدر مرة كــل أسبوع .. فان لم تكن الصحيفة يومية ، فالصحف التى يقال عنها انها أسبوعية قد تصدر مرة كل شهر او مرة كل شهرين ، أو تنتظم على الصدور يوما فى كل أسبوع الى أمد محدود ، ثم تنقطع دفعة واحــدة ، أو تعــود الى الانقطاع على دفعات ..

وكانت مواعيد الانقطاع على الجملة أصدق من مواعيد الصدور .. لانه كان يتكرر على التحقيق حيث يتعذر التحقق من موعد للصدور ..

-وربما انتظمت الصحيفة « الاسبوعية » خمسة أسابيع او ستة أسابيع متوالية ، ولكنك تنتظرها عبثا اذا انتظرتها فى يوم معلوم من أيام الاسبوع ، فاذا ظهر هذا العدد منها يوم الاحد فلا مانع أن يظهر العدد التالى يوم الخميس أو

يوم الجمعة ، أو بعد يومين اثنين فقط من ظهور العدد الذى سبقه ، ولامعول فى ميعاد من هذه المواعيد على شىء غير « توافر المادة اللازمة للتحصيل .. »

شىء لزوم الشىء

وماهى المادة اللازمة للتحصيل ؟..

حملة على مشهور أو فضيحة فى أسرة تخاف التشهير ، او تهديد مقدور على حسب المناسبات ومصالح الضحايا المعرضين للتهديد ، أو ضجة سياسية ، أو اجتماعية تشتبك فيها المطامع والدعايات وتتعدد فيها الفرص للمنتهزين من هنا ومن هناك ..

وكان أفضل هذه الصحف « الاسبوعية » الذى يسرع الى الاحتجاب وتمتنع عليه وسائل الثبات والاستمرار وقد ظهر من هذه الصحف الفضلى كثير لم يبق منهابعد حين كثير ولا قليل ، ولم يقل احد من الصحفيين الافاضل أو غير الافاضل ، أنه يصدر صحيفته لمصلحة خاصة أو يصدرها لمحض التشهير والتهديد ، ولكنك تراجع الاسماء فلا ترى بها من خفاء .. وماذا يبقى من الخفايا وراء اسم كاسمهم « الكرباج » او « البعبع » أو «الجاسوس» او « اللجام » او « الصاعقة » او « المرصاد » او « العفريت » او « عفريت القاولين » على التخصيص ؟ ..

هذا الى أسماء أخرى كالخلاعة والصبوة والفندرة والمرستان والفوضى ، وما أشبهها من أسماء يختارها أصحابها وهم فى سعة من الاختيار ، وفى سعة من الادعاء كما يشاءون بما اختاروه من كلمات !..

ولم يمض غير يسير حتى افترقت الكفايات اللازمة لاصدار الصحيفة الاسبوعية على هذا المنوال ..

فقد يكون الرجل من أجهل الجهلاء ، ولكنه من أقدر الناس على التشهير والتهديد واستغلال الفضـــائح والاشاعات

وقد يكون الرجل عاجزا عن كسب مليم من هـــذه الصناعة ولكنه قادر على تسويد الصـــفحات وتلفيق الاقاويل والاباطيل ..

ولابد من الكفايتين لاصدار الصحيفة فى موعدها الملائم .. فان لم توجد الكفايتان فى رجل واحد فقد توجدان فى رجلين ، وقد يهتدى أحدهما الى الاخر بحكم المصـــادفة ان لم يهتد اليه بحكم الضرورة ..

وهكذا كان ..

بين العتبة والفجالة

فقد جدت فى القاهرة ثلاثة مكاتب أو أربعـــة لتحرير المقالات حسب الطلب والاقتراح ، مقرها حانات وقهوات موزعة بين باب الخلق والعتبة الخضراء والفجـالة وحي الحسين ، وهى الاماكن التى كثرت فيها المطابعالصالحة لطبع الصحف الصغيرة ، لانها تكلف القليل من الاجـــور وتتقبل المقلقات ..

ورأينا من هذه « المكاتب » قهوة فى العتبـــة الخضراء يجلس اليها محرر مشهور يكاد يرتجل المقالة فى دقائق معدودات ، وقد يكتب المقالات قبل اقتراحها على وجهين متناقضين ، أحدهما للمدح والتأييد والاخـر للقـــدح والتهديد .. ويجلس بهذه المقالات على ثقة من الطلب فى حينه ، وقد يأتيه الطلب على النقيضين من طالب واحد فى ساعة واحدة ، ولايعجزه فى اللحظة الاخيرة أن يدخـــل التعديل المطلوب فى القياس والتفصيل ، ان كان لابد من تعديل !..

كان المكتب العام من « مكاتب التحرير تحت الطلب . فى قهوة على مفترق شارع محمد على وميدان العتبة الخضراء ، وكان المطعم الذى تعودت أن أتناول فيه الغداء الى جوار تلك القهوة .. فكنت أجلس فيها هنيهة قبل الغداء أو بعده ، وكنت ألقى فيها بعض الصحفيين والادباء ، وأحضر مجالسهم ومحاوراتهم ، وأستمع الى أحاديث غزواتهم وأحابيلهم فى تحصيل أتاواتهم ؛ فرأيت صاحب صحيفة من أشهر الصحف الاسبوعية فى أيامها يجلس الى مائدة « الشيخ المحرر »ويبادره بطلب من « البار » على حسابه ، ويفاتحه قبل حضور الطلب فى موضوع مقالين مستعجلين ، يثنى فى أحدهما على سرى معروف من اصحاب القصور الباذخة على مقربة من حى عابدين ، لانه يثابر على عمل البر واسداء المعونة الى الجماعات الخيرية واصلاح المساجد التى تجاور قصره واطعام الفقراء الذين يترددون على تلك المساجد لوجه الله الكريم ، وينحى فى المقال الثانى على ذلك السرى بعينه لانه مبتذل العرض والكرامة يغرر بالابرياء فيسوقونه الى ساحة القضاء ، ويطالبونه بالتعويض عما أصابهم به من الادواء ..!

ثمن الفخر والثناء

وخرجت من القهوة الى المطعم والمقالان يكتبان ،ولعلهما عرضا فى ساعة واحدة على السرى المصلح المفسد ، النافع الضار ، المحمود المذموم .. ولعله قد بذل الثمن ضعفين : ثمن الفخر والثناء وثمن السلامة من الخزى والبذاء

ومجمل مايقال فى هذه الصحافة انها كانت فى مجموعها على هذه الوتيرة .. بين صحافة صالحة تسرع الى

الاحتجاب ، أو صحافة فاسدة تعيش متقطعة متسكعة ، وينقطع لها الحثالة من نفايات البلد ، وقل أن تعتمد على بضاعة غير بضاعة الجهل والاحتيال ..

ولنا أن نقول فى كلمتين أنها صناعة مرذولة ولا حرج ، وعلينا أن نذكر اننا نتكلم عن الصحافة وأن الصحافة يومئذ كانت ظاهرة اجتماعية تبحث عن مكانها .. ومن أعجل الاحكام أن تدان الظواهر الاجتماعية بحكم واحد فى فترات النشوء والانتقال على نحو خاص ، فلابد من استثناء فى هذه الفترات ، بل لابد من حكم متئد يقابل الحكم العاجل ويلغيه او يكاد ..

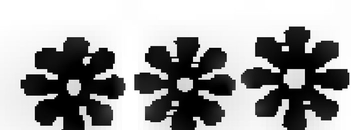
صناعة مرذولة محتقرة ..

هذا هو الرأى المجمل فى صحافة مصر غير اليومية منذ خمسين سنة .. ولكنك لاتستطيع أن تبخل بوصف الاحترام على صناعة الصحافة يومئذ فى مصر اذا التفت من ناحية الصحافة « غير اليومية » الى ناحية الصحافة اليومية ، لما كان فى مصر يومئذ من صناعة تضم بين أبنائها اناسا أحق بالاحترام من على يوسف مدير المؤيد، ومصطفى كامل مدير اللواء ، وأحمد لطفى السيد مدير الجريدة ، كائنا ما كان المقياس الاجتماعى الذى تقاس به الصناعات

طبقة من المجاورين

ولا استثناء فى ذلك لمقياس الدولة والحكومة ، فان الرتب والالقاب التى حصل عليها أقطاب الصحافة المصرية من الدولة لم تكن تقل فى قيمتها الرسمية عن القاب الوزراء ... ومن حصل منهم على « البيكوية » فانما كان يحصل عليها من الصنف الذى ينادى صاحبه بلقب الباشوية ، ولولا أن الاستاذ « أحمد لطفى السيد » كان من المعارضين

للسيادة العثمانية لجاءته الرتبة التى انعمت بها الدولة على صاحبى المؤيد واللواء ..



ومن الملاحظات التى لاتهمل فى هذا الصدد مسائل الزوجية التى تعرض لها كبار الصحفيين فى تلك الاونة ، فانها تدل على احساس عميق داخل أصحاب هذهالصناعة أودع فى نفوسهم الثقة بمكانتهم الاجتماعية فى شئون يتغلب فيها العرف التليد على كل اعتبار جديد ، فلولا « الاحترام الاجتماعى » الذى كان يحسه الزعيم النابه فى الصحافة اليومية لما خطر لمصطفى كامل أن يخطب « الاميرة شويكار » ولا خطر لعلى يوسف أن يتزوج بسليلة بيت السادات ، وهو طموح ابعد من الطموح الى مصاهرة بيت الامارة ، لان اعتداد بيت السادات بشرفه الدينى كان فى ذلك العهد أقوى من اعتداد الامراء بمراتبهم الدنيوية

ولايرجع شيء من هذا الاحترام الاجتماعى الى مزية من مزايا الطبقة أو مزايا الثروة .. فان مصطفى كامل كان من طبقة الموظفين الصغار ، وعلى يوسف كان من طبقة الفلاحين الفقراء « المجاورين » للجامع الازهر ، ولم يكن لهما من الثروة قسط يذكر بعد أن بلغا فى الصحافة قمة النجاح ..



من الكلمات التى قراتها ولم انسها منذ قراتها كلمة الروائى العبقرى « شارلز ديكنز » فى مقدمة قصة المدينتين حيث يقول عن عصر الثورة الفرنسية :

« انه كان احسن الازمان وكان أسوأ الازمان .. كان عهد اليقين والايمان وكان عهد الحيرة والشكوك. كان أوان النور وكان أوان الظلام .. كان ربيع الرجاء وكان زمهرير

القنوط . بين أيدينا كل شيء وليس فى ايدينا اى شيء . وسبيلنا جميعا الى سماء عليين ، وسبيلنا جميعا الى قرار الجحيم .. تلك ايام كأيامنا هـذه التى يوصينا الصاخبون من ثقاتها ان نأخذها على علاتها ، والا نذكرها الا بصيغة المبالغة فيما اشتملت عليه من طيبـات ومن آفات » ..

فقد قرات هذه الكلمة فخطر لي يوم قراتها انها اعبة من العاب المجانسات اللفظية لاتصدق على زمن من الازمان ولا على حالة من الحالات ، فما برحت منذ قراتها أعيدها أو تعيدني الى ذكراها كلما صادفتني مرحلة من مراحل التاريخ الكبرى ، لانها وصف يصدق على كل مرحلة من هذه المراحل ويصدق على كل جديد .. ومنها فترة اليقظه المصرية فى أوائل هذا القرن العشرين

حائر بين الاثنين

وطالما حيرتني وحيرت غيري هذه المناقضة بين الصحافة اليومية المحترمة ، والصحافة « غير اليومية » التى لم يكن لها حظ من الاحترام ..

وليس مما يدفع الحيرة ان نعلم ان « الفترات الخالقة» بطبيعتها متناقضة مشتملة على المحاولة من طرفيهـا ، الى النجاح او الى الاخفاق ..

ولكننى احسب ان الصحافة فى أوائل هذا القرن قد أصبحت « هامة » ولم تصبح « عامة » الا بعد حين ..

وهذا فيما احسب هو علة التناقض بين صحافة يومية محترمة ـ بمقاييس المجتمع ـ وصحافة أخرى غير محترمة بكل مقياس من هذه المقاييس ..

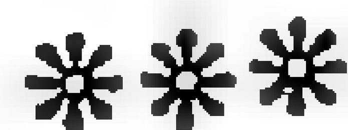
فالصحافة اذا كانت وظيفة هامة ، أثبتتها القوة الاجتماعية التى تعرف لها أهميتها وتحذر من اهمالها ، وهذه القوة الاجتماعية تأتى من قمة المجتمع ومركزالقيادة فيه ..

وأما « الوظيفة العامة » فلا غنى لها عن « رأى عام » يسندها ويراقبها ويتعهدها ويتكفل لها كما تتكفل له بالحماية والرعاية ..

ولم يكن لهذا « الرأى العام » وجود فى أوائل القرن العشرين ، ولم تكن الصحيفة الاسبوعية قد بلغت من القوة أن تؤدى الوظيفة الهامة التى تؤديها الصحيفة اليومية وتهتم بها قيادة اجتماعية تعرف لها عملها وتتقى عواقب الاهمال فيه ..

كانت الصحيفة اليومية توجد لانها لازمة مهمة فى اعتبار طائفة تتولى القيادة الاجتماعية ..

اما الصحيفة الاسبوعية فانما كانت توجد لانها لازمة لصاحبها ومن يعمل فيها ، فان لم يتكفلوا بتدبير امرها فما من أحد غيرهم يتكفل بتدبيره ..



وعلى كلتا الحالتين كانت الصحافة ـ يومية وغيريومية ـ عارضا غريبا على المجتمعات المصرية ، ولم تكن هناك بيئة خاصة يقصدها الصحفيون لانهم صحفيون ، بل لم تكن للصحافة نفسها كلمة متفق عليها .. فربما سمى الكاتب فى الصحيفة بالتحريرجى ، أو الجورنالجى ، أو الغازيتجى ، أو المحرر من صناعة التحرير فى المطابع والدواوين التى تكتب فيها الرسائل .. فأما كلمة « الصحافة » فهى بدعة مستحدثة خلقها اللغويون على وزن

« فعالة » كالنجارة والحدادة والملاحة والتجارة وكل مايأتى على هذا الوزن للدلالة على الصناعات

ولو سئل الصحافى يومئذ : ماعملك ؟ لما وجد كلمةمفردة يجيب بها من يسأله ويفهمها السائل والمسئول ..

صناعة بغير عنوان ، أو عنوان بغير جهة ، ولا فرق فى هذا بين جهة المكان وبين « الجهة المعنوية » اذا استعرنا هذه العبارة من لغة القانون ..

فى ((سبلندد بار)) ..

فقد ترى فى « سبلندد بار » أناسا من الصحفيين ، ولكنهم لايقصدونه لانهم صحفيون مشتغلون بهذه الصناعة .. وانما يقصدونه لانه ملتقى المهاجرين من سوريةولبنان والعراق وغيرها من الاقطار العثمانية ..

وقد ترى أناسا اخرين فى قهوة الشيشة ، أو القهوة الوطنية ، أو قهوة يلدز ، أو قهوة متاتيا ، أو قهوات الحى الحسينى ، وباب الخلق ، والفجالة .. ولكنكلاتراهم هناك لانهم يعملون فى هذه الصحيفة أو تلك ، وانما تراهم حيث كانوا لانهم يدخنون الشيشة أو يشجعون القهوات المصرية فى أول عهدها بمنافسة القهوات الاجنبية ، أولانهم يلعبون الشطرنج والدومينة ، أو لانهم تناقلوا سنة الجلوس فى هذا الحى أو ذاك من أيام الطليعة الاولى بين الادباءرواد الاندية العامة ..

وعلى هذا الاختلاط بين البيئات الصحفية ، أو البيئات القلمية ، تتحقق من امر واحد لا اختلاط فيه ، وهو اتصال تلك البيئة بالحركات العامة فى الشرق كله .. فلم تعرف حركة عامة فى قطر من أقطار الشرق لم تكن لها صلة ببعض الجالسين ..

هنالك ترى الباحث فى فلسفة النشوء والارتقاء أو مذاهب الاشتراكية أو تحرير المرأة ، ومعهم ترى رئيس جماعة « تركيا الفتاة » أو صاحب الصحيفة الايرانية الحرة ، أو مؤلف كتاب طبائع الاستبداد ، أو عصابة الحملة على فتوى الترنسفال . وهناك رأينا ابراهيم ناصف الوردانى بهياجه الدائم ولهفته الدائمة على أطباق الارز واللبن ، ورأينا مصطفى الصغير الداعية الاسلامي الهندى الذى جازت حيلته فى مصر واعتقله الكماليون فى الاستانة فحكموا عليه بالاعدام ونفذوا الحكم على الرغم من احتجاج الدولة البريطانية ..

وهنالك كنا نلقى من نلقاهم من الادباء الذين لا يشتغلون بالصحافة الا اذا كتبوا اليها ، ومنهم كانت صفوة الصحب والزملاء على قلة ترددهم وترددنا على القهوة لغير موعد أو مصادفة ..

وكانت الصناعة كلها عارضا غريبا فى بيئات غريبة ..

صناعة بغير عنوان

صناعة بغير عنوان او عنوان بغير جهة .. ومن هذا التيه بين البيئات تعرف ما يحيط به من القلق أو من « التوزع » والبعثرة بين مختلف الشواغل والهموم ...

الا اننا نبرىء الذمة قبل ختام هذه الفاصلة من المذكرات فنسأل : أكانت الصحافة حقا عارضا غريبا كل الغربة فى المجتمعات المصرية والشرقية ؟ أيمكن أن توجد صناعة فى مجتمع من المجتمعات دون أن تسبقها صناعة متشابهة لها قائمة على أساسها ؟..

اكاد اقول ان وجود هذه الصناعة مستحيل ، فلابد من

صحافة قبل الصحافة على صورة من الصور ، ولابد من صحفيين قبل الصحفيين ..

وللصحفى فى المجتمع المصرى اب او جد من لحمه ودمه ومن طبيعته وصناعته ، فمن يكون هذا الاب أو هــذا الجد الذى ننتمى اليه أجمعين ، نحن معاشر الصحفيين ؟.

هو « اللبيب » على أحسنه واعلاه ، وعلى اســوئه وأدناه ..

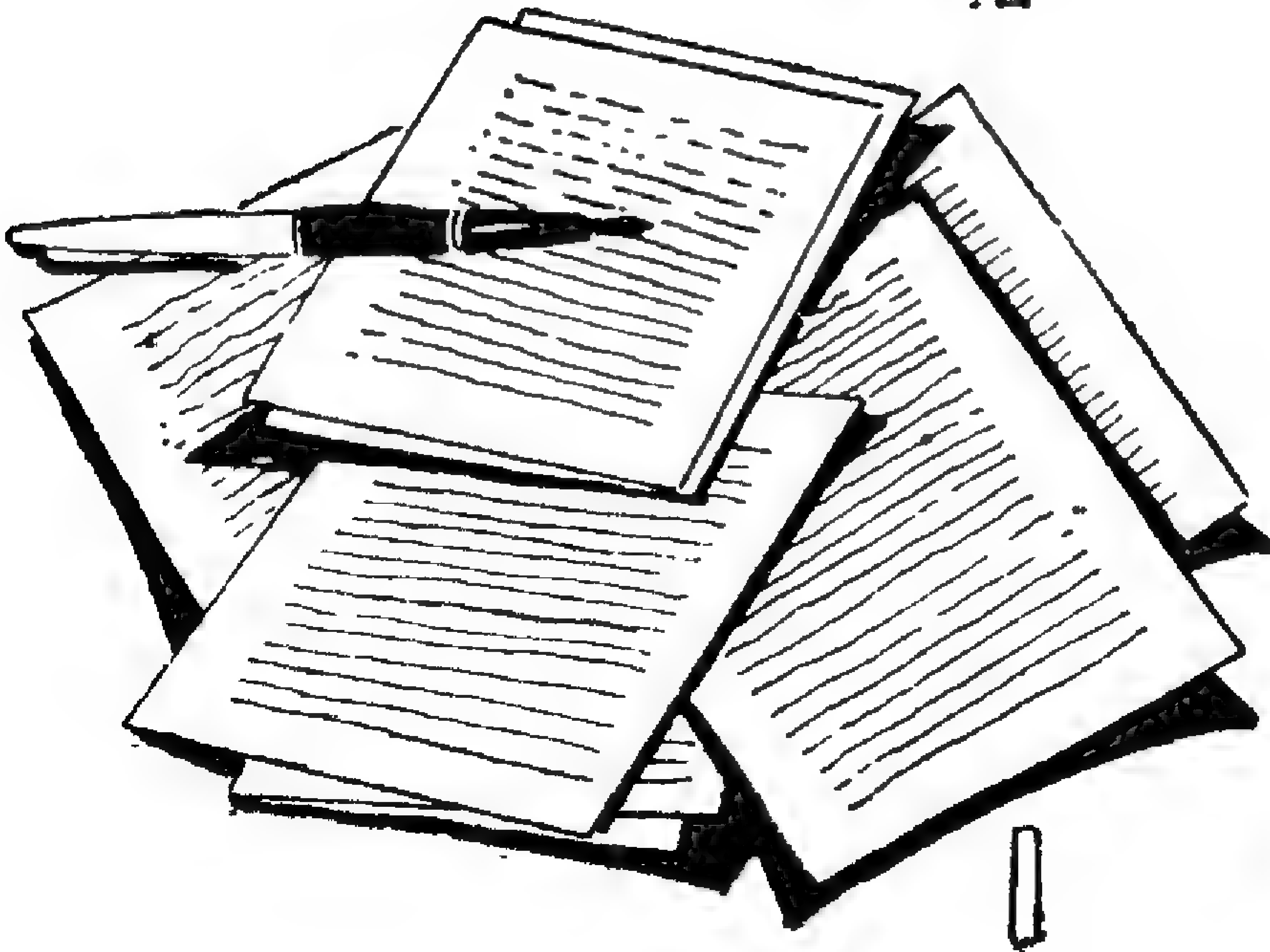
اللبيب الذى يعلو حتى يتبوأ مكان الواعظ المسموع والمستشار المعول عليه والمعلم الذى يصغى اليــه المتعلم المستفيد كما يصغى اليه « الفهيم » المعجب بسحر الكلام وفتنة البلاغة ..

واللبيب الذى يهبط حتى يصدق عليه وصف « الثرثارة » أو « الادباتى » الذى يفهم بالاشارة ولا يتورع عن الحيلة فى طلب الرزق المباح والمحظور ، ولا يبالى مايصيبه فى سبيله من الزراية والابتذال ..

اللبيب هو « جد » الصحفى فى المجتمع المصرى ، على اسوئه وادناه وعلى أحسنه واعلاه

الفصل الرابع

أزمة قلم



أزمة قلم

تعطيل « الدستور »

بقيت فى تحرير صحيفة « الدستور » حتى فرغنا من كتابة الكلمة الاخيرة فى عدده الاخير ..

وقد مضت علينا قبل احتجابه أشهر ونحن نعلم أننا نكتب اعداده الاخيرة ، وان كنا لا نعلم ايها يكون الاخير الذى ليس بعده أخير ..

وابت المروءة على صاحب الصحيفة ان يمطل احدا من اصحاب الديون عليها او اصحاب الاجور فيها بدرهم واحد .. فاتفق مع تاجر من تجار الورق المشهورين على ان يشترى مؤلفاته جملة واحدة سدادا لثمن الورق وما اليه ، واتفق معه فى الوقت نفسه على أن يشترى النسخ من الموظفين والعمال باثمانها المتفق عليها ، واذكر ان ثمن النسخة من معجم « كنز العلوم واللغة » لم يزد فى هذا الاتفاق على ثلاثة عشر قرشا ، وكانت تباع قبل ذلك بمائة قرش ثم بيعت بعد أشهر قليلة بخمسين قرشا ، ثم بسبعين ..

ولقيت الرجل مودعا فقال لى انه يرجو ان نتعاون معا

فى عمل صحفى نحن أقدر عليه واصلح له من الصحافة السياسية ، وانه يدرس الفكرة ويلخصها لى عسى ان أفكر فيها ، ويرجو أن يبلغنى نتيجة درسه لها بعد أسبوعين أو شهر على الاكثر ، اذا صح العزم على الشروع فى تنفيذها ..

مقالاتى مرتين !..

كان الاستاذ فريد وجدى يصدر مجلة شهرية تسمى « الحياة » ويكتب فيها أحيانا مقامات خيالية تسمى بالوجديات ، ثم تفرغ لاصدار الدستور وترك المجله الا فى فترات متباعدة يعاودها كلما اجتمع لها من مادة الفصول الادبية ما يملأ عددا من أعدادها ، وربما اختار بعض هذه الفصول من مقالاتى التى كنت انشرها فى الصحيفة اليومية ..

أما « الوجديات » فقد كان يكتبها على أسلوب المقامات ويديرها على المواعظ الاجتماعية ، وتقريب المثل العليا التى تصطبغ على الدوام بصبغة الدين أو بصبغة الاخلاق المثالية ، وكان لها قراء كثيرون يطلبونها كلما طالت غيبتها وقد تصدر منها طبعتان وثلاث طبعات

قال الاستاذ : « ان الحياة » أولى بمقالاتك من الصحيفة اليومية ، وانك تستطيع أن تجرب قلمك فى المقامات فتظهر « الحياة » وفيها مقاماتك ومقالاتك الى جانب الوجديات ، ولولا اننى أنتظر حتى أعلم أن هذا العمل يعوض تكاليفه ويغنيك عن عمل آخر لشرعنا فيه منذ الساعة ، ولكننا قد نشرع فيه بعد أسابيع ..

.. بلا عمل

ومضت الاسابيع ولم اسمع من الاستاذ خبرا عن هذه

الفكرة ، ولم أصل من دراستها بيني وبين نفسي الى نتيجة تدعو الى الثقة بنجاحها ، فوجب البحث عن عمل لى فى الصحافة أو ما يناسب الصحافة ، ولكن ما العمل الذى يتيسر لى عند طلبه على عجل ، ولابد من العجل ، ولا طاقة بالانتظار ..

أفق الصحافة فى تلك الاونة مظلم يطبق عليه الظلام من قراره ، ولا تلوح منه شعاعة برانية ولا جوانية ، لان البلاء الذى كانت تصاب به الصحافة من داخلها قد كان أشد عليها من البلاء المسلط عليها من أعدائها ..

كان « اللواء » فى حياة مصطفى كامل يعول على موارد يلدز وعابدين ومعونة بعض الغيورين من سراة الترك والمصريين ، وانقطعت موارد يلدز وعابدين من قبل وفاته .. وانقطع الامل فى موارد يلدز بعد زوال عهد عبدالحميد، وفى موارد عابدين بعد اعراض الخديو عباس عن الحزب الوطنى فى عهد سياسة الوفاق واستحكام العداء بين الحاشية الخديوية وخليفة مصطفى كامل « محمد فريد » .. وقد كاد فريد رحمه الله ينهض وحده بأعباء اللواء المالية والسياسية ، لولا ما أصابه من المصادرة بعد المصادرة ومن المحاكمة بعد المحاكمة ، حتى أجمع عزيمته آخر الامر على هجرة الديار ..

وكان « المؤيد » يزدهر فى أبان نشاط صاحبه « على يوسف » .. ثم نكب هذا الرجل العصامى نكبة قاسية عصفت بنشاطه قبل أوانه ، اذ فجعته المنية فى وحيده فى مقتبل صباه ، واضطربت حياته بعد ذلك بمشكلات الاسرة أو مشكلات « مشيخة السادات » التى ساقته قضية الزوجية اليها ، وما زال دبيب الملل يسرى اليه ويزهده فى صحيفته العزيزة عليه حتى تركها بعد حين للمقادير وهو لا يبالى ماسوف تلقاه ، او ماسيلقاه ! ..

وكانت « الجريدة » أسلم الصحف من هـذه الزعازع واشباهها ، ولكنها على هذا لم تسلم من ضربات خصومها السياسيين وفى مقـدمتهم الحـاشيه الخديوية ، وحزب الاصلاح على المبادىء الدستورية .. فان حاشية الخديو إفتتحت عهد الوفاق بين السلطتين الشرعية والفعليـة بمحاربة « حزب الامة » قبل غيره من الاحزاب ، لان أعضاء الاحزاب الاخرى كانـوا يلوذون بالقصر ولا يقـاطعونه ، خلافا لاعضاء حزب الامة الذين كانوا يقفون من القصر موقف الاستقلال أو يتعرضون لغضبه فى كثير من الاحوال فسعى رجال الحاشية سعيهم لتحويل الاعضاء من حزب الامة الى حزب الاصلاح ، ونجح مسعاهم بعـد اختيـار وكيل حزب الاصلاح للوزارة وتتـابع الانعـام بالرتب والالقاب على اعضائه البارزين .. ولم تبق للحزب بقية قادرة على الصمود والمقاومة الا بجهد جهيد ، ولكنه بقاء لم يعصم الجريدة من أزمات المال والخلافات الداخلية ، وعرفت من محرريها يومئذ من تركها لانها اضطرت الى القصد فى وظائف التحرير بعد التوسعة فيها عند نشأتها، حتى كانت تقنع من المحرر بنهر فى اليوم ، ولا تسأله اذا ونى عن كتابة هذا النهر عدة أيام ..

حياة الظلام

وتلك هى الصحف التى أنظر اليها اذا نظرت الى عمل فى الصحافة اليومية ، فأما الصحف الاسبوعية فلم يكن فيها مجال لغير أصحابها أو لغير كتاب المقالات ـ بالقطعة ـ على حسـب الطـلب ، وعلى كلّ لـون ، وفى عـرض الطريق !..

وربما تأتى للصحافة فى مجموعها أن تغالب هذه المحنة،

وأن تتغلب عليها فى النهاية لو لم تطبق عليها طامتها الكبرى من قانون المطبوعات الرهيب : قانون الحجر والرقابة وتقييد الرخص ومحاسبة الكاتب على السطور وما بين السطور ، وعلى الاقوال والنيات !..

وقد انطوى هذا القانون بعد نشره فى أيام الثورة العرابية ، ثم بطل العمل به زمنا طويلا حتى نسينا نحن الصحفيين الناشئين أن فى البلد قانونا للصحافة كان يسمى قانون المطبوعات ، وأن الكاتب يسأل عن شىء قاله فى حدود النقد المباح كائنا ما كان مقام المنقود فى الحكومة أو فى البلاد ..

ومما يؤسف له أن نصيب الصحافة من هذه الطامة التى جرتها على نفسها لم يكن أهون من نصيب الحكومة، وأنها جنت على حريتها ولا ريب بما زودت به «السلطة» من معاذير ، يقبلها كل من يؤمن بحق القانون ..

فلا نذكر أن احدا من أعلام الصحافة كتب فى صحيفته كلمة تتعلل بها الحكومة لتقييد حرية الكتابة أو قال فى خطبة من خطبه كلمة تتعلل بها لتقييد حرية الخطابة والاجتماع ، ولا نستثنى من ذلك « مصطفى كامل » على تطرفه واندفاعه فى الخطب ، وفى المقالات ..

ولكن الصحافة اليومية لم تلبث ان صارت الى الاقلام التى لاتحسن شيئا كما تحسن ان تسقط معاذيرها وان تمهد العذر لمن يتمحلون العلل عليها ، ولا نخال ان حاكما حرا او مستبدا كان يعييه ان يتمحل العلل للحجر على الدعوة الصريحة الى القتل واهدار الدماء ومن امثلتها مانشر فى ديوان « وطنيتى » من أبيات يقول فيها ناظمها :

هـل ســال فى مصر الـدم
أم هـل افـاق النـوم
ومضـوا الى أهل الضـلا
ل فاعـدموا من اعـدموا

فانه لمن سخافة القائل ان يتهم بالاستبداد حكومة تسمح بنشر هذا التحريض . فان لم تكن مستبدة فمن السخف أن يحاسبها على منع هذا التحريض وتحريمه .. فما كانت حكومة حرة او مستبدة لتحاسب على هذا المنع وهذا التحريم

حفرت قبرها بيدها !

وكأنما كانت الصحافة الاسبوعية والصحافة اليومية فى سباق بينها على تدبير المعاذير للسلطة التى تعمل على تقييدها والحجر عليها .. فقد كان جمهرة الصحفيين الاسبوعيين فى ذلك الحين يستبيحون كل محظورة فى التشهير واستغلال الفضائح وافتراء الاكاذيب لاغتصاب الاتاوات التى لا موعد لها ولا حدود لتكرارها باسم « الاشتراكات » او التبرعات الوطنية ، ويشاء لها سوء حظها وحظ الامة ان يكون ممثلو البلاد أكبر أهدافها واول من يصاب بسهامها ، فكان التشهير بأعضاء مجلس الشورى بابا ثابتا من أبواب كل صحيفة اسبوعية تبحث عن الفريسة بين ذوى الاسماء المعروفة ، ولم يكن لاعضاء مجلس الشورى سلطان فى الحكم يحاسبون عليه او يناقشون فيه ، وانما كانوا من اعيان البلاد وكان أكثرهم بعاصمة البلاد على مقربةمن جمهرة الصحفيين الاسبوعيين فكادوا ان ينوبوا عن البلاد جميعا فى مصابها بالصحافة الاسبوعية وتصدى بعضهم للمطالبة بتقييد الاقلام قبل ان يتصدى لها الوزراء والحكام

قال احدهم للامير حسين كامل مستثيرا لنخوته : هل يرضيك ياصاحب السمو ان يقال عنك انك رئيس مجلس الشـورية ؟ ..

وعلى هذا النحو تبتلى البلاد بالنكسة وقلب الحـال، وينادي بالحجر على حرية الصحف من كانوا احق الناس بالغيرة على حريتها لو لم يكن قوامها العدوان على حرية النـاس ..

فى القائمة السوداء !

وطالت محنة الصحافة هذه بمن يجنون عليها من ابنائها العاملين فيها ومن اعدائها الساخطين عليها ..

وطالت حيرتى بين العمل فيها والعمل فى غيرها ، وأين يكون العمل فى غيرها ؟

انه التـدريس ولا شيء غـيره .. فان لم يتيسر فى المدارس الاهلية فقد يتيسر باعطاءالدروس الخصوصية، واما وظيفة الحكومة فهيهات الآن « هيهاتين » لاهيهات واحدة .. لاننى كنت قبل اشتغالى بالصحافة اتنحى عن وظيفة الحكومة لنفورى منها .. فالآن أطلبها – ان طلبتها – ولا اظفر برضاها ، بعـد ان ثبت اسـمى فى سجلات الحكومة بين أسماء القائمة السوداء وبعد أن صار الغضب على الصحافة والصحفيين غنيا عن الاسباب ..

ولا بد من عمل عاجـل على اية حال ، لان تكـاليف المعيشة على الشاب الذى لا يكسب رزقه من وظيفـة ، ولا من مورد يملكه ، ضرورة ملحة لا تحتمل الارجاء من يوم الى يوم .. ولا نقول من اسبوع الى أسبوع

وكرهت نفسى ان الجأ الى احد من الميسورين مـن اهلى ، وهم غير قليلين بحمد الله ..

كرهت نفسى ان الجأ اليهم ، لاننى تحديتهم جميعا وخيبت رجاءهم قاطبة بالخروج من الخدمة الاميرية بعد ان وصلت اليها بين مزدحم الطلاب المتهافتين عليها، وشق على ان أرفض نصيحتهم ثم أسعى اليهم لالتمس معونتهم ، وخيل الى انهم قائلون بلسان الحال ان لم يقولوا بلسان المقال : انك اعرضت عنا وذهبت الى الصحافة .. فأمامك اليوم صحافتك العزيزة ، فخذ منها ماتعطيك ..!

والى أن يوجد العمل ، ما العمل ؟ ..

تبين لى بعد قليل ان المصرف الاكبر بالامس صالح ان يكون اليوم موردى الاكبر ، ان لم يكن موردى الوحيد ..

هذه الكتب الكثيرة لم لاتباع الى ان تتجدد القدرةعلى شرائها ، ان تجددت الحاجة اليها ؟..

انها الآن تعد بالمئات بعد الاقبال على شرائها نحو ثلاث سنوات .. وليس من المنظور ان تباع بثمن الشراء مع الحاجة الملحة الى البيع السريع ، ولكنها تباع بما يكفى لقوت اليوم واليومين والاسبوع .. وقد تكفى خمسة قروش لقوت اليوم فى تلك الفترة ، ولا علينا من اجرةالبيت وأمثالها من النفقة المتجمعة التى تقبل التأجيل زمنا طويلا او غير طويل ..

ولقد كان موردا نافعا قد يمتد فيسعفنا ـ معالدروس الخصوصية ـ بضعة شهور ..

لولا حواء ، وبنات حواء ، جزاهن الله بما هن أهل له من جزاء ..

من سكن الريف عرف خير ما فى بنات حواء من مروءة

وصفات ، ولم يخف عليه شر مافيهن من كيد والتواء ..

هن الامهات المتطوعات للشاب الناشىءالمنفرد بمعيشته في عقر داره ..

من ترى يهيىء له طعامه ؟ من ترى يهتم بتنظيف ثيابه وترتيب اثاثه ؟ ولم لا يتزوج ؟ ومن تراها تنفعه وتلائمه من بنات الجيران ؟..

وقد كنت اسكن في حدائق القبة في ضاحية كالقرية الريفية في كل شيء ، ومنه ـ بل اهمه ـ الامهات المتطوعات والخطيبات « المزعومات » ..

وكانت لي خطيبة منهن لم اخطبها ، ولم اتحدث اليها ولا الى احد من أهلها في حديث زواج .. وكانت لها صاحبة لعوب في مثل سنها متزوجة من بعض ذوى قرباها ، فقالت لي ذات يوم : ان فلانة لاتأتى الى ناحيتك في هذه الايام لان صويحباتها يعاكسنها ويسمينها خطيبة « ابو طويلة » .. ولا تغضب هي من هذه التسمية ، بل تقول لهن مزهوة مستخفة : وماله ابوطويلة أليس خيرا من المساخيط ؟..

ولم اشأ ان اجيب الفتاة اللعوب جوابا يكسر خاطر الخطيبة التى لم اخطبها ، ولم اشأ كذلك ان اجيبها جوابا يربط الخطبة المزعومة ويؤكدها ! .. ولم أزد على ان قلت : شكرا للفتيات العابثات ، فقد احسن والله الاختيار والانتقاء .. ولو كان في نيتي ان اتزوج او اخطب لما وجدت في الحى زوجة اجمل من صديقتك الحسناء ...

قالت : كأنك في غير هذا الحى تجد من تخطبه ؟..

قلت : ولا في غير هذا الحى .. ولكنني الآن في شاغل

عن الزواج . افلا ينبغى ان اعول نفسى قبل ان افكـر فى زوجة أعولها ؟..

وكأنها خطبة قد انعقدت بهذه الحوار ، وكأنه حـق مكتسب للسؤال عن الحركات والسكنات ، وعن المبيت فى المسكن وغيابى عنه بعض ليال ..

ولم أفارق المنـزل بحملى من الـكتب على دفعتين او ثلاث حتى اعتقدت الخطيبة اننى أنوى الرحيل ، وأهم بفسخ الخطبة التى لم تنعقد قط بكلمة تصريح او تلميح .. وعزز اعتقادها عندها اننى كنت احمل كتابى لمطالعه الى حقل من حقول الليمون بجوار جدول فى طـريق كنيسة ، فقيل لها انه يهيم بفتاة قبطيـة هنـاك ، وانه يؤجل مسألة الزواج بها لانها مشكلة ، لا تنحل الا اذا انحلت بينهما مشكلة الاختلاف فى الدين ..

وأين انتم يا أصحاب المنزل الغافلين عن سكانه وعن زواره وجيرانه ؟ ان ساكنكم الاعزب ليستعد للهـرب بالاجرة المتاخرة عليه .. فان لم تصدقوا فتربصوا له فى الطريق وانظروا اليه وهو يحمل كتبه دفعة بعد دفعـة ليترك لكم حجرتكم خواء خلاء ، لا يعوضكم عن اجرتكم الضائعة ان حجزتم عليه !..

وصدق أصحاب المنزل الغافلون ، او المزعوم عنهـم بالباطل انهم غافلون ..

وحيل بينى وبين أول « رصة » من الكتب خرجت بها بعد هذه الوشاية ، وكادت ان تكون مشاجرة ريفية مـن طراز الشجار بالنبوت على الحقوق الضائعة ، ولكن الله سلم والهمنى ان اسلم الكتب وامضى بسلام ..

وفى يومهـا اقترضت اجـرة السـفر للعـودة الى اسـوان ..

وفى اليوم التالى لوصولى الى اسوان ، ارسلت منها حوالة بريدية الى صديق لى من ابناء الاقليم يدير محلا مشهورا لبيع الطرابيش وتركيبها ..

وانتهى كيد حواء ليلحق به كيد المقادير التى لا تقع فى حسبان ..

فقد كان صاحبنا الطرابيشى ممن اشتركوا فى ترويج الطربوش الابيض احتجاجا على دولة النمسا التى كانت تصدر الينا الطرابيش الحمراء ، لانها أعلنت ضم بلاد البشناق اليها من أملاك الدولة العثمانية ، فقاطعها المصريون واستغنوا برهة عن الطرابيش الحمراء بالطرابيش البيضاء ..

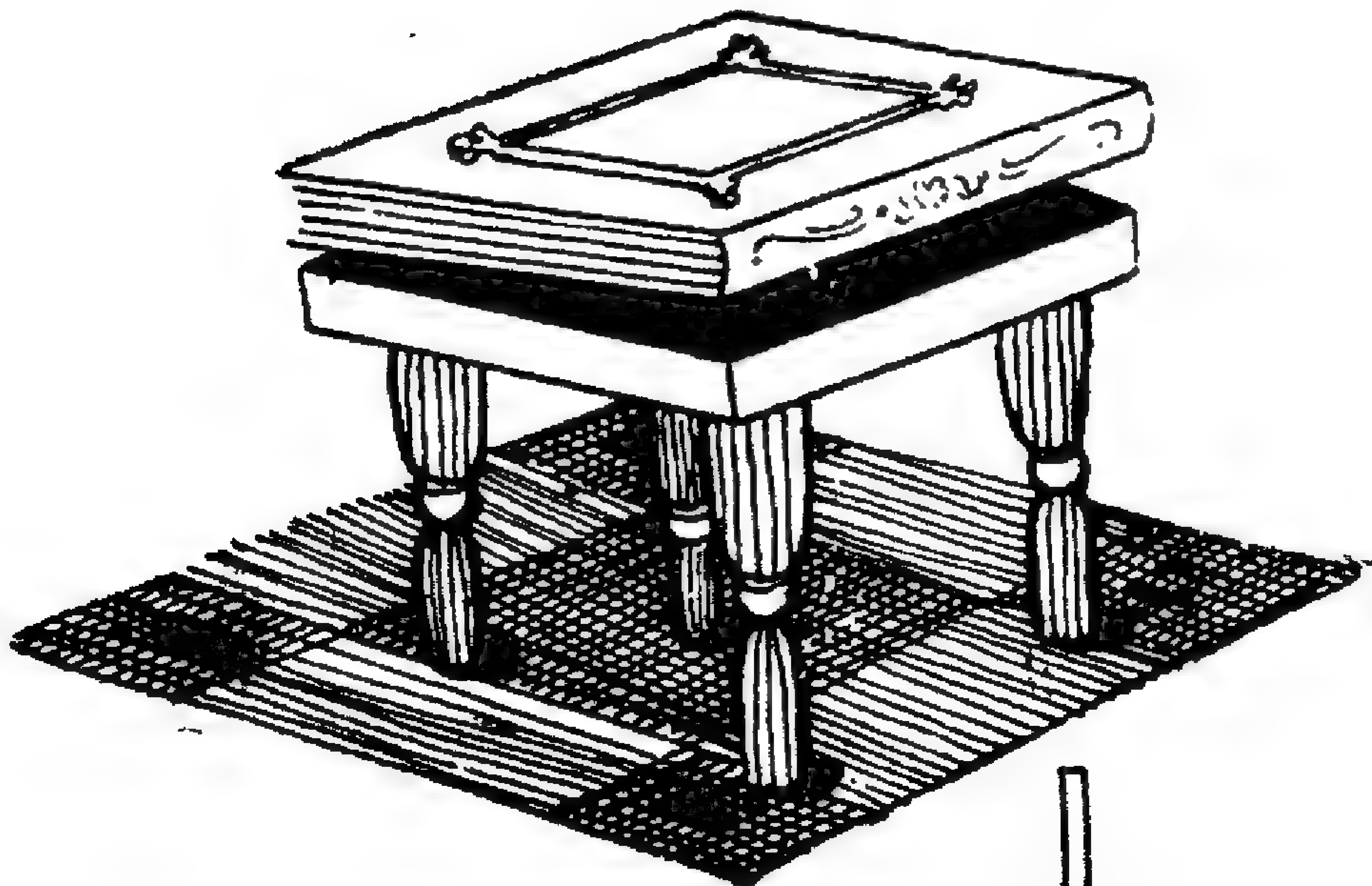
واضطغنها وكلاء المعامل النمسويه فى القاهرة ، فنصبوا فخاخهم وحبائلهم لجماعة التجارالذين اشتركوا فى حركة المقاطعة ، ومنهم صديقنا الطرابيشى من اقليم اسوان ..

فلما وصلت الحوالة البريدية الى القاهرة ضاعت فى تيه الحراسة والحجز والتصفية واجراءات «السنديك» وأمناء الحسابات ..

ومضت سنوات وانا لا اعلم مصير كتبى فى معتقلها المهجور ، الى ان لقيت الاستاذ عبد العزيز الصدر عرضا فأنبأنى ان جيرانه فى حدائق القبة عرضوا عليه تلك الكتب فاشتراها ، وانه على استعداد لردها الى بثمنها اذا ارادتها . فشكرته وقلت له اننى لااحتاج اليها ، ولكننى قد استردها بثمنها اذا اتسع لها مكان عندى . ولم يتسع لها ـ بعد ـ مكان ..

الفصل الخامس

بين الأمل واليأس



بين الأمل واليأس

وصلت الى أسوان كالساهر الذى طوى الليالى وصالا بغير راحة ، ثم ركن بجنبه لحظة واحدة الى طرف الفراش

انه فى سهرته يواصـــل الحركة ولا يبالى متى يرقد ليستريح ، ولكنه يرقد لحظة واحدة فلا يدرى متى هو قادر على النهوض

كنت أجور على جسدى ولا أعرف لهذا الجور حدودا يرجع عنها ، لان تلك الحدود لم تصدمنى قط بصـخرة من صخورها ولا بحاجز من حواجزها ..

وكنت أحضر ندوة الزملاء عند ميدان المديرية بالزقازيق، ثم أعبر المدينة فى ليالى الشتاء الى مسكنى على حافة كفر الصـــيادين .. فلا أكترث للمطر ولا للبرد ، ولا ألبس المعطف ولا أحمله تخففا من مؤنة حمله على الذراع ، وهو معلق فى حجرة الدار يعلوه الغبار ..

وكنت أقضى اليوم فى حدائق القبة على وجبة واحدة من الخبز والجبن أو من الخبز والفول ، ولا يخطر لى أن اهمال الغذاء ضرر أذكره لحظة بعد ذهاب الجوع

وكنت أفتح الكتاب الجديد فيروقنى ماقرأته فيه فلا ألقيه من يدى حتى أفرغ منه آخر الليل ، ولا ضياء فى البيت غير شمعة أو مصباح ذى فتيل ..

وكنت احسب ان سفرتى الى اسوان ضرورة الجأتنى اليها قلة « المصروف » فى القاهرة ، فلما وصلت الى اسوان علمت انهـــا ضرورة مافى ذلك جدال .. ولكنها ضرورة الافلاس فى ذخيرة البنية واعصـــابها وليست بضرورة الافلاس فى ذخيرة الجيب ..!

وقد وقع فى خلدى اننى ازداد نشاطا فى بلدتى لانهـــا مصحة للجســـم ومصحة للنفس بين الاقرباء والاعزاء ، فعجبت بعد ايام حين رايتنى افقد النشاط لايسر الاعمال، وكنت احسبه تيارا متجددا لايقبل النفاذ ..

تجمعت المتاعب دفعة واحدة وبدا لى كأننى مريض بكل داء ، معروف وغير معروف .. ولا مرض هنالك غير الركود والاعياء باجماع الاطباء ، ومنهم الفطاحل العالميون الذين يفدون الى المدينة مشتغلين أو يفدون اليهـــا فى حواشى الامراء ..

وتملكتنى فكرة الموت العاجل ، فادهشنى اننى لم اجد فى قرارة وجدانى فزعا من هـــذه الفكرة ، وكدت اقول لنفسى اننى اطلبها ولا انفر منها ..!

واخال ان صدمة اليأس كانت اشـــد على عزيمتى من صدمة المرض ، او على الاصح ، من صدمة الاعياء ..

واشد ما اصابنى من هذا اليأس انه كان يأسا من جميع الآمال ، ولم يكن يأسا من امل واحد ..

خلاصة الامل !

كان يأسا من معنى الحياة ، ومن كل غاية فى الحياة ، لاننى قبل ذلك بشـــــــهر عكفت على القراءة فى كتب « الفلسفة المادية » واكثرت من النظر فى مذهب النشوء والارتقاء ، فلاح لى انه اصدق من اقوال خصومه المتعصبين

الذين تصدوا للرد عليه بين الاوربيين باسم الدين ، ولاح لى من النظرة الاولى على غير روية فيه انه يهبط بالانسان الى حضيض الحيوان ، ولا يبقى بينه وبين السماء معراجا واحدا يرتفع عليه ..

وكذلك كتبت فى مقدمة كتابى « خلاصة اليومية » .. ان « الانسان حيوان راق ولكنه حيوان » ..

وقصة « الخلاصة » هذه هى قصة الامل الذى بقى عندى يومئذ فى شهرة الادب ، وفى عدد الايام التى اقضيها قبل ظهور هذا الكتاب ، وكنت اظننى مبالغا اذا حسبتها باكثر من الايام !

هو الموت اذن كما استقر فى خلدى بلا أثر ولا خبر .. وهو الموت اذن أمضى اليه صفر اليدين من مجد الادب ، ومن مجد الدنيا ، ومن كل مجد يبقى بعد ذويه ..

وهل هذا يليق ؟ ياضيعة لرجاء المجد المتطلع الى عشاقه وعباده ؟ .. فهل اقل من هدية فى اليد تجبر خاطر العرف على ابواب الابدية ؟ وهل يقال انه يجلس على الابواب فى انتظار زيارة فارغة اليدين ؟

ويجوز اننى كنت أطيق فى تلك الغاشية أن أوفى القربان المطلوب بتصنيف كتاب من وحى الساعة والمناسبة ، ولكننى عدلت عنه لضيق الوقت والشك فى اتساع الاجل ويجوز أننى قنعت بما تيسر ووجدت ان الخطب اهون من أن أتكلف له عملا أحاوله واستنفد به الفضلة الباقية من مطالب العمر المحدود .. فاذا كان ماتيسر كافيا فذاك، وان كان للمجد ضريبة اغلى مما تيسر فله ان يتقاضاها حيث يلقاها .. فلا خير فى جود بغير الموجود ..

وما تيسر يومئذ هو « خلاصة اليومية »

يوميات الياس !

و « اليومية » هذه هي دفتر صغير كنت اقيد فيه الخواطر والتعليقات ، وابادر الى ايداعه ابيات الشعر التى نظمتها ولم أتممها قبل أن انساها ، أو رؤوس الموضوعات التى نظرت فيها ولم أفرغ من دراستها ، أو ملاحظات الطريق ونوادر الاحاديث العابرة التى أعاودها فى مناسباتها . وقد اجتمع عندى من هذه اليوميات دفاتر ثلاث سنوات .. فلما وقع فى وهمى أننى سأذهب ـ بغير اثر ولا خبر ـ تصفحت هذه الدفاتر، ونقلت منها صفحات متفرقة تشتمل على جميع نماذجها ، وبعثت بها الى صديق فى القاهرة أقول له ان هذه الصفحات هى كل ما اتركه اذا تركت الحياة ، فان وجدنى أهلا للذكر ووجدها اهلا للنشر فتلك كرامة الصديق الراحل على الصديق الباقى ، والا فلا حرج عليه أن يهمل نشرها ويسلمها للنسيان يطويها حيث طواها فى زاوية من زواياه ..

ولبثت هذه « الخلاصة » المخطوطة سلاحا من اسلحة الفكاهة والنكاية يشحذه اخواننا الذين عرفوا القصة ولم يتورعوا عن استغلالها .. فمنهم من يقول متململا : متى تظهر خلاصة اليومية ؟ لقد طال الامد على انتظارها .. ومنهم من يقول مستمهلا كلما شكوت أو التمست العلاج : على رسلك بالله .. ! ان المطابع مشغولة فى هذه الايام .. فاصبر هنيهة حتى تفرغ لطبع خلاصتك وأمثالها ..!

وما برحوا يستعجلوننى ويستمهلوننى حتى أرحتهم وارحت نفسى بطبع خلاصة اليومية ، بعد أن أضفت اليها وحذفت منها ، وكان من التوفيقات التى لم اترقبها انها نفدت فى اقل من ستة شهور ، فلم يبق من الفى نسخة

طبعتها منها غير مائة أو نيف ومائة ، وهو نجـاح غريب لكتاب ولدته فكرة يائسـة من الحياة ..

الاكاذيب المتفق عليها !

ولقد عاش معى وهم الموت حقبة فى أسوان ، وعاش معى حقبة اخرى فى القاهرة .. بعد ان رجعت اليها فى وقدة الصـــيف ، ولكننى التفت فلم أجده معى فى شـــاطىء الاسكندرية يوم ذهبت اليها لاول مرة ، بل وجدتنى مع عرائس البحر وعرائس الشـــعر فى لجة من لجج الامل والمغامرة ، وبرحت اسكندرية بعد شهرين لابحث عن عمل بالقاهرة .. أين؟ أفى الصحافة ؟ كلا .. فما زالت الصحافة فى مثل محنتها التى عهدتها يوم انتهيت من عملى فيها .. أفى التدريس ؟.. كلا ايضـــا .. فان المدارس قد بدأت عملها ، ولا معرفة لى بأحد من أصحابها ..

ولم يطل بحثى هذه المرة ، فاننى وجدت « المأوى » الذى لابد منه فى عمل بين الصــحافة والوظيفة ، او بين خدمة الميرى والخدمة الحرة ، فعملت فى قلم السكرتارية بديوان الاوقاف ..

كان الاستاذ « عبد الرحمن البرقوقى » رحمه الله قد أصدر مجلته البيان وكتبت فيها بعض الفصول ، ومنها تلخيص لكتاب « ماكس نوردو » المشـــهور عن أكاذيب المدنية الحاضرة ..

وكان من دأب الشيخ البرقوقى أن يسأل شيوخ الادب رأيهم فى مقالات المجلة وابوابها .. فسأل حافظ عوض ، وسأل مصطفى صادق الرافعى ، وسأل محمد المويلحى صاحب عيسى بن هشام . فانتقد حافظ عوض عنوان الكتاب كما ترجمته المجلة ، وزاد انتقاده فى ثقة الشـــيخ

بكاتب هذه السطور ، لانني ترجمت عنوان الكتـــــاب « بالاكاذيب المتفق عليها » واقترح الشيخ البرقوقي أن « نسجعه » ليوافق اسماء الكتب فجعلناه الاكاذيب المقررة في المدنية الحاضرة .. فلما جاءه النقد من بعيد ـ وهو على عادته سريع التصديق ـ قال لى انه لن يرفض رايى مطاوعة لراى السجعة بعد الان ..

وسال مصطفى صادق الرافعى فزاده انتقاده ثقة بى كذلك ، لانه قال لى أنه يسمع حكمه فى البيان العربى ويرفضه فيما عداه ولا سيما كتابه الفكر ومباحث العصر الحديث ، وقد انحى الرافعي على « نوردو » وعلى كاتب هذه السطور ، فحسنت هذه الشهادة المعكوسة عنـــد الشيخ ..

ولقى صاحبنا المويلحى فساله عنى قائلا :

ـ بماذا يشتغل هذا الشاب ؟

قال الشيخ : بلا شىء !

قال : أتراه يعيش على شىء من ميراث جده العقاد ؟

فافهمه الشيخ اننى لا انتمى الى « الســــيد حسن موسى العقاد » المشهور ، وانه لاقرابة بيني وبين ذلك البيت واننى أعيش بالقليل مما يردنى من أهلى ، وبالقليل من أجور المقالات أو فصول الكتب المترجمة .. فقال المويلحى مبتسما : انه اولى بالوظيفة من اكثر «التنابلة» الذين عندنا فى هذا الديوان فطلبتها ، فأجيب طلبى لساعتـــه بغير امتحان ..

وقد كان ديوان الاوقاف فى تلك الحقبة مجمع الادباء والشعراء من شيوخ وشبان .. كان فيه محمد المويلحى، واحمد الازهرى صاحب مجلة الازهر ، واحمد الكاشف، وعبد الحليم المصرى ، وعبد العزيز البشرى ، وحسين

الجمل : وحسن الدرس ، وعلى شوقى ، ومحمود عماد ، ومصطفى الماحى ، وغيرهم من «المحررين» المغمورين .. وكان عملى الاول فيه مساعدا لكاتب المجلس الاعلى بقلم السكرتارية ، وهى وظيفة من اخطر وظائف الديوان فى ذلك الحين

سمسرة الخديو

وكأنما هى قسمة واحدة تلقانى على صور متعددة فى جهات مختلفة .. فكلما اشتغلت بعمل من الاعمال وجدته فى ابان أزمة من ازماته أو مرحلة من مراحل الاضطراب فى تاريخه ، وأول هذه الاعمال عملى فى وظائف الحكومة باقليمى قنا والشرقية ..

ففى هذين الاقليمين بدات أول حركة من حركات الشكاية الاجماعية بين الموظفين بعد الاحتلال ، ولم تزل قائمة حتى انتهت بزيادة الحد الادنى لمرتبات الوظائف الى خمسة جنيهات والشروع فى تعديل نظام العلاوات وقانون المعاشات

واشتغلت بالتحرير الصحفى يوم كانت الصحافة المصرية فى احرج أوقاتها بعد قيام الاحزاب وقبل اعادة قانون المطبوعات ..

ثم هأنذا اشتغل بديوان الاوقاف ، وهو ميدان المعركة الحامية بين السلطة الشرعية والسلطة الفعلية وطلاب الاصلاح .. ولست بآسف على هذه القسمة التى تسوقنى الى الاعمال فى أبان ازماتها ومراحل اضطرابها فقد كانت أنفع لتربيتى النفسية من فترات الهدوء والاستقرار .. وكان عملى فى ديوان الاوقاف بين سنتى ١٩١٢ و ١٩١٤ أكثر من عملى فى وظيفة من وظائف

الارتزاق ، فقد كنت اجهل الكثير من حقائق بلدى ومن اسرار شئونه العامة لو لم اقض تينك السنتين فى ذلك الديوان ..

كانت يد الخديو مطلقة فى وظائفه وامواله ..وكان مع الاسف الشديد يحتكرها لاشباع نهمه من المال والدسيسة؛ ولا يأبى ان يسف الى الاختلاس من اموال الصدقات واستباحة السمسرة على صفقات الاستبدال .. وشاعت فى تلك الايام قصة ارض المطاعنة التى اخذ فيها الخديو لنفسه ستين ألف جنيه باسم « العمولة أو الوساطة » وعاد بعدها فتعقب كل من عارضوه ووقفوا له فى طريقه من الموظفين النزهاء ، فعاقبهم على الامانة واليقظة بالفصل والاهمال ..

وكان المحتلون يحاربون الخديو على تقليد النزاع بين السلطتين ، ويأبون عليه ان يستأثر بهذه الحكومة الصغيرة فى داخل الحكومة الكبيرة ، ويعلمون انهم لايستطيعون المساس بالمعاهد الدينية فيرجعون سرا الى الآستانة لجس النبض فى دار الخلافة والتماس الفتوى من شيخ الاسلام بجواز الرقابة الرسمية على نظار الاوقاف ، وعلى ناظرهم الكبير وهو امير البلاد ..

وكان طلاب الاصلاح يهتمون بأمر واحد ، وهو القضاء على المفاسد فى ديوان يرتبط به نظام المعاهد الدينية اشد الارتباط .. فلا أمل فى اصلاح هذه المعاهد ، ولا فى اصلاح القضاء الشرعى معها ، ولافى أصلاح الازهربفروعه مالم تكن ادارة الاوقاف خاضعة للرقابة العلنية خارجةمن تلك العزلة التى جعلتها أشبه شىء بضيعة من ضياع الخاصة الخديوية ، مع الفارق بين ضيعة يغار عليها مالكها وضيعة يبددها من يملك الامر فيها ..

وبين هذا المضطرب عملت فى الديوان •• والقلم الذى عملت فيه هو حومة المعركة فى ميدانها ، لانه القلم الذى تمر به مذكرات مجلس الادارة ومذكرات المجلس الاعلى، وهذه هى المذكرات التى تعرض فيها مسائل الموظفين وقضايا الصفقات ••

والسنة التى عملت فيها بالديوان هى السنة التى انتهت بتحويله من ديوان الى نظارة ، وصدور الامربعرض ميزانيته على مجلس النظارة والجمعية التشريعية ••

ولقد كانت فضائح الاوقاف سرا مباحا لكل من يميل اليه بأذنيه •• فليس فيها من باب أولى سر يخفى على موظف فى قلم السكرتاريه يتصل كل يوم بموظفى الديوان ممن يشتغلون بمسائل المذكرات التى تعرض على مجلس الادارة او المجلس الاعلى ••

وقد هالنى ما علمت من فضائح الديوان بعد فترة وجيزة ، وان كنت لا أجهل قبل ذلك انها شىء يهول ••

وكنت اتكلم ولا اتحفظ ••

وربما كتبت الى الصحف بعض المقترحات لاصلاح الديوان بغير توقيع ، وربما تحدثت بها فى المجالس التى اختلف أليها ، وكلها فى بيئات الادباء المدرسين بمدارس العباسية الاهلية حيث كنت اقيم ••

وكان الاستاذ حسين روحى الايرانى صاحب احدى المدارس الكبيرة فى العباسية البحرية ، وكان يعمل فى ساعات من اليوم بالترجمة فى دار الوكالة البريطانية ، فجاءنى عصارى ذات يوم يقول معتذرا :

ـ ارجو ان تغتفر لى غلطة وقعت فيها بغير اذنك ! ..

قلت : خيرا .. فما أظن اننى عرضة منك لغلطة تضير ..

قال : انهم سألونى اليوم عن مقترحاتك فى الصحف وانا اترجمها لهم فقلت اننى اعرف كاتبها ، وذكرت لهم اننى اراك فى كثير من الايام .. فهل يغضبك ما فعلت ؟

قلت : اننى كما تعلم كنت مستعدا ان اكتب فى الصحف بتوقيعى لو كنت أستطيع ذلك مرتين دون أن يبادرونى بالفصل من الوظيفة ، فلا لوم عليك ولا حرج على ..

قال : ليس هذا كل ما فى المسألة .. فان السكرتير الشرقى يريد ان يلقاك .. فهل لديك مانع ؟

قلت : لامانع لديه فما المانع لدى ..

قالوا : لا يزال صغيرا

وبعد يومين لقيت مستر ستورز مع الاستاذ حسين روحى ، فاستهل الحديث بالكلام على الادب وعلى برنارد شو .. ثم استطرد الى الكلام على الصحافة ، واكثر من الكلام على صحيفة « المؤيد » وقرائها ومحرريها ، ثم مضى مستطردا الى الكلام على الاوقاف فسألنى عن صفقة منوية على ارض يملكها عين مشهور من اعيان القليوبية ، وعجبت لعلمه بخبرها وهى لاتزال فى دور التحضير الاول ولما تصل مذكرة من مذكراتها الى قلم السكرتارية ..

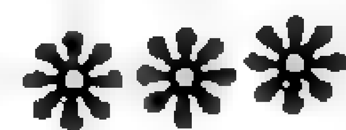
ثم بدرت منه كلمة جافيـــة لا ادرى كيف جرى بها لسانه ، الا ان يكون قد تعود الجهر بأمثالها ولم يتعود من أحد أن ينكرها عليـــه ، فقال : الا ترى ان حرمان

الاوقاف من الرقابة الاجنبية هى علة هذه المفاسد التى شـــاعت فيها .. ؟!

فصدمتنى هذه الكلمة النابية ، ولم البث ان اجبتها بحدة ظاهرة ، فقلت : ان المجلس البلدى الاســكندرى يتمتع برقابة اجنبيـــة من كل جنس وملة ، ولا اظنكم تحسبونه مثلا من امثلة النزاهة والنظام ..

فتنبه وسكت ، ثم استأنف الحديث ليختمه بعبارة صالحة للختام ، واستأذن هنيهة ثم عاد قائلا : ان اللورد ـ يعنى كتشنر ـ كان يسره ان يراك لولا انه يخرج الساعة الى موعد سريع ..

فنهضت وودعت ، وصادفنى اللورد على باب المكتب فأومأ بالتحية ومضى فى طريقه ، وجاءنى الاستاذ حسين روحى فى المساء يقول ويضحك : ماذا صنعت يا أخانا .. ان الرجل اجفل من جوابك الصارم ولكنه قال: ان حديثك كان شائقا جدا ..

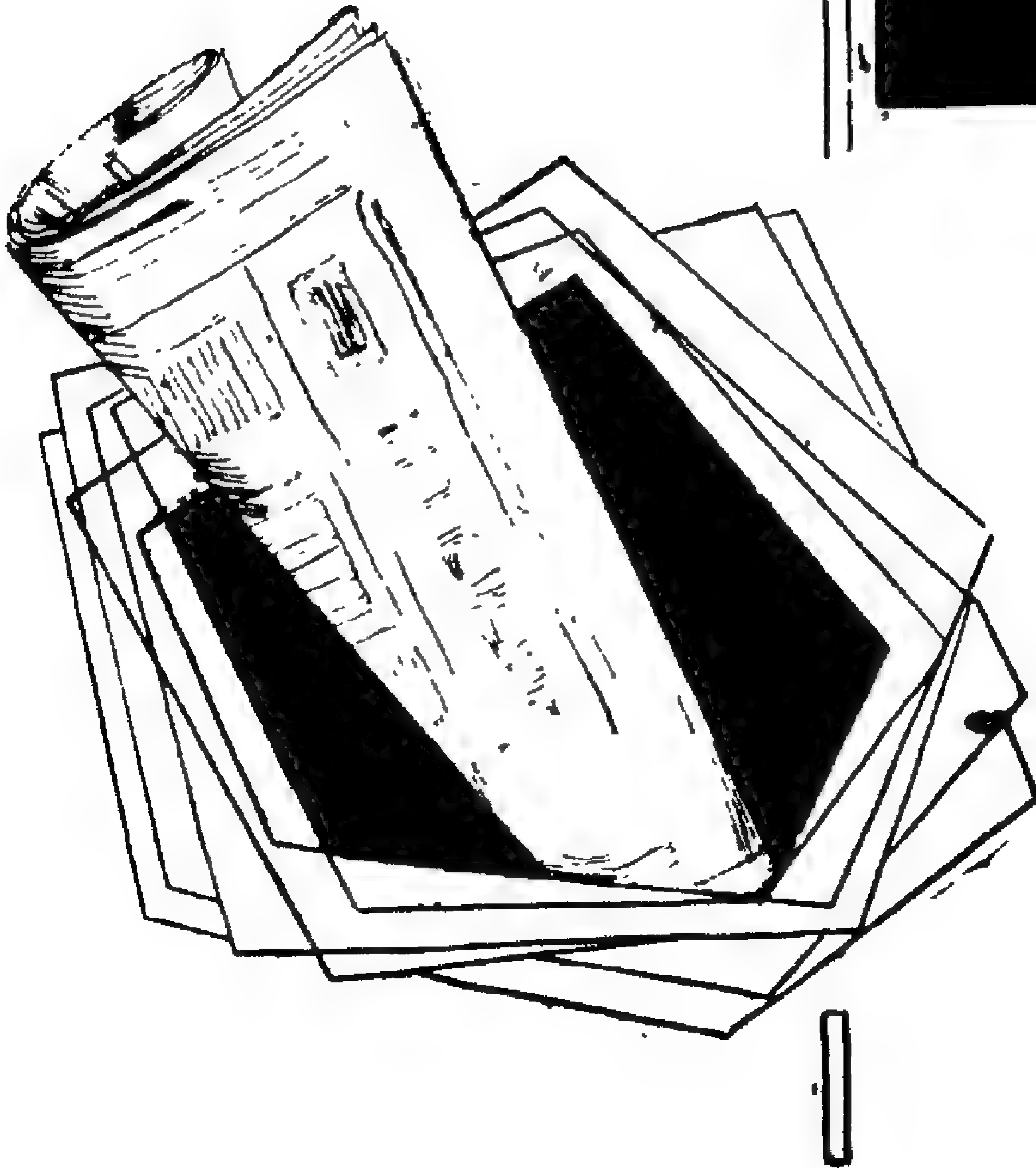


وأراد الاستاذ روحى ان يصرف الموضوع ، فقال ان مسألة « المؤيد » كانت عندهم اهم من مسـألة الاوقاف ويلوح لى انهم كانوا يودون لو توليت تحريره ، وكانوا يظنونك اكبر سنا من عشرة العشرين ولكنهم حسـبوا عليك جريرة الشباب وقالوا : انه لا يزال صغيرا

وهكذا عدنا الى حديث الصـحافة من طريق ديوان الاوقاف ، وهكذا سنعود اليه بعد قليل ..

الفصل السادس

بين الوظيفة والصحافة



معركة الأوقاف

عملت فى ديوان الاوقاف ·· وكان عمـــلى فى مكتب السكرتارية اقرب المكاتب الى دخائل الديوان ، ولكننى أعترف اليوم بأن ما علمته فى أيام خدمتى بالديوان من خفايا المعركة التى دارت حوله لم يكن غير الفقاقيع التى تطفو على وجه الماء ··

كانت معركة حامية تدور وقائعها بين القاهرة ولندن والاستانة ، وتشترك فيها حاشية الخديوى ودار الوكالة البريطانية وحزب الامير حليم واعوانه من رجال تركيـا الفتاة ، وأناس متفرقون فى القاهرة من طلاب الاصلاح

وكان الخديوى يستميت فى التشبث بموارد الديوان ولا يقبل بحال من الاحوال ان تسحب ميزانيته من ميزانية الدولة ، وحجته فى ذلك انه صاحب الولاية على الاوقاف بحكم الشرع وبنصوص الواقفين فى كثير من الاحوال ··

وكان المحتلون يحاربون السـيطرة الخـديوية على على الاوقاف كما يحاربونها فى كل جهـة أخـرى ·· ويريدون في حربهم لهذه السيطرة فى ديوان الاوقاف ـ بصفة خاصة ـ أن يحولوا بين الخديوى وبين اسـتخدام أموال الاوقاف فى حماية سلطانه ونشر دعوته ، سـواء

كانت مما يخصه ويخص العرش ، أو كانت مما يعم الحركة الوطنية لمقاومة الاحتلال ..

وكان طلاب الاصلاح في حرج شديد لانهم يريدون ان يقطعوا دابر الفساد في الديوان وما يتصل به من المعاهد الدينية ، ولكنهم يكرهون ان يتوسلوا الى ذلك بمعونة المحتلين ..

ثم حدثت في السنة الاخيرة التي عملت فيها بالديوان حوادث مختلفة بين القاهرة والاستانة غيرت وجوه المسألة ، ويسرت مالم يكن ميسورا قبل ذلك بسنة واحدة ..

الخديو بين نارين

نشأت الجمعية التشريعية بمصر فوجد طلاب الاصلاح منبرا « قوميا » ينادون من فوقه بوجوب الاشراف على ميزانية الدولة كلها ، ومنها ميزانية الاوقاف ..

وتولى الحكم في الاستانة اناس يكرهون الخديوى لانهم أصدقاء أسرة حليم المنافسة لاسرة اسماعيل ، ولانهم يذكرون للخديوى مصادرته لجماعة تركيا الفتاة تمهيدا للمطالبة بجزيرة « طشيوز » التي كانت في حوزة محمد على الكبير ، ثم استولى عليها السلطان عبد الحميد الثاني مدعيا انها كانت هبة شخصية لرأس الاسرة ، ولم تكن من أملاكه التي تنتقل بالميراث ..

واستطاع المحتلون في ذلك العهد ان يكسبوا لهم عضدا قويا بدار الخلافة ، وان يحصلوا على وعد من أقطاب الحكومة التركية بمساعدتهم على تقييد سيطرة الخديوى في الديوان ولو اقتضى الامر خلعه واسناد

الامارة الى أمير فى بيت حليم ..

وتم اخيرا تحويل الاوقاف من ديوان الى نظـــارة أو وزارة ، وكان اسم الوزارات يومئذ ـ وهو النظـارات ـ مما يسوغ ادماج الاوقاف فى عدادها ، لاشتهار الاشراف على الوقف باسم النظارة ..

أول وزير

واختير للنظارة رجل من انصار الخديو ترضية لـه وتغطية لخذلانه ، فكان ناظرها الاول فى عهدها الجـديد « أحمد حشمت باشا » رحمه الله .. وقد كان قبل دخوله الوزارة وكيلا لحزب القصر بين الاحـزاب الثلاثة ؛ وهو حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية ..

وبعد ايام قليلة من قيـــام الوزير بعمله فى الوزارة ، جاءتنى بطاقة صغيرة من بطاقات الدعـــوة الى مكتبه ، محدود فيها للمقابلة ساعة قبيل الظهر من ذلك النهـار

وكدت أجزم بالباعث الى دعوتى لمقابلة الوزير ، وأنا موظف فى أصغر درجات الوظائف فى سلك الخدمة فى الديوان

وماذا يكون الباعث الا اننى من المشـــــهورين بادارة الديوان ، واننى ممن تتجه المظنة اليهم فى الكتابة عنـه بالصحف والعلم باسراره من المذكرات وكتابة المذكرات؟!

ليس فيها قولان كما هو ظاهر ..

ولكنه فى الواقع كان تخميننا نادرا يدل على وجـــوب التردد فى قبول التخمينات مهما تبلغ من الرجاحةوالقوة، فان الوزير لم يتعرض لمسلكى فى قضية الديوان بغــير التلميح من بعيد .. وانما خاطبنى فى أمر مقـــالة من

مقالاتي نشرتها في الصحف وذيلتها بتوقيعي الصريح ، وهي مقالة كتبتها تأبينا للشيخ على يوسف صاحب المؤيد رحمه الله ، ونشرتها صحيفة « عكاظ » الاسبوعية التى كنا نخصها برسائلنا النقدية أنا ، والمازنى ، وشكرى ، وبعض الزملاء ..

ومن أضاحيك المصادفة ان الوزير كان صديقا للشيخ على يوسف ، وكان وكيلا لحزبه وخصماً لكثير من خصومه.. وكان من أشياعه القليلين الذى مشوا فى جنازته وأشرت اليهم فى بعض ماذكرته عن وفاء المشيعين له بعد الوفاة

من فصول الشيطنة !

وكان الشيخ على يوسف قد ترك المؤيد وهجر الحياة العامة ، واصطلحت عليه العلل والنكبات .. وقضى نحبه غير مذكور من أقرب المقربين اليه ، فلم يسر فى جنازته منهم غير آحاد معدودين ، بينهم وزير الاوقاف ..

وقلت فى تأبينه ان الرجل كان « نفاعا ضرارا » ولكنه كان ينفع ويضر لتمكين نفوذه واستصلاح الاعوان فى مشكلاته وقضاياه .. فمن وصلت اليه يد من اياديه لم يكافئه عليها بالمحبة وخلوص النية ، ولكنه يحس انه مدين مطالب بدين يوفيه فى يوم من الايام .. فلا جرم يشيعونه غير محزونين ويمضون فى جنازته متحدثين متشاغلين ، لانهم فى حالة نفسية أشبه بحالة المدين الذى أعفاه موت الدائن من الوفاء له بما عليه ..

خاطبنى الوزير بلهجة هادئة كانها لهجة الاستاذ الذى يلوم تلميذه على فصل من فصول الشيطنة لا يبلغ عنده مبلغ السخط الشديد ولا يخلو من بعض الرضى . فقال بعد الاشارة الى مقال التأبين : « كان أحرى بقلمك الناشىء

أن يتخذ له فى تأبين الموتى منهجا أطيب من هذا المنهج

وكان عليك الا تنسى فى هذا المقام قوله عليه الصلاة والسلام :

أذكروا محاسن موتاكم ٠٠ »

فاجتهدت ان يكون جوابى فى لهجة توائم لهجة الوزير، وقلت ما معناه : « اننى لو علمت للشيخ حسنات غير التى ذكرتها لما فاتنى ان اذكرها ٠٠ »

فاقتضب الحديث ، مصطنعا الجد ، وقال :

« على كل حال اجعل لقلمك مستقبلا كمستقبل الشيخ ان استطعت ، واستخدمه فى عملك ، ودع عنك فضول الاقاويل وآلاحاديث »

شبح المؤيد !

المؤيد ٠٠ المؤيد ٠٠ المؤيد ٠٠

ما هذا المؤيد الذى يلوح لى اننى القى شبحا منه أينما ذهبت هذه الايام ، حيث اريد وحيث لا أريد ٠٠

قبل اسابيع – على ما أذكر – جاءتنى تذكرة مطبوعة كتذاكر الدعوة الى المحافل والمجتمعات يقول كاتبها « سيد كامل » انه يتصدى لتحرير المؤيد ويود لو يستعين بالاقلام الفتية فى تجديد حياة « شيخ الصحافة » ٠٠ او كلاما من هذا القبيل ٠٠

فمن يكون « سيد كامل » هذا ؟ ٠٠

اننى لم اكن اعلم عنه شيئاً ، وأشفقت ان يكون مرشحا للقيام على تحرير المؤيد من قبل الانجليز ٠٠ لاننى تبينت من حديثى مع مستر « ستورز » انهم يهتمون بهذه الصحيفة ويودون لو يبتعثونها باشرافهم وتحت رعايتهم

وقال لى الاستاذ حسين روحى انهم كانوا يظنون اننى « أصلح » لهذه المهمة ولكننى خيبت رجاءهم ..

مولاه !

فهل « سيد كامل » هذا ممن حققوا عندهم هـــذا الرجـــا ، فاختاروه لتوجيه هذه الصحيفة ، ولو من بعيد ؟

خطر لى هذا الخاطر لاول وهلة .. ولم يفارقنى حتى علمت المزيد من تاريخ « الدكتور سيد كامل » فعلمت انه افضل واصدق فى الوطنية وفى الولاء لمولاه من أن يصلح لتلك المهمة من بعيد او قريب .. وقد كان مولاه الذى تولى تعليمه فى فرنسا على حسابه بتوصية من صـــاحب المؤيد هو الخديو عباس الثانى وهو الذى رشحه للقيـام على تحرير المؤيد بعد اعتزال الشيخ على يوسف لعمله فى الصحافة .. عسى ان يحتفظ بأمانة التراث الموكول اليه من ولى نعمته ومن استاذه الموصى عليه ..

وها هو ذا وزير جديد يفتتح خطابه الاول لى بحديث عن المؤيد وصاحبه وأصحابه ، فما هو شأن المؤيد معنا أو ما هو شأننا مع المؤيد ؟ أهو « لحظ الغيب » يرانا على مقربة من تلك الصحيفة من حيث لا نراه ؟ ..

يحق لى – لو أردت – أن أصدق هذه الهواتف الغيبية ، فانها لم تنته عند هذه النهاية ، ولم تزل تلاحقنى بخبر من هنا واشارة من هناك حتى عادت بى الى العمل الصحفى محررا بالمؤيد .. وكان السبب المباشر لعودتى اليه قصيدة نشرها المؤيد .. ونظمها شاعر من شعراء السكرتيرية بنظارة الاوقاف ، وهو المرحوم عبد الحليم المصرى الذى كان يتطلع الى مكان « شوقى » فى القصر الخديوى ، ووصل اليه ولكن بعد زوال الخديوية ..

نظم عبد الحليم قصيدة من احسن قصائده عن الخصيب أمير مصر فى أيام الدولة العباسية ، وقال فيها عن شاعر النيل :

وشاعر النيل دون الخلق يشربه
بينا يشق الصدى منا الحشاشات

وما كان يعنى فى الحقيقة غير الخديو عباس وشاعره احمد شوقى ، وما كان بالقارىء من حاجة الى البراعة لفهم هذه المواربة المكشوفة .. فقد فهمها كل قراء المؤيد من الادباء ، ولم يخف مقصدها على أحد غير محرر المؤيد الاول فى تلك الاونة : احمد حافظ عوض الذى ترك منصبه فى قصر عابدين ليشرف على تحرير هذه الصحيفة فى أدق مرحلة من مراحلها ، وخاتمتها ..

أولا تنشر تلك القصيدة عن الخديو وشاعره الا فى المؤيد دون غيره من الصحف اليومية والاسبوعية ؟ ..

فضيحة من فضائح الادب والصحافة لم ينم لها حافظ عوض ، ولم ينم لها شوقى ، ولم تنم لها نظارة الاوقاف .. وأولهم ناظرها فى ذلك الحين ـ محمد محب باشا ـ وقد كان متهما فى الحاشية الخديوية بمحاباة الانجليز ..

وحضر « حافظ عوض » ذات يوم الى ديوان الوزارة ، ولقيته فى مكتب الوزير ولا ادرى على التحقيق هل دعانى أحد الى المكتب للقائه ، او ذهبت الى المكتب بغير دعوة من احد لسبب من اسباب العمل فى مذكرات المجلسين : مجلس الادارة ، والمجلس الاعلى ..

ولكننى لقيت حافظا يبتدرنى بالسؤال والسـلام ،

ويقول لى مازحا : ماذا تصنع هنا ؟ ان مكتبك مستعد بدار المؤيد ، وان عملك الذى خلقت له ان تكتب المقالات لا أن تلخص المحاضر والمذكرات

ثم قال : ان صفحة الادب فى المؤيد تحتاج الى اديب يتفرغ لها ، ولا ينظر فى عمل من اعمال الصحيفة غير كتابتها او الاشراف على ما يكتب فيها ..

قال : ولو ان وقتى كان يتسع للتفرغ لهذه الصفحة لما استغفلنى هذا « الولد » ودس علينا تلك القصيدة المسمومة التى جعلتنا سخرية المجالس الادبية

ولم اتردد فى قبول الدعوة الى تحرير الصفحة الادبية فى شيخ الصحافة العربية ، فاننى لم اكن اطمح فى الرابعة والعشرين الى عمل أهم من هذا العمل فى الصحافة .. فان كانت لدى بقية من الرغبة فى صناعة القلم من طريق الصحف فلا انتظار اذن لما هو اولى بالقبول من هذه الدعوة بعد ان جاءتنى بغير عناء وبغير طلب .. ولا محل للتردد الا ان يكون عملى فى نظارة الاوقاف احب الى وأجدى على من العمل فى الصحافة ، ولم يكن عملى فى النظارة مرضيا لى فى حياتى الادبية ولا فى حياتى المعيشية ، فعلام التردد ؟ وفيم البقاء ؟ ..

العودة الى الصحافة

وامتلأ مكتبى « الخالى » بدار المؤيد قبل ان ينقضى الإسبوع .. ولم يمض أيام حتى عاودنى الطالع القديم : ذلك الطالع الذى تحدثت عنه فى مذكرة سابقة من هذه المذكرات .. لا أدخل عملا الا وجدته فى مرحلة من أدق مراحل تاريخه ، منذ عملت فى الوظائف الحكومية ، الى أن عملت فى الصحافة ، الى ان عملت فى ديوان الاوقاف،

الى ان عاودت العمل فى الصحافة كرة أخرى !

ولا أطيل فى شرح تلك المرحلة من حياة المؤيد ، فقد يغنى القارىء عن شرحها انها وافقت الشهور الاخيرة من تاريخ الخديوية المصرية قبل الحرب العالمية الاولى ،واننى لم أسلخ فى المؤيد شهرا او شهرين حتى ماجت الدار بالحركة التى شغلت رئيس التحرير عن الدار وعن صفحتها الادبية وصفحاتها الاخرى ، وتركتنى فيها بين دسائس القصور ودسائس الصحيفة التى لزمتها من مخلفاتها التقليدية !

كان الخديو يعلم ان لورد كتشنر يصر على خلعه ويرشح للخديوية أميرا من امراء بيت حليم ، وكان يعلم ان كتشنر لن يغلبه بقوة غير قوة الخلافة فى الاستانه أو قوة الرأى العام فى مصر ، وفى طليعتها قوة المعارضة من قبل الجمعية التشريعية

فأما قوة الخلافة في الاستانة فقد احتاط لها الخديو بسفره فى تلك السنة الى الاستانة ، وعدل عن زيارة المصائف الاوربية كعادته فى السنوات الخالية ، ليبقى الى جوار الخليفة متأهبا لاحباط المؤامرة عليه

الخديو يزور سعد زغلول !

واما قوة الرأى فقد احتاط لها برحلة شعبية فى الوجه البحرى تعمد فيها زيارة الاعيان فى قصورهم وزيارة الفلاحين بين اكواخهم واستقبال الشعب حول سرادقات الاحتفال حيثما نزل بقرية من قراهم ، غير ممنوع منها احد من الكبار او الصغار ولا من الرجال او النساء ، ولج به الحرص على ابراز صداقته للمعارضين فى الجمعية التشريعية فجعل اسماءهم فى الصف الاول بين اسماء

الاعيان الذين تقع قراهم على خط الرحلة ، ودعاهم الى مصاحبته فى غير قراهم ، واولهم سعد زغلول

ولم يشأ الخديو ان يؤتمن على مراســلة « المؤيد » باخبار الرحلة احد اقل من رئيس تحريره فأخذ حافظ عوض فى ركابه ، وجاءنى حافظ الى مكتبى قبل سفره يمهد للطلب الذى يريده منى : وهو تنقيح اخبار المراسلين بالصبغة الادبية وانتظار الرسائل منه لمراجعتها قبـــل اثباتها فى الصحيفة بالصيغة الاخيرة ، وهى الصيغة التى ستظهر بها فى الكتاب الذهبى وكرر كلامه عن الرحلــة وعن الصيغة التى ستظهر بها بعد ذلك فى سجل شبيه بالسجلات الرسمية ، وانصرف وهو يقول :

ــ انه عمل أدبى خالد على أية حال ، وانه يستحق أن أؤجل من اجله صفحة الادب الى حين

الكتاب الذهبى !

وانهالت الرسائل كالمطر المنهمر من المراسلين واعيان الاقاليم وكل من قال له الخديو كلمة او قال كلمة للخديو وضاق الوقت عن ملاحقتها بالقراءة والترتيب فضــلا عن التنقيح والتصحيح ، ثم انطوى الكتاب قبــل أن تنفتح صفحة من صفحاته ، ولا يزال منطويا الى الان

مشترك من مشتركيه الموعودين ضل طريقه الى حجرتى بدلا من حجرة المحرر الذى كان منوطا بتسلم الرسائل وتسليمها الى بقائمة مكتوبة لايداعها فى ملفاتها الى حين الفراغ من تدوينها • فعلمت من خلال كلام المشترك الموعود إنه اعطى المحرر المنوط بتسلم الرسائل عشرة جنيهات باسمى ، وانه حضر فى ذلك اليوم ومعه شىء زهيد على

سبيل الهدية : ساعة وسلسلة ذهبية .. ولى بعدها هدية على « قد المقام » بعد ظهور الكتاب

وتركت « الملفات » فى أماكنها ريثما يعود رئيس التحرير من الرحلة ، وعاد رئيس التحرير فاستعفيته من العمل فى الكتاب وابلغته ما سمعت ، وقلت له ان محررى المؤيد احرار فيما يأخذونه ويدعونه ، ولكنهم لا يملكون ان يزجوا باسمى فى معاملاتهم ومبايعاتهم ، ويحق لى اذا فعلوا ذلك ان اصحح ظنون الناس ، وسأترك له ـ أى لرئيس التحرير ـ ان يختار طريقته لتصحيح هذه الظنون ..

فتجهم رئيس التحرير وتوعد المحرر المسئول بالويل والثبور ، ووعدنى ان يكتب غدا فى المؤيد كلمة تزيل اللبس وتبعد الشبهة عنى فى أمر الكتاب ورسائله واشتراكاته ، ورجانى ان اغض النظر عن المسألة ولا أنقطع عن العمل فى الكتاب

ويعلم اصحاب الاستاذ حافظ رحمه الله انه كانت له مواطن ضعف فى تحياته ومقابلاته ، ومنها انه يتشبه بالامير فى مناورات الرضى والغضب والتقريب والاقصاء ، وانه يجعل من زمرة عمله بلاطا صغيرا تكثر فيه مناوبات التشجيع والاعراض ولمحات الابتسام والعبوس ، وقد شهدنا فى مساء ذلك اليوم تمثيلية وجيزة من هذه التمثيليات ، كانت هى فصلها الاخير !

اخر عهدى بالصحافة !

فى مساء ذلك اليوم زارنى الاستاذ المازنى والاستاذ محمود سعيد الذى اصبح بعد ذلك مستشارا فى المحاكم الاهلية ، ونزلنا الى باب الدار ننتظر مركبة خالية تمر

بنا لنستقلها الى ندوتنا المعهودة عند دار القضاء « في الوقت الحاضر » .. ولم نكد ننادى المركبة العابرة حتى مر بنا الاستاذ حافظ عوض يحيينا بيمناه ويضع يسراه في ابط المحرر « المتهم » وهو مقبل عليـــــه بالضحك والحديث ، ثم صدر المؤيد فى اليوم التالى وليس فيـــه كلمة عن الاشتراكات ولا عن تصحيح الظنون

وكان هذا اخر عهدى بالمؤيد واخر عهدى بالصحافة قبل الحرب العالمية الاولى ، لانها نشبت قبل نهـــاية الصيف !

يجوز ..

أغلب الظن عندى ان قصة خروجي من نظارة الاوقاف ثم من صحيفة المؤيد كانت « قضاء وقدرا » كما يقولون فى لغة التحقيقات القانونية

أما العارفون بتحقيقات الحواشى الملكية فقد كان لهم رأى آخر في القصة بحذافيرها ، وكان من رأيهم ان الخطة وضعت يومئذ فى القصر لفصـــل كل موظف بالاوقاف عرفت عنه المعارضة فى نظام الديوان ، لا فرق بين اكبر الموظفين وأصغر الموظفين !

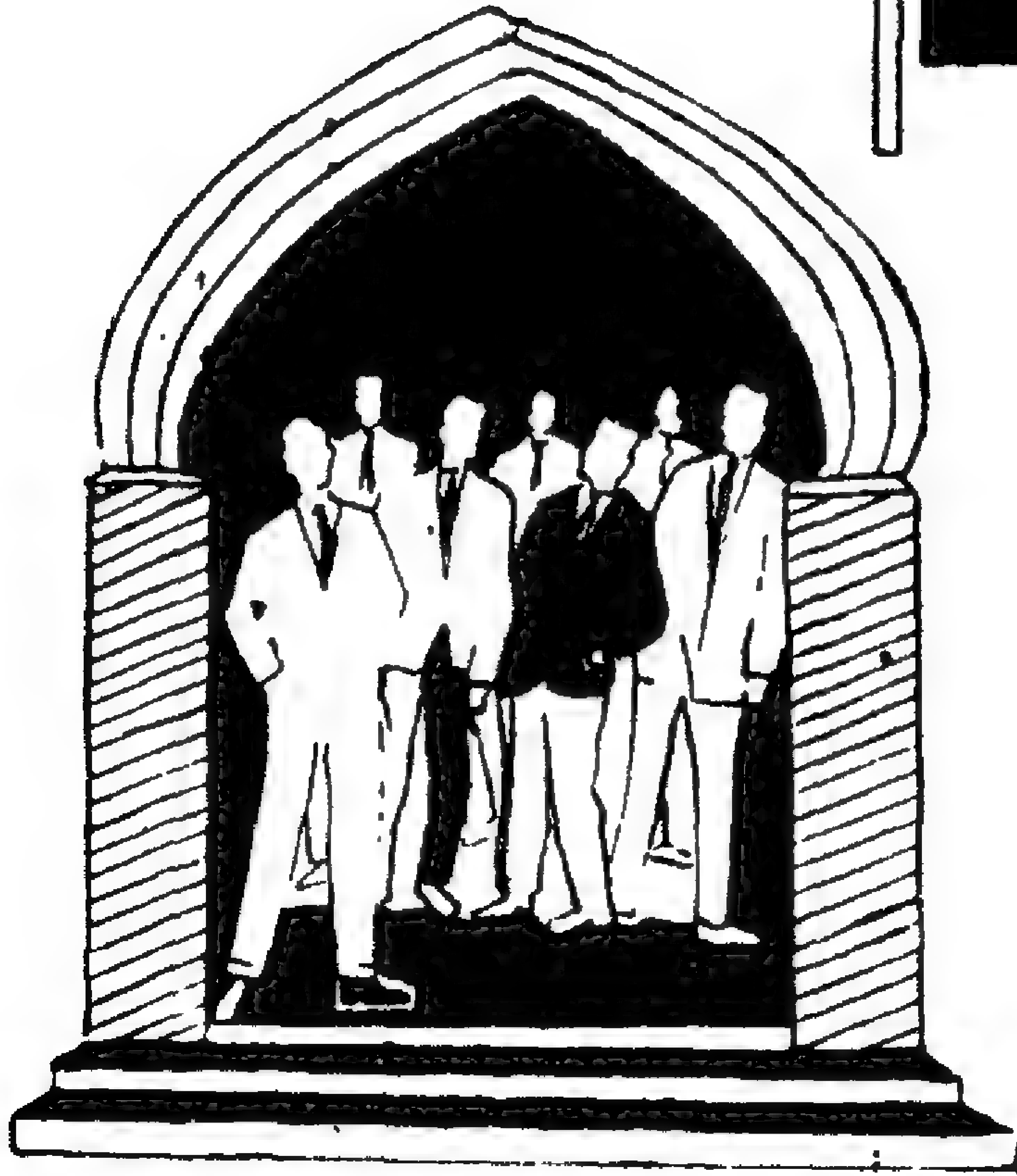
وكان اكبر المعارضين من الموظفين لصفقات السمسرة والاستبدال عبد الرحمن فهمى « بك » وكيل النظارة ، فخرج محالا الى المعاش

وكنت انا اصغر المعارضين من الموظفين ولا حيلة لهم فى فصلى بالاحالة الى المعاش ، فليكن فصلى « بصنارة » الصحافة ، ثم بمائة سبب ميسور بعد الوصول الى البر .. غير الامين !

و « يجوز » هى كل ما اقوله فى التعقيب على هـذه الفكرة القريبة البعيدة ولولا اننى استقلت من النظارة ورفضت استقالتى قبل ذلك ، لرجحت التدبير بفعل فاعل على القناعة « بالقضاء والقدر » فى تعبير العارفين بالحواشى الملكية !

الفصل السابع

فى الحرب العالمية الأولى



ساعات بين الكتب

أقمت فى القاهرة اياما بعد استقالتى من تحرير «المؤيد» على نية السفر الى الصعيد الاعلى ، وقد منيت نفسى موسما كاملا من المواسم الجميلة فى مدينة الشتاء ، ورسمت برنامجى لذلك الموسم الموعود بين المطالعة والتأليف والرياضة والبحث عن التاريخ الطبيعى ومضامين الاثار فى أسوان وهى غنية بالمضامين المعلومة والمجهولة ، من ايام الفراعنة الى أيام المماليك الى ايام الدولة العثمانية ..

واعددت العدة للكتاب الذى نويت تاليفه باسم « ساعات بين الكتب » وجعلت عنوانه دليلا على موضوعه أو موضوعاته ، فهو كتاب أسطر فيه خلاصة ما قرأت وزبدة التعليقات التى وقعت فى خاطرى واطلعت عليها أثناء القراءة ، أو هو كتاب عن الكتب اردت به أن أصل بين عالم الكتب وعالم الحياة وبين آراء المؤلفين وآراء القراء ، كما تبدو لى من النظر والمراجعة والأحاديث

وكان الموسم خصبا حقا بثمرات التاليف ، لانني انتهيت من كتاب « ساعات بين الكتب » فى نحو خمسمائة صفحة ، وأودعته ثمرة الاطلاع والتامل فى اهم مذاهب الفكر

الحديث ، واولها مذهب داروين ومذهب نيتشـــــه فى السوبرمان .. وهذا الكتاب غير الكتاب الذى ظهر بعـد ذلك باسمه واعيد طبعه مرات ، لأن « ساعات بين الكتب » التى كتبتها فى أسوان ضاعت مرتين ولم يبق منهـا غير خمسين أو ستين صفحة

الانســـان الثانى

وفرغت من كتاب غير الساعات ، عن المرأة ، سـميته « الانسان الثاني » ولم يبق منه كذلك غير صفحات

وأتممت رسالتى « مجمع الاحياء » تلخيصا للآراء فى فلسفة النشوء وفلسفة القوة وفلسفة الفطرة التى تهذبها الرياضة النفسية والاجتماعية ، وهى الكتاب الوحيد الذى تم ونشرته تاما بعد تأليفه بفترة وجيزة ..

ونظمت فى هذا الموسم الاسوانى اكثر من نصف قصائد الجزء الاول من الديوان ، ومنها قصيدة دالية مطـــولة نبذتها بعد ذلك لانها تعبر عن دفعة من دفعات الفكر لم يبق لها فى نفسى سند سليم ولا مسوغ مقبول ..

أما الكتابة الصحفية ، فقد ذهبت الى أســـــوان وأنا احسبنى فى اجازة منها الى موعد غير مسمى .. وخيـــل الى أنها ستكون اقل الشواغل شغلا لى حتى فى الاطلاع عليها والعناية بأخبارها ، فان عاودنى الحنين اليها فلتكن عودتى اليها بقصيدة من الشعر ، أو مقالة فى حكم القصيدة الشعرية ، توحى بها لمحة من لمحات الخاطر أو عارض من عوارض الشعور ..

وتقدرون فتضحك الاقدار ..

وقدرت ان الكتابة الصحفية لن تشغلني قارئا ولا كاتبا

خلال مقامى فى أسوان ، الا انها تسلية من قبيل تزجية الفراغ ، فاذا بمقالة واحدة كتبتها ـ من هذا القبيل ـ تشغلنى اضعاف شغلى بمقالات الصحف سنوات فى أحرج أيام القلاقل والقضايا والازمات ، مع انها قرئت مخطوطة قبل أن تقرأ مطبوعة ، ولم تزد نسخها المتداولة اولا على عدد اصابع اليدين ...

تلك هى مقالة « نادى العجول » ، كدت أذهب من جرائها الى جزيرة مالطة وأنا احوج ما أكون الى المقام بأسوان أو فى جو القطر من المشتى الى المصيف

« شهوة » و « شبهة » !

ادركتنى الحرب العالمية الاولى وانا فى اسوان ، واحس الناس بوطأة الاحكام العرفية فى هذا البلد النائى على طرف الصعيد الاعلى قبل أن يحسوا بها فى سائر البلاد المصرية ، لأن أسوان على ملتقى الطريق بين مصر والسودان وملتقى الطريق بين النيل والبحر الاحمر من جانب الصحراء ، ومرجع الاحكام العرفية فيها الى رئيس اقليمى بعيد من الرقابة مطلق التصرف فى الاوقات التى تشغل الحكومة المركزية عن تفصيلات الشئون الادارية فى الاقاليم .. وقد كانت شهوة الطغيان والحجر على الحريات قد ملكت نفوس الحاكمين واذنابهم من المسلطين على الرقاب تحت حمايتهم ، بعد اشتداد الحركة الوطنيه وتتابع القوانين والاوامر المقيدة لحرية المحكومين ، فلما تقررت الأحكام العرفية بكل قسوتها وصرامتها بعد شيوع العمل بالقوانين المقيدة للحريات ، أوشكت الرغبة فى الاستبداد أن تصبح هوسا فى نفوس بعض « الحكام » .. ولا سيما الحكام الذين بدا لهم أن الفرصة سانحة لاستغلال هذا

السلطان المطلق طمعا فى الكسب وشفاء للضغائن والأهواء ، وماذا يمنع الرشوة أن ترفع رأسها وتصيح بين الزوايا وفوق الجدران اذا كان أداء الرشوة هو البديل الوحيد من النفي والاعتقال بغير تحقيق ؟ .. وماذا يفيد التحقيق اذا كانت « شبهة » الحركة الوطنية كافية لاعتبار «المتهم» من ذوى الخطر والسابقة المحذورة ؟ وكانت هذه الشبهة لاصقة بالاكثرين من المصريين ؟ ..

لقد بلغ الطغيان بحاكم من الحكام فى أسوان أنه اراد أن يقضي يوما مع أسرته فى الجزيرة المغربية التى يقصدها بعض الناس للرياضة فى أيام الاجازات ، فأرسل المنادى « الرسمي » يطوف أرجاء المدينة ، وينذر من تحدثه نفسه بالنزول فى الجزيرة أن يوطن نفسه على السيف والنار وخراب الديار . .

وشاعت سيئات الحرب العالمية على أسوئها فى أقليم أسوان الآمن الوديع ! تجنيد اجبارى لفرقة العمال واعتقال متكرر لشبهة ولغير شبهة ، واتاوات تفرض لعلة من العلل المخترعة ، تبرعا للصليب الاحمر ، أو ترفيها عن المرضى والجرحى أو مساعدة على مشروع كائنا ما كان من مختلف المشروعات ، وأصبح كل طلب انذارا بالتهمة المحكوم فيها بغير استئناف ، أو انذارا بالسداد فى غير تردد ولا مساومة

نادى المجهول !

حدث هذا فى بلدى وبين أهلى وعشيرتى وأنا أنظر اليه بعينى وأستمع الى أخباره بأذنى وأحس كل مظلمة من مظالمه باحساس قريب واحساس انسان ..

حدث هذا وانا فى الخامسة والعشرين

وحدث هذا وانا اقرأ الشعر فلا ازدرى ابا نواس لقول من اقوال المجون كما كنت أزدريه لقوله فى الحكمة :

خـل جنبيـــك لرام
وامض عنــه بســلام
مت بداء الصـمت خير
لك مـــن داء الـــكلام

لا يا أبا على ، غفر الله حكمتك ومجونك ، فان كان موت يا صاح فما باله يكون بداء الصمت ؟ ولم لا يكون بداء الكلام ... ؟!

وتكلمت باللســـــان ، وتكلمت بالقلم كاتبا الى وزير الداخلية والى السلطان

وتكلمت بالقلم أيضا فكتبت ونشرت ، أو نظمت على الاصح قصيدة منثورة سميتها نادى العجول ..

نادى العجول هذا كان « ناديا » للســـادة الحاكمين وسراة القوم فى المدينة « فتحه » الرؤســـاء بكل معنى « الفتح » ... لأنه كان أشبه شيء بالغـــزوة فى طلب الأسلاب ، من طريق المساومات والالعاب

وكانت له سمعة سيئة غير سمعة المقـــامرة ، وكان الحضور فيه مفروضا على بعض الناس فى ساعات معلومة كى يخلو الجو لبعض الناس الآخرين فى تلك الساعات ..

ولم يكن يسمى بطبيعة الحال بنادى العجول ، ولكننى سميته كذلك لان رؤساءه كلهم من أصحاب الوزن الثقيل ولأنه « حظيرة » من حظائر « الدواب » الآدمية لا تخلو من القرون .. !

واضعف الاعضاء نفوذا فى ذلك النادى الموقر كان يملك الترخيص لى بالسفر على حســـاب الحكومة الى جزيرة

مالطه ، غير مشكور منى ولا ملوم من احد على ذلك الاحسان بالاكراه ..

ولكننى كتبت المقال ، وتناسخه الادباء ، وارسلته الى الصحف ، وقرأه النادى كله فى جلسة حافلة من جلساته ، وتقرر فى تلك الجلسة مصير الفضولى الجسور الذى يجترىء على ذوات القرون وعلى ذوات القناطير المقنطرة من الشحوم واللحوم ! ..

مقامة فكاهية

واعود فأقول ان القافية هى التى قضت قضاءها فى الموضوع ـ ولا قضاء لى فيه ولا مشيئة ـ فخرج الموضوع كما ينبغى أن يخرج مقامة فكاهية أو قصيدة منثورة ، يقرأه ، من خلا ذهنه من « الموضوع » فلا يشتم منها رائحة الحملة التى يجترىء بها القائل على الحكم العرفى المخيف ولا على الحكم القانونى اللطيف .. ويقرأها من امتلأ ذهنه « بالموضوع » فتغريه بحفظها وترديدها ، وهو يسأل الله السلامة من تلك العجول

قال رئيس النادى فى مقدمة المقامة : « ايها السادة .. ان العجل مدنى بالطبع . ونحن معشر العجول قد ميزنا الله على بنى آدم بضخامة الاجسام ، وصلابة القرون .. وقد غبر بهؤلاء الناس زمان كانوا يعرفون فيه بأسنا ويتمسحون باذيالنا ، حتى أيقنوا أن لن يقوى على حمل هذه الدنيا احد سوانا ، فعبدونا من فرط الاجلال .. وسبحوا لنا بالعشى والآصال ، وكانوا يحسدوننا على قروننا فدعوا أكبر أبطالهم واشدهم بأسا وارفعهم ذكرا ـ اعنى الاسكندر المقدونى ـ بذى القرنين وما اسكندرهم هذا وما قرناه ؟ ان أصغر عجل فينا ليهشم رأسه اذا

ناطحة ، ويجندله اذا واتبه أو صارعه ، فالعجب لك أيتها العجول لم لا تذكرين ذلك المجد الخالد فتقام لك الصوامع والمعابد ، بدل النوادى والمعاهد .. »

وقضى حكم القافية قضاءه فى قراءة « الموضوع » كما قضاه فى كتابته ، فأصبحت المقامة فى مدى يومين كأنها بعض المحفوظات المقررة التى يؤدى فيها الامتحان بعد يومين اخرين ، وراح أولاد الحلال يتساءلون كلما عرض لهم من يعنونه بالسؤال : لم لا تذكرون ذلك المجد الخالد، فتقام لكم الصوامع والمعابد ؟ ومنهم من كان يتخابث ويتجاهل ويخاطب العضو من الاعضاء التابعين غير المتحدثين ، نعنى بهم زمرة الاعضاء المسوقين المسخرين ، فيقول : انت مدنى بالطبع أنت أشجع من الاسكندر .. أنت يقام لك وزن .. أنت مخير على الآدميين ، الى أشباه هذه «التلقيحات » الرمزية التى كانت أصرح عند القائل والسامع من النداء الصريح

وكانت المناوشات بينى وبين المدير سجالا قبل شيوع تلك الكلمة عن نادى العجول . كنت أشكوه وأعزز الشكوى بالبينات، ثم تستدعيه وزارة الداخلية فنقرأ فى الصحف أنه قابل عظمة السلطان ثم يكشف هو بحماقته عن سر هذه المقابلة التى يستدعى لاجلها من أسوان ، فنعلم انه سمع فيها ما ليس يرضاه

الرشوة والاتاوات !

وكانت هذه المناوشات تجرى سجالا بين مرتجلة أو مدبرة حتى شاع فى المدينة ، ثم فى الاقليم ، ذلك المقال المنشور عن نادى العجول .. فاذا بالمناوشات التى كانت قصة مبعثرة الفصول تتركز وتنتهى الى مخرجها الذى

تحكم به القافية مرة أخرى ، فلا مناص لواحد من أثنين ان يخرج من المدينة : المدير أو كاتب المقال عن نادى العجول ..

ويتبين من مجرى الحوادث أن المدير تعذر عليه نفيى لانه نفى قبلى ناظرا لمدرسة المواساة ، وكنت أنا ناظرها الثانى فأشفق القوم أن يقال أنهم يضطهدون المدرسة الاسلامية الوحيدة فى البلدة .. وكل ما أستطاع المدير أن يقنعهم به هو أن يشدد على الرقابة ويقيد اقامتى بالمدينة، فلم أكترث لهذه الرقابة ولا لهذا التقييد ، لاننى بطبيعتى كثير العكوف فى المنزل قانع من الحركة بمشوار الرياضة فى الخلاء او فى النيل

وفتقت الحيلة للمدير أن يصدمنى بمفتش الداخلية الانجليزى ، فألقى اليه اننى أتهمه بالرشوة وأذيع عنه أنه يقاسم الموظفين « أتاوات » السلطة على وظائف العمد والمشايخ و « تبرعات » الاعيان وصفقات التموين ، ولم يكذب المدير فيما ادعاه ، لأننى كتبت فى الواقع أقول وأعيد أن المفتش الانجليزى يقبل الرشوة ويفرضها على مرءوسيه ..

واستدعانى المفتش الى ديوان المديرية فقال فيما قال فى حديث طويل باللغة الانجليزية : « لا يوجد انجليزى مرتش Corrupt فى الحرب ولا فى السلم » ... فبدرت منى كلمة لا أدرى ماذا كنت أقول — سواها — لو قصدتها عن روية .. وقلت : ان الانجليز جديرون بالتهنئة لانهم قد تغيروا كثيرا بعد حرب الترنسفال ..

والمعروف أن حرب الترنسفال قد كشفت عن فضيحة من أشنع الفضائح فى حالتى الحرب والسلم أثناء القتال وبعد القتال .. فلو اننى تعمدت الروية لما وجدت أمامى

مثلا أقرب من ذلك المثل للرد على صاحبنا الفخور بالتعفف عن الرشوة فى الحرب والسلم ، ولكننى لو تعمدت الروية لكان السكوت عن تلك الكلمة أولى واحجى .. فان الرجل بعدها وقف الى جانب المدير فى طلب اعتقالى واقصائى من المدينة ، وقال عنى اننى أخطر من ناظر المدرسة الذى نفته السلطة قبلى الى جزيرة مالطة ، وكنت قد تعمدت أن اشغل مكانه تحديا للامر الذى صدر بعد القبض عليه ، فعملت بعده ناظرا لمدرسة المواساة ..

وجزى الله مقامة « العجول » خيرا فى هذه المرة ، فان قارئا من قرائها الذين حفظوها أطلعنا على خبر التقرير السرى الذى كتبه المفتش ونقحه بعد مراجعة المدير . . فوجب الرحيل اذن من المدينة بكل وسيلة مستطاعة .. وقضت القافية أن يكون الراحل فى هذا الفصل من الرواية كاتب المقامة .. لا سعادة المدير

لكن كيف الرحيل من المدينة والرقيب ملازم لباب الدار بالليل والنهار ؟

لقد كان الرقيب يلازمنى اذا خرجت ، ويسلمنى فى المساء لحارس الدرك فلا يفارق الحارس مكانه فى الصباح حتى يتسلمه منه الرقيب الاول أو رقيب جديد ..

اصبحت من ابطال المغامرات !

لست من القراء المغرمين بروايات الهرب والمطاردة ، ولكننى أصبحت بطلا من ابطالها على الرغم منى بحكم الضرورة التى لا حيلة فيها .. فوصلت الى القاهرة قبل أن يعود منها جواب « السلطة » على تقرير المفتش والمدير ، وكأننى كتبت بيدى قرار الفصل عقابا لهما واحدا بعد واحد ، وبينهما فترة اسابيع

ارسلت ملابسى من المنزل فى مقطف عليه قمح يغطيه ، وذهب به حامله الى بيت فى شارع مجاور لنا نقلوا فيه الملابس الى حقيبة صغيرة ، وسافر بها بعض اقاربنا بتذكرة من أسوان الى القاهرة ، وتواعدنا ان القاه بالقطار فى محطة « الخطارة » ويعود هو الى أسوان على المطية التى وصلت بها من أسوان الى الخطارة ..

واعددنا عند ظاهر البلدة مطيتين يقودهما من نثق به من الجيران ، وبقيت مهمة الخروج من المنزل فى الصباح على الرغم من الحارس الرقيب .. وليس أيسر من ذلك اذا تزحزح الحارس من مكانه الى منعطف الطريق هنيهة قصيرة نخرج فيها ونتوارى على الاثر فى منعطف الطريق المقابل ، من ناحية الفضاء ، حيث تنتظرنا المطيتان ..

ولم يعسر علينا ان نزحزح الحارس عن مكانه خلال تلك الهنيهة القصيرة ، فقد كان من ذوينا فتى نستعيذ بالله من ثورات غضبه ومن خفته الى الشجار والخناق ، فرجوناه فى ذلك اليوم ان يغضب ، وان يبالغ فى الغضب وان يفارق المنزل بعد الفجر كانه ذاهب للصلاة ، فيشتبك فى خناقة حامية مع أول عابر من طلاب الصلاة مثله ، أو من المبكرين الى الاعمال

وقام صاحبنا بالواجب على مايرام ، وعاد الحارس الى باب البيت ونحن على المطايا متلفعين متنكرين لايعرفنا من يرانا ولو كان من معارفنا

أكبر مقلب للمدير !

وكنت بعد ذلك بيوم فى ديوان الداخلية ازور صديقنا الوزير الاديب جعفر والى « باشا » وكيل الوزارة ، ثم تتابعت الايام والتقارير السرية تصل من أسوان

بتفصيلات المؤامرات التى أدبرها ، والاحاديث التى أذيعها والاقاويل التى أثير بها الخواطر وأستحق من أجلها التعجيل بالاعتقال والنفى من الديار ..

أنا فى القاهرة يصطحبنى وكيل الداخلية كل يوم الى مكتب المستشار ،ويشهده على مقامى بعيدا من اسوان بأكثر من ستمائة ميل ، وأنا فى الوقت نفسه بأسوان يرانى المفتش والمدير أثير الخواطر وأدبر المؤمرات .. والنتيجة معروفة ...

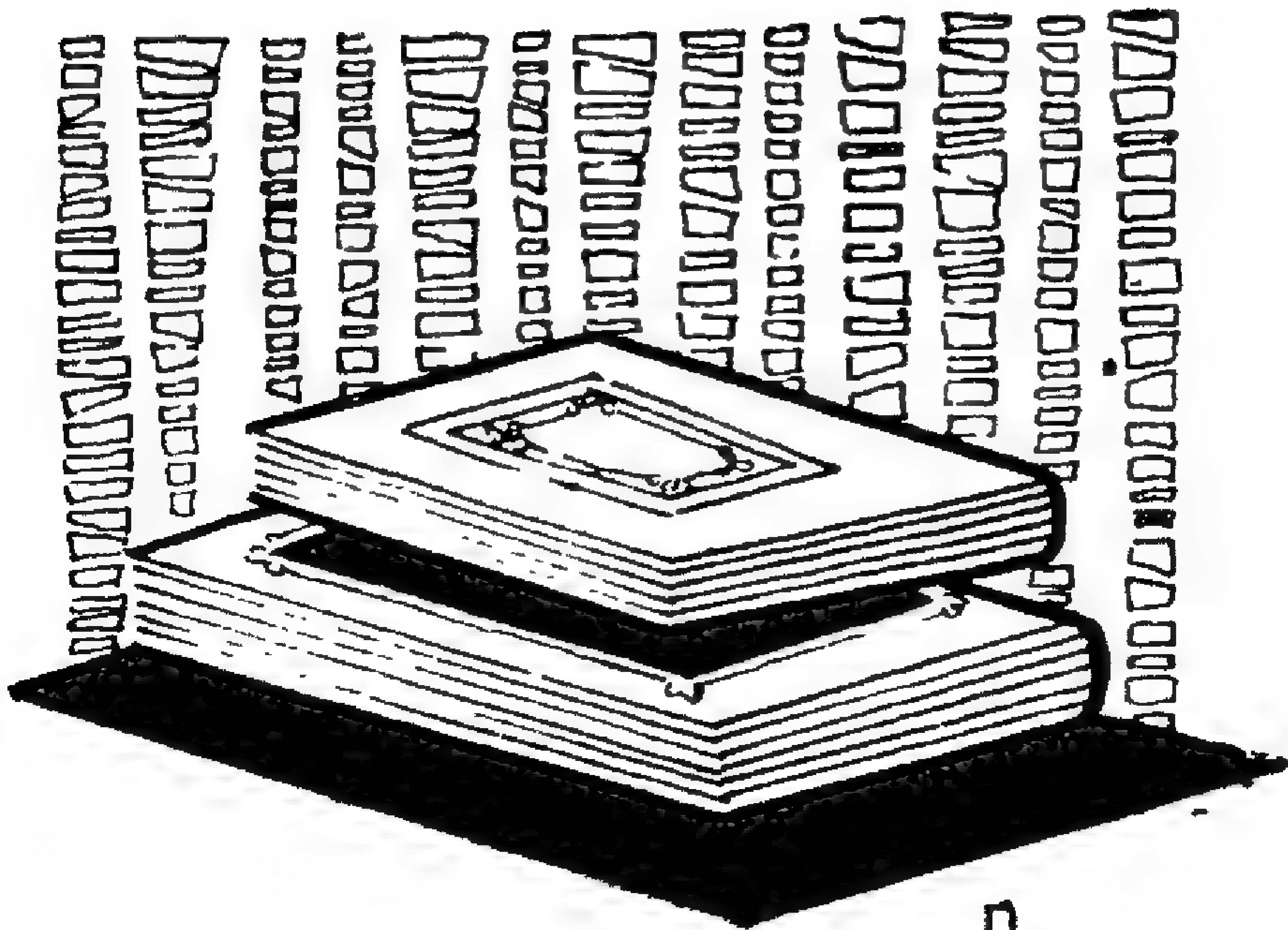
فى هذه المرة يخرج المدير من البلدة ويتلوه المفتش ، ويصدر الامر باحالة المدير الى المعاش قبل موعد الحركة الادارية ، وأعرف اسم المدير الذى خلفه فأبادر الى ابلاغ الخبر لاصدقائنا فى أسوان بهذه البرقية :

« شر مدبر وخير مقبل »

وكان المدير الخلف « محده مقبل باشا » الذىاشتهر بعد ذلك فى مناصب الادارة

الفصل الثامن

بين الموت والحياة



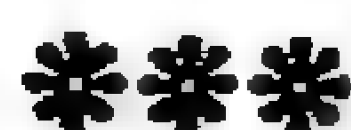
كنت رقيبا على الصحافة

كان نصيب التدريس من عملي في سنوات الحـــرب العالمية الاولى اكبر من نصيب الصحافة ، وكانت علاقتي بالصحافة قليلة متقطعة ولكنها ـ على ذلك ـ كانتمتعددة منوعة ، لانني اتصلت فيها بالوان من الكتابة الصحفية لم أعرفها قبل ذلك ، وما لم أعرفه منها عملا واختبارا فقد عرفته وصفا ونظرا واطلعت على طرف من اسراره واخباره عن كثب . فكتبت الى المجلات الشـــــهرية والصحف الاسبوعية واشتغلت بالصحافة اليومية فى غير القاهرة، وقمت على رقابة الصحف اياما معدودة ، وندبت «للمراسلة الحربية » فى صحراء سيناء وكدت أن أحيط بالدائرة الصحفية من مراكزها الى زواياها ونواحيها

وتشاء الحوادث ان اشتغل بالرقابة على الصحف وهى من أبغض الاعمال الى نفسى والى فكرى ، وتشـــاء هـذه الحوادث ان اهنىء نفسى بالخيبة فيها بعد ايام ، فلم أحمد الله على نجاح كما حمدته على هذه الخيبة الموفقة . . !

كانت لى صداقة ادبية بالمغفور له « جعفر والى باشا » وكيل وزارة الداخلية فى أيام الحرب العالمية الاولى ، وكان من الادباء « القانونيين الاداريين » الذين يجالسون

احيانا « عثمان فهمي » بك الذى كان مديرا لاسوان فمديرا لقنا فوكيلا للخاصة الملكية ، ثم خرج من الخاصة الملكية مغضوبا عليه فى عهد الملك احمد فؤاد ، محالا على المعاش قبل اوانه ، لانه لم يحسن ان يشترك فى ادارة الخاصة على الطريقة التى يرضاها صاحب الجلالة !



وكان حديث جعفر والى معى فى الادب يكاد ان ينحصر فى المفاضلة بين ابى تمام والمتنبى ٠ فانه كان يفضل أبا تمام ويفرغ لنسخ ديوانه بخطه ويملأ حواشيه بالتعليقات والملاحظات التى توافق مشربه فى تفضيله ، وكنت انا تلميذا للمعرى فى هذه الخصلة كما كنت تلميذه فى خصال خلقية او فكرية شتى ، واعنى بها خصلة «التعصب» للمتنبى وقلة الصبر على القدح فيه والانتقاص من أدبه ٠٠ أما الاستاذ « عثمان فهمى بك » فقد كان كلامه فى العلميات والفلسفيات اكثر من كلامه فى الموضوعات الادبية ، وكان يناصرنى احيانا فى تفضيل المتنبى من الوجهة الفكرية ولكنه يناصر وكيل الوزارة فى حملته على « نفخة » الشاعر الكذابة ٠ مع تعرضه للرفد والسؤال ، مما يخالف أصول البلاغة على قوله ، وهى مراعاة مقتضى الحال ، أو المقال حسب المقام !

وعلم « جعفر باشا » اننى ابحث عن عمل فى القاهرة لان حالة « الكبد » عندى لا تسمح بقضاء الصيف فى اسوان ، وعلمت منه مرة ان الرؤساء الانجليز يفاتحونه بضيقهم الشديد من مشكلة الرقابة على الصحف العربية، وانهم يكادون ان يحملوه تبعة هذه المشكلة ، لانه احق الناس ان يعرف كيف يختار للرقابة اناسا من ادباء

المصريين يصلحون لها ولا يسيئون فهمها

وقال لى ذات مرة « ان يوسف خلاط بك » مديـــر المطبوعات على حد تعبيره « فى ثياب ضيقة » .. ولكنه هو يخشى أن يلبسه القوم هذه الثياب

وأزوره يوما على موعد ، فيقول لى ضاحكا : اننى آمنت بعظمة المتنبى وفضله على ابى تمام

ثم يلمح دهشتى فيبادر قائلا : ولكنه تفضيل معلق على شرط ، وهو ان تستخدم لنا حكمة صاحبك فى عمل من اعمالنا هنا بوزارة الداخلية ، وهو مراجعـــــة الصحف العربية ..

تكميم الافواه !

قال : والحيرة فى امر هذه الرقابة ان اكثر الرقباء بادارة المطبوعات لا يفهمونها ويحسبون انها تكميم للافواه والاقلام ومسابقة بينهم وبين الصحف فى المكر والحيلة ، فكلما خطر لهم ان صحيفة من الصحف تلعب بالالفاظ لتفويت خبر من الاخبار داخلهم الغرور وظنوا انهم يغلبون الصحيفة فى المكر واللعب ، فيحذفون الخبر ويصرون على منعه ومنع الاشارة اليه . ومن ترخص منهم فى السماح بنشر الاخبار التى يحرص عليها الصحفيون فأنمايترخص فى ذلك مجاملة لاولئك الصحفيين من اجل الصداقة او من أجل المنفعة المتبادلة

قال : ولا ادرى ماذا اصنع وانا الوكيل المصرى المفروض فيه انه اقدر من غيره على حل المشكلة . فهل لك ان تؤدى هذه الامانة الشاقة وان تعيننا على تجربة الرقابة كما ينبغى ان تكون ، بين العطف على الصحافة ورعاية مقتضى الحال ..

وكانت « رعاية مقتضى الحال » قد اصبحت من التوالب المحفوظة فى احاديثنا حول بلاغة المتنبى وبلاغة ابى تمام وحظ الشاعرين من الحكمة على مقتضى الحال

قلت : انني اقبل العمل في الرقابة ولا غضاضة ، ما دامت الرقابة من المصالح العامة فى أيام الحروب

عجزت والحمد لله !

وبعد ثلاثة ايام جاءنى تنبيه وسؤال عن بعض الاخبار التى تركتها للنشر وتحقق لهم اننى لم احذفها

وبعد يومين او ثلاثة جاءتنى دعوة الى مكتب مستر « هور نبلور » الرقيب العام يتقدمها حديث مقتضب من « يوسف خلاط بك » فلما دخلت المكتب سألنى مستر « هور نبلور » مقطبا : هل راجعت هذه الاخبار ؟ وقدم الى رزمة من جزازات الصحف اليومية والاسبوعية

فقلت بعد اجالة النظر فيها : نعم

فعاد يسأل : وكيف تبيح نشر الاخبار المقلقة التى من هذا القبيل ؟

قلت : انها تباح فيما أطلع عليه من الصحف الانجليزية ويباح لتلك الصحف ما هو اخطر منها بكثير

فصـــــــاح متهكما : الصحف الانجليزية ؟ ثم أردف قائلا :

— هل انت من الحزب الوطنى ؟

قلت : انا مصرى وطنى بطبيعة الحال

قال : اذا كنت لا تعطف معنا فلماذا تتولى هذا العمل ؟

فأجبته بكلام فحواه اننى لا افهم المقصود بالعطف معهم ، ولكننى لا ابقى فى هذا العمل اذا كان يتطلب منى

شعورا لا أفهمه ، وله ان يتقبل آستقالتى مشكورا على قبولها ..

وهكذا عجزت بحمد الله عن مهمة الرقابة بعد اسبوع واحد ، وكدت أعجز عنها بعد يومين أو ثلاثة

المراسلة الحربية

أما المراسلة الحربية فقد ندبت لها من طريق الكتابة فى مجلة المقتطف عن المقارنة بين فلسفة المعرى وفلسفة شوبنهور

وكنت اعمل بالتدريس في مدرسة وادى النيـــــل الثانوية بجوار محطة باب آللوق على مدى خطوات من مكتب المقتطف والمقطم • فزارنى الاستاذ نجيب شـاهين بالمدرسة موفدا من قبل الدكتور يعقوب صروف وقال لى ان الدكتور وبعض ذوى الشأن ينتظروننى بعد الفراغ من الحصة قبل فسحة الظهر • ولم يخبرنى شيئا عن موضوع الدعوة

فلما دخلت المكتب وجدت الدكتور وشابا من اصهاره ومعه الشيخ الغنيمى التفتازانى ورجلا انجليزيا لا اعرفه ولم يعرفنى به الدكتور ، ولكنه قال :

ـ انك تعلم بقلق الناس فى هذه الايام من جانب الحدود الشرقية ، وكلهم يظنون ان الهجمة منها قريبة على قناة السويس ثم على جميع البلاد المصرية ، ومثلك خليق ان يعيد الطمأنينة الى نفوسهم بما تراه عيانا وما تطلع عليه من المعلومات المفصلة وهى حاضرة عند المختصين بالمسألة .. واشار الى ناحية الرجل الانجليزى ، وكل ما يطلب منك ان تطلع منها فى القاهرة على ما يلزمك وان تهيىء نفسك بعدها للرحلة الى الخطوط الامامية فى صحراء

سيناء ، ثم تصفها باسلوبك المعهود لان مجرد الوصف الصحفى الشائع لا يكفى للاقناع والتأثير ، ولولا ذلك لكان فى مخبر من مخبرينا او مخبرى الصحف الاخرى من يغنى هذا الغناء

رايى الذى لم اعلنه !

واحب ان اعيد هنا رايى الذى اعلنته فى اثناء الحرب العالمية الثانية ولم أستطع أن أعلنه فى أثناء الحرب العالمية الاولى ، فقد كان من رايى فى الحربين ان تتولى مصر واجب الدفاع عن حدودها موفورة السلاح والاستقلال والا تتولاه ـ بداهة ـ فى ظل الحماية او الاحتلال

فلما سمعت اقتراح الدكتور صروف قلت له انني لا أكره أن أبث الطمأنينة فى قلوب المصريين من ناحية الدفاع عن بلادهم اذا كان المصريون هم الذين يقومون باعباء هذاالدفاع اما وهو ـ كما يحدث الآن ـ من عمل دولة الحماية فليس من المعقول أن ارفض الحماية واقبل دفاعها

وكان الدكتور يعلم رايى هذا فى الحماية من احاديثى معه قبل ذلك خلال زياراتى له فى صدد مقالاتى الادبية ، فكاد ان يعتذر من مواجهتى بالاقتراح لانه نسى اننا تحادثنا فى مسألة الحماية منذ شهور ، وانصرفت وهو يكرر قوله : انه لو ذكر ان فى الاقتراح شيئا لااسيغه لما فاتحنى به ، وجعل يقول مازحا : اذن تعود الى المعرى وشوبنهور .. !

ولا أذكر أن أحدا من الحاضرين فى تلك الجلسة فاه بكلام يخالف هذا المعنى غير الشيخ التفتازانى ... فانه طفق يقول ويعيد : يا سيدى فيها ايه ؟ وماذا فى ذلك

ياسيد عباس ؟ اليس المهم الآن أن تطمئن النفوس على الحدود ؟

فلم أجبه ولم يجبه أحد من الحاضرين

أنا والمازنى .. بين الموت والحياة !

وقبيل انتهاء الحرب العالميـــــة الاولى عدت الى التحرير فى الصحف على غير انتظار ، بل على يأس من العمل فى الصحافة والتدريس الى مابعد الهدنة ، اذ كان للهدنة موعد قريب

فالعمل فى التدريس لا أمل فيه ، بعد أن مارستـــه سنتين مع صديقى المازنى فى مدرسة بعد مدرسة من كبريات مدارسنا الثانوية ، وجرت العـــادة فى كل مدرسة ان ينتهى عملنا فيها بأزمة من أزمات الخـلاف على تصحيح اوراق الامتحان ، لاننا كنا نصحح اسـئلة وأجوبة وكانت خزائن المدارس تنظر الى أوراق الامتحان كأنها اوراق الرصيد المنتظر فى حساب المصروفات

فلما وصلنا الى الاوان المقدور للازمة السنويةخرجنا من المدرسة متفقين على سكنى الامام الشافعى حيث تقيم أسرة الاستاذ المازنى من زمن بعيـــد ، وقدرنا أن اختزال النفقات المعيشية بالسكنى بين عالم الحياة وعالم الموت قد يغنينا عن التعجل فى طلب العمل بضعة اشهر ، ويفرجها ربك بعد ذلك أو قبل ذلك كما شاء

وقلت للمازنى : ابحث ياصـــاح عن عمل فى صناعتك ولا ترتبط بى فى بحثك ، ودعنى أنتظر العمل فى صناعتى حيثما اتفق ، فلا حيلة لنا فى اسـتعجاله ولا فى البحث عنه ، لانه معلق بانتهاء الحرب العالمية فيما قدرناه

ووجد صديقنا المازنى عمله ناظرا للمدرســة المصرية

الثانوية ، ولبثت انا بالقاهرة اترقب اوائل الشتاء لاعمل فيما يتهيأ من عمل ارتضيه او آزمع الرحلة الى أسوان

وكنت احسبنى مترقبا على غير جدوى لان ركود السياسة الوطنية فى ابان الحرب قد ذهب بالصحف اليومية التى كانت تنطق بألسنة الهيئات السياسية ثم هبطت ازمة الورق بالصحيفتين الباقيتين - وهما المقطم والاهرام - الى ورقة واحدة من صفحتين لامتسع فيهما لغير البرقيات وانباء الدواوين وما هو من قبيل «المحتويات» التقليدية فى الوقائع المصرية ، فاكتفت كل صحيفة بمن فيها من المحررين والمترجمين

وكنا « نفد » على المدينة من « حى » الامام الشافعى مرة كل اسبوع ، وكان يوم السبت على الاغلب هوموعد هذه الزيارة الاسبوعية ، لانه يوم متوسط بين بطالة الجمعة وبطالة الاحد ، فلم اكد اقبل على المكتبة التى كنت اتردد عليها فى هذه الزيارات حتى تلقانى صاحبها قائلا بل صائحا : اين انت يا استاذ ؟ ان الاستاذ عبد القادر حمزة قد حفيت قدماه وهو يأتى الى المكتبةويعود ليسأل عنك وقد يئس من لقائك فأوصى الاستاذ « عبد المؤمن كامل الحكيم » بالبحث عن مكانك والاتصال بك فى شأن هام كما قال . وقد كان الاستاذ عبدالمؤمن هنا الساعة ، وترك عنوانه لدينا وكتبت له عنوانك كما اعرفه بالامام ، ولا ادرى فى اى مكان هو بانحاء الامام ..

وعلمت بعد لقاء الاستاذ عبد المؤمن اننى مطلوب للتحرير فى صحيفة « الاهالى » بالاسكندرية ، وأننى استطيع ان اعد نفسى للسفر خلال اسبوعين او ثلاثة ، وعنده تفويض بتسليمى مرتب شهر وما أطلبه من تكاليف السفر ، وعنده كذلك تفويض بمراجعة الصحيفة فى

تقدير المرتب ، ان كنت لا أرضاه

قلت له : لا حاجة الى المراجعة الآن ولعلها في الاسكندرية أجدر وأيسر ، وانثنيت يومئذ الى الامام لاعداد حقيبة السفر واختيار ما أحمله معي من الكتب الى الاسكندرية ، والاستغناء عما هو معد للبيع في يومين أو ثلاثة ، ولم يكن طلابه بالقليلين في تلك الآونة ٠٠ لانقطاع البريد الاوربي في الفترات بعد الفترات على غير انتظام

كانت في الثغر الاسكندري ثلاث صحف يومية هي البصير ووادي النيل والاهالي

وكانت « البصير » صحيفة القطن والتجارة ، لا تعرض للبيع في خارج الاسكندرية ، ولا تعرض للبيع في الاسكندرية نفسها الا على مقربة من البورصة ومخازن الميناء ، وكانت الصحيفة تعيش باشتراكات التجار والسماسرة ورسوم الاعلانات القضائية من المحاكم المختلطة، ولا تذكر فيها شئون السياسة المصرية الا كما تذكر في صحيفة « خارجية »

وكانت « وادي النيل » صحيفة المجلس البلدي او صحيفة المناورات والمنازعات بين اعضائه واحزابه ، ولها ـ من ثم ـ عناية بمسائل الاسواق والدكاكين والشوارع المرصوفة وغير المرصوفة ، وما اليها ٠ فكان لها نصيب وافر من الرواج في الاسكندرية ، ونصيب «لا بأس به » من الرواج خارج الاسكندرية، بعد انقطاع الشعب خليفة اللواء وانقطاع المؤيد والجريدة

أما « الاهالي » فقد كانت في نشأتها صحيفة «شبيهة بالرسمية » يشترك فيها مئات من الموظفين والعمد والاعيان لانها لسان حال رئيس الوزارة محمد سعيد

باشا ، وكان « محمد سعيد باشا » احد الساسة القلائل الذين فهموا فى ذلك العهد ضرورة الاتصال بالرأى العام ووجوب الاعتماد على الصحافة فى مناقشة الصحافة التى تعارض الوزارة . فأوعز الى طائفة من أصدقائه الاسكندريين بانشاء شركة « الطبع والنشر الاهلية » واستهلال عملها الصحفى باصدار صحيفة يومية تدافع عن الوزارة وترد هجمات الصحف المعارضة عليها . فاختاروا اسم « الاهالى » لصحيفتهم عمدا لانه اسم قديم لصحيفة كان يصدرها اسماعيل اباظة باشا رحمه الله ، ولان اسم « الاهالى » يقابل اسم « الشعب » واسم « الامة » مصبوغا بالصبغة التى تدل على معنى « الرعية » ولا يفهم منها معنى المقاومة والثورة

ولم تزل « الاهالى » صحيفة الحكومة « الشبيهة بالرسمية » الى ان سقطت وزارة سعيد باشا وقامت بعدها وزارة حسين رشدى باشا التى اعلنت الحمايةعلى مصر فى عهدها ، فلبست « الاهالى » بعد ذلك لباس المعارضة فى حدود الظروف التى تسمح بها الحرب والرقابة وكانت هذه المعارضة تقوم على اساسين : احدهما الخصومة الوزارية بين سعيد ورشدى ، والآخر ايمان سعيد بفائدة السيادة العثمانية فى استنهاض الحجة « القانونية » او الحجة الدولية على الاحتلال والحماية . فقد كان سعيد « عثمانيا » فى تفكيره وشعوره الى اللحظة الاخيرة ، وكان هو صاحب الرأى القائل بالارتباط بين البحث فى مسالة الحماية والنظر فى معاهدة الصلح مع تركيا والدول المنتصرة فى الحرب العالمية

واوشكت « الاهالى » ان تحتجب بعد اعتزال الوزارة السعيدية وقيام الوزارة الرشدية ، لان مشتركيها من

من الموظفين والعمد قطعوا اشتراكها ، ثم جاء كساد الصحافة بعد فرض الرقابة عليها ونشوب الحرب العالمية فطواها فيما طواه من الصحف المهملة او المعطلة ، ولكن ظروف الحرب انقذتها بعض الانقاذ من حيث لاتحتسب، لانها حصرت الاعلانات فى ايدى شركة تحتكر الاعلانات القضائية من المحاكم الوطنية وتتعهد للاجانب بنشر اعلاناتهم فى صحيفة افرنجية وأخرى مصرية ، فكانت « الاهالى » هى الصحيفة التى تتسع لنشر تلك الاعلانات فى ملحقاتها ، وعندها بقية من الورق المخزون غير الورق الذى تدبره الشركة ، ولولا ذلك لما استطاعت ان تعيش سنة بعد ذهاب الوزارة السعيدية وانقطاع الاشتراكات عنها فى ذلك المعترك العصيب (١)

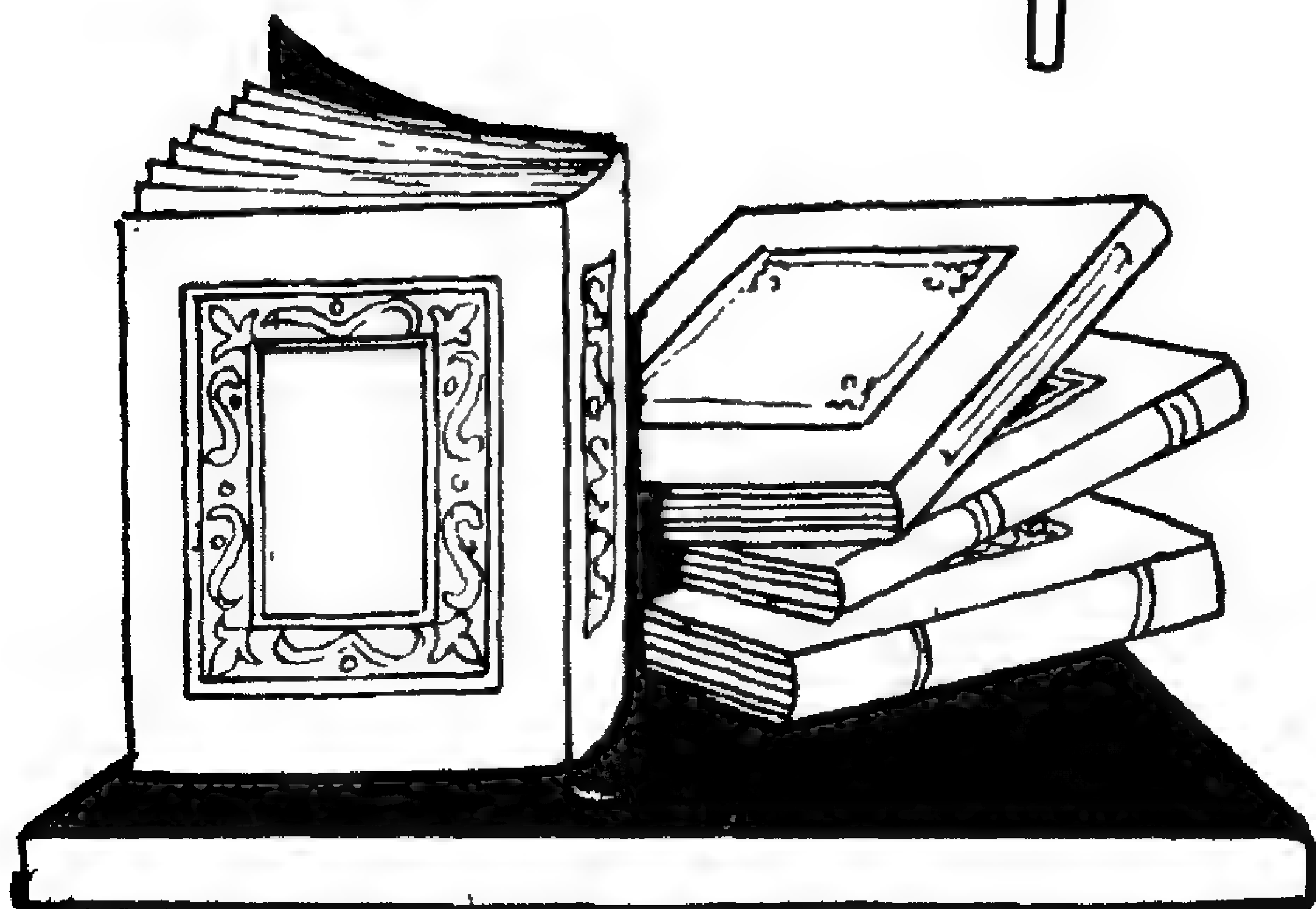
وبقيت فى تحرير « الاهالى » الى نهاية الحرب وظهور الدعوة الوطنية على يد الوفد المصرى بقيادة سعد زغلول ، وافترقت الخطة العامة بين الصحيفة والوفد فتركتها وعملت فى الصحيفة التى كانت تجرى يومئذ على تلك الخطة ، وكانت فاتحة عصر جديد فى حياة مصر وحياة الصحافة وحياتى الصحفية ، يقترن بتاريخ النهضة الحديثة فيما علمت من ظواهرها وخوافيها

---

(١) وقف الاستاذ العقاد ـ فى الفصول السابقة ـ حتى عام ١٩١٩ حين قامت الثورة المصرية بزعامة سعد زغلول · وقد اشترك بقلمه فى هذه الثورة مؤيدا للمبادىء الوطنية والسياسية التى كان يؤمن بها · حتى اعتزل السياسة فى عام ١٩٣٥ حين افسدتها الحزبية ، وانحرف السياسيون فى ذلك الحين عن المبادىء المثل ·· كما اشرنا الى ذلك فى « تقديم هذا الكتاب » وتوفر على التاليف ، وكتابة الفصول العلمية والادبية فى المجلات الكبرى · ولهذا نقدم هذه الذكريات وما يليها من الفصول التى لم تنشر من قبل فى كتاب من كتبه

الفصل التاسع

ذكريات وشخصيّات



صديقي المازني

صديقي المازني أحوج الادباء الى التعريف بحقيقة فضله ، لاني ما رأيت أحدا من المعجبين به الا وهو يجهل بعض مزاياه .. وليس ذلك لخمول في الذكر . فقد بلغ ـ رحمه الله ـ من الشهرة غاية ما يبلغه الاديب في البلاد العربية

وليس ذلك لغموض في النفس يباعد ما بين ظواهرها وبواطنها . فما عرفه أحد من طول المعاشرة الا عرف أنه من أصفى الناس سريرة واشبههم ظاهرا بباطن ، وجهرا بخفـــاء

ولكنه لم يعرف بحقيقة فضله ـ أو بكل حقيقة فضله ـ لسبب غير الخمول وغير الغموض ، وهو قلة الاكتراث والاكتفاء بأيسر ما ينال وبعضهم يسميها «ملكة السخرية» ويخيلَ اليه أنها على مثال السخرية التي اشتهر بهـا بعض المفكرين الساخرين .. ولكنها فيما اعتقد تشبه السخرية وليست هي بها . لانها تخلو في جوهرها من نكاية السخرية التي تلازمها . فلا تنطوي على النكاية بأحد ، ولا تدل على حب للنكاية

وانما هي على ما عرفتها واختبرتهـا ، شي آخر غير

السخرية وان كانت شبيهة بها :

هى حب « المعاكسة البريئة » أو هى الدعابة لا ضير فيها على أحد ، ولا فرق بين الدعابة على النفس والدعابة على الآخرين

لم يكن يبالى أن يبرز خير ما عنده ، ولم يكن يبالى أن يقدح فى أدبه وفنه بقلمه ولسانه ، فيسبق المنكر والحاسد الى القدح والانكار ولم الجهد والعناء ؟ ..

لقد كان يرى أن حقائق الدنيا كالخيال ، لان غايتها الى أمل أو ذكرى ، وكلاهما خيال .. فليكن متاعه بها ونصيبه منها خيالا بغير عناء ..!

وكان يرى أن الناس يضنون بثنائهم كأنه شىء لا غنى عنه . فكان يريهم أنه فى غنى عنه فعلا ، وكأنه يقول لهم : « ان استطعتم فقولوا فى أدبى وفنى ، وفى شخصى وسيرتى ، أكثر مما أقول »

ويحسب بعضهم انها فلسفة حياة ، ويحسب الآخرون انها « مظهر » من مظاهر التحدى التى يواجه بها الناس

وليست هى بفلسفة وليست هى بمظهر

هى طبيعة فيه عهدتها منه فى غير عالم الكتابة ، ولم تفارقه منذ صباه كاتبا أو غير كاتب ، وغاية ما هنالك انه كان يطاوعها حينا فيسترسل فيها ، وانه كان يكفها حينا فلا تظهر كل الظهور .. كان ولعه « بالمعاكسة البريئة » تسليته الكبرى

ولست أحصى ضروب هذه المعاكسات التى كان يرتجلها ارتجالا فى أكثر الحالات ، ولكننى أذكر حادثا منها له اتصال بجانب نفسى فى تاريخ حياته ، وهو من قبيل

الوقائع التى تفسر الاقوال ، أو تفسر مذاهب الكتابة التى يسميها بعضهم فلسفة حياة

قل من يذكر أن المازنى شغل بالموسيقى فى عنفوان شبابه ، وانه تعلم العزف على « الكمان » وتلقى دروسا كثيرة فيه ، واستطاع أن يوقع بعض البشارف وأوشك أن يحسب فيه من مهرة العازفين

وكنا نقضى السهرة ذات ليلة فى ناد كبير من اندية الموسيقى والغناء وطالت السهرة الى ما بعد منتصف الليل ، وكان يبيت يومئذ بمنزله على مقربة من الامام ولم يكن خط الترام قد وصل بعد الى الامام ، وقد كان الترام الذى يذهب الى تلك الجهة ينقطع قبل ذلك الموعد على كل حال

وودعته وهو يتفق مع حوذى ليوصله فى مركبته ، مركبة خيل ، لان السيارة لم تكن شائعة فى تلك الايام

وكان الجو ليلتها رائقا والقمراء فى أوانها ، وسكون الهزيع الثانى من الليل يغرى بالغناء

ويظهر أن الحوذى ـ حين رآنا نخرج من النادى الغنائى ـ قد بدا له أننا من هواة السمع ، فلا حرج عليه اذا طرب وأطرب ، وراح يتغنى بما شاء من « الطقاطيق » التى يهواها ، ولم ينس أن يعتذر الى « زبونه » بعد أن رفع عقيرته بالغناء :

ـ لا مؤاخذة يا سيدنا البيه ، ان محسوبك من هواة السمع ، وانى .. وقبل ان يمعن فى الاعتذار ، بادره « الزبون » قائلا :

ـ خذ راحتك .. « أنا والله أحب اسايرك » .!

فلم يملك الحوذى نفسه من الطرب والارتياح . لان الجواب الذى سمعه جزء من « الطقطوقة » التى كان

يغنيها . وراح يغني تارة ويردد قصته التى بدأ فيها تارة اخرى ، وخلاصتها أنه كان - لهوايته السماع - يختار موقفه الى جانب « تخوت الآلاتية » ويسترق السمع بين لحظة وأخرى كلما استطاع الافلات من رقابة البوليس

وانجلى الحوذى ، وخلا له الجو بعد باب السيدة عائشة ، ونسى البوليس والزبون ، ومضى كأنه فى ليلته يود الا تنقضى به الطريق

وتدرك أخانا ، المازنى ، تلك الشنشنة التى لا تفارقه ، ويوحى اليه الموقف بالخاتمة الصالحة لهذا « الفصل الغنائى » الذى أقحمه الحوذى عليه فأفسد عليه فى آخر الليل ما سمعه فى اوله : ان المطرب المقتحم قضى ساعة وهو يقول فى الطقطوقة التى يغنيها « لما أشوف آخرتها معاك .. »

فماذا لو كلفت آخرتها ان يلتفت عند خاتمة المطاف فلا يجد الزبون ؟..

خطر الخاطر فلحق به التنفيذ ، وخلت المركبة والمطرب المشغول بغنائه لا يدرى لان خلو المركبة واخلاءها بذلك الحمل الذى كان فيها يستويان ..!

والتفت الحوذى بعد ان طالت الرحلة ولم يستمع من الزبون صوتا ولا امرا بالوقوف .. فطار ما فى دماغه من الغناء ، وامتلأ بكل ما وعاه فى حياته من البذاء

ولا حاجة بالقارىء الى ترديد ما ألقاه من لسانه فى ذلك الخلاء ، وليس من حوله أحد يجيبه اذا استدل به وغريمه الباحث عنه هو دليله الوحيد

ويزورنى الصديق فى اليوم التالى فيسألنى : « أتذكر شكل الحوذى الذى ركبت معه بالامس ؟ »

قلت : « لا اظن انني أحقق شبهه فلماذا تسأل عنه ؟ هل فقدت شيئا عنده ؟ »

قال ضاحكا : « كلا . ولكنه هو الذى فقد ! .. »
فلم افهم ما يقول وسألته : « وماذا فقد ؟ .. »

قال : « فقدنى أنا » .. وقص على تفصيل تلك القصة التى أجملتها هنا بعض الاجمال .!

***

انقضى اربه من المعاكسة ، وجاء دور الرحمة بذلك المسكين ، فاذا هو مهموم بالبحث عنه لاعطائه أجره الذى خيل اليه انه قد ضاع بغير امل ، فقلت له أن حوذيا بهذه الصفة لا بد ان يكون معروفا بين زملائه فى موقفه وغير موقفه ، فهلم الى الموقف نبحث عنه هناك !

ولم يخطىءظننا فى جدوى البحثهناك ،لان القصةكانت حديث زملائه جميعا ، وان لم يكن هو فى الموقف تلك اللحظة . فأخبرناهم اين يجدنا اذا عاد ، ولم نلبث طويلا حتى أقبل الرجل يهرول وهو لا يصدق ان زملاءه قد صدقوه الخبر . فلما رأى صاحبه بالامس اقبل عليه متهللا وتناول منه ضعف أجره الذى كان يطمع فيه .. !

وانصرف وهو يدعو له ويقسم نادما : « لاعدت الى الغنــاء أبدا وأنا مــركب » .. والا « فعــلى روحى انا الجانى » . !

قال الصديق العزيز : « بل تغنى ما شئت ، ولكن تعطى وجهك للسميع ! » هذه هى « المعاكسة البريئة » التى لزمت صديقنا على صور شتى من صباه الى أخريات أيامه . وتزداد بها الفجيعة أن تذكرها فتذكر أى نفس طفلة ــ اى طفولة من طفولة العبقرية الخالدة ــ قد عاجلها الحمام

بهذه الدعابة البريئة ـ التى لا ضرر فيها على احد ـ كان المازنى يستقبل الدنيا ، ويحتمل نقائضها ومفارقاتها ويعفى نفسه من الجهد الذى يبرز للدنيا خير ملكاته ، بل يحاول ان يستر هذه الملكات بيديه غير آسف على شىء .!

قادر على نفسه ..

على أن المازنى يصحح فى هذا الباب خطأ يقع فيه أولئك الذين يحكمون على الاطوار النفسية بظواهرها وعناوينها ، فيحسبون أن طبيعة الاستخفاف تقترن دائما بالعجز عن الجد وصرامة الاخلاق

والواقع ان الذين عاشروا المازنى وخبروه يعلمون انه من اقدر الناس على نفسه واصبرهم على رياضة طبعه، واشدهم جلدا على مواقف الشدة والصرامة . وقد عانى من شدائد الايام ما يقصم الظهر ويغشى آفاق الحياة بالظلام ، فلم يكن يتغير لمن يلقاهم ويلقونه فى هذه الاحوال الا بالاكثار من المرح والتبسط .. فلا يعرف جليسه أنه فى شدة الا اذا تحول مزاجه الى التكلف المحسوس

وأنا أعلم من عاداته أنه كان مفرط الحس بالشم فى مطلع شبابه على الخصوص ، وكنا نمشى مسافات طويلة لنتجنب المرور ببعض الاماكن التى تنبعث منها روائح الحانات والنفايات . ولكنه راض نفسه نحو ساعة على احتمال رائحة من ابغض الروائح الى الانوف ، لانه أراد أن يلقى درسا حاسما على محبى« الشيطنة » من التلاميذ

وكان أولئك التلاميذ يجهلونه ويجهلون انهم يحاربونه فى ميدانه حين يعمدون الى ضروب المعاكسات المدرسية

التى يفيظون بها طائفة من المعلمين ، فانتظروا حصته ووضعوا فى المحابر حمضا كريه الرائحة لا يطاق فى مكان محصور ، وسبق الى وهمهم ان الحصة ستضيع فى السؤال والجواب عن هذه الرائحة وعن مصدرها وعن واضعها وعن المكان الذى جاء به منها ـ وهو بطبيعة الحال معمل الكيمياء فى المدرسة .. ولكنهم لم يلبثوا هنيهة بعد دخوله الى الفصل حتى أدركوا أنهم فى وهم بعيد ، لانه لم يسال ولم يغضب ولم يبد عليه انه فطن لشيىء غريب،ولم يزد على انه مضي بنفسه الى النوافذ فأغلقها والى الباب فأغلقه ، واخذ فى الدرس وهو على أتم راحة ونشاط ، وكلما اشتد الضيق بالشياطين الذين انقلبت عليهم فعلتهم تصايحوا يسألونه فتح النوافذ والابواب ، وهو يزعم لهم ، فى جد وسكون ، أن الحجرة المغلقة أصح من تيار الهواء

وكان ذلك هو الامتحان الاول والاخير !

ملكة نادرة ... !

وليس أعلم من المؤلفين بالمشقة التى يعانيها الكاتب اذا حاول ان يعيد الكتابة فى موضوع من جديد . فانها مشقة جهد ومشقة ملل فى وقت واحد ، ولكننى رأيت المازنى يعيد كتابة المقرر فى التاريخ لبعض الفرق الثانوية تأديبا لرجل من الناشرين خدعه فى طبع الكتاب المقرر لتلك الفرق . فأعلن انه غير راض عن النسخة المطبوعة وانه سيطبع المذكرات على التوالى بعد اعادة تحضيرها . وصبر على هذا الجهد الممل ليملى على اخوان الامانة درسا فى عاقبة الخيانة والخداع

الا أننى أظلم ملكات المازنى كلها اذا رجعت باحتماله

لهذه المشقة المملة الى الارادة دون غيرها

فان الذكاء المفرط فى الحقيقة هو صاحب الفضل الاول فى صبره على جهد الاعادة ومللها . لانه كان يستطيع أن يفتح المرجع التاريخى الضخم فى اللغة الانجليزية وان يلخصه وهو يقرأه ، وان يترجمه وهو يلخصه ، وان يكتبه على ورق الآلة الناسخة فى وقت واحد . وهى اربعة جهود يجمعها ذكاء المعلم النابغة فى لحظة واحدة : جهد القراءة وجهد التلخيص وجهد الترجمة وجهد التحضير

الا أن السرعة فى الفهم والترجمة الصحيحة اهون مافى هذه الملكة النادرة

واقول النادرة وينبغى ان اقول الوحيدة فى تاريخ الآداب العالمية . فاننى لا اعرف فى آداب المشرق أو المغرب نظيرا للمازنى فى هذه الملكة التى اسميها بعبقرية الترجمة

انه يترجم النثر فى اسلوب كأسلوب الجاحظ وخالد بن صفوان . ويترجم الشعر في أسلوب كأسلوب البحترى والشريف ، ثم لا يخرم فى ترجمته حرفا من اللفظ ولا لمحة من المعنى .. بل يأتى بالمقالة المترجمة أو القصيدة المترجمة فى طبقة التأليف أو أعلى وابلغ ، ويعرض لك قصيدة الشاعر الاوربى ـ العالمى ـ بلغة عربية لا يزيد عليها صاحب القصيدة شيئا لو أنه نظمها فى لغة الضاد

ولا يقل شعره المطبوع عن شعره المترجم فى مزايا البلاغة والصقل والسلاسة ، ومن دواعى الاسف الشديد انه هجر الشعر وانكر على نفسه الشاعرية ، ومن دواعى الاسف الشديد أن عبقرية الترجمة التى انفرد بها لم تجد من ينتفع بها العالم العربى ويغنى الفقيد بعمل من

أعمالها الخالدة من كتابة الضرورة أو كتابة الظروف ..

ولا تقل عن ملكة الترجمة فيه ملكة اخرى من أنفس الملكات التي يرزقها الاديب والفنـــان ، وهي ملكة الملاحظة الدقيقة والتعبير السهل القريب عما يلاحظـه من المشاهدات والمناظر عن عرض أو عن روية

كنز زاخر ..

ونعود فنقول اننا نأسف أشد الاسف لان الفرص لم تهيىء له أسـباب النفع بهـذه الملكة في غير الاعمـال الصـحفية العـاجلة ، ولو تيسرت له موارد العيش واستطاع أن يتفرغ للتأليف الذى يريده لامتع النـاس بالعجب العجاب فى هذا الباب ، ولظفر العالم العربى بثروة المازنى كلها ، وما أنفسها وما اجلها اذا كان هذا الذى اتسع له وقته وتهيأت له أسـبابه جد نفيس جليل

كنز زاخر ضيعنا منه ما ضيعنا وهو فيما بيننا . فان تعلمنا شيئاً من العبر فلنتعلم كيف نصون ما أبقاه فانه لخليق أن يبقى بقاء العربية فى حرز أمين، وحسب العربية من فضله على أدبها انه أثبت لها القـــدرة على مجاراة أحدث الآداب بأسلوبها الصحيح السليم

ذكريات مع الذكريات

وأى ذكريات ؟ وكم من ذكريات ؟ وما اكرمها ذكريات ...

انها ذكريات الصبا فى بواكيره

انها ذكريات الاخوة فى حماسة الدعوة الاولى الى الراى والمذهب

انها ذكريات المشاركة فى الجهاد الوطنى على خلاف أو على لقاء

انها ذكريات العطف المتبادل والفكرة المتجاوبة فى جميع تلك الحالات (١)

ومهما يكن من معرفة عامة يعرفها القراء عن أديبهم المازنى ، ففى مجال تلك الذكريات أحاديث لا تحصى..

لكن هذه « الشخصية » المحبوبة : شخصية ابراهيم الكاتب وشخصية ابى خليل الصديق – تعفينى من كل حيرة فى موقف الاختيار بين تلك الذكريات ، ولا فرق فيها بين ما يقال انه شخصى خاص وبين ما يقال انه

---

(١) هذا الفصل كتبه العقاد بمناسبة ذكرى المازنى بعد سنوات من وفاته .. أما الفصل الاول فقد كتبه حين وفاته

ترجمة من حق النقد وحق التاريخ . وهكذا تكون « الشخصيات » التى يقول النقاد انها « مطبوعة فى الصميم » كل ما تعمله او تقوله خاصة يعين الناقد والقارىء على فهمها وتفسيرها فى مجالها الفسيح الذى تتصل فيه بعالم القلم ، وعالم التاريخ ..

لقد كان المازنى الذى يسخر من كل شىء ، ويخرج لسانه لعابرى الطريق هو المازنى الذى يسمى كتبه فى أخريات حياته بـ « قبض الريح » و « صندوق الدنيا» و « عالماشى » ، و « حصاد الهشيم » ، وهو المازنى الذى أعجبه ذلك الشاعر الذى أوصى انيكتب علىقبره هذان البيتان :

ايهـا الزائر قبـرى   اتل ما خـط أمامك
هاهنـا فاعلم عظـامى   ليتهـا كانت عظامك

كأنه يخرج لسانه من تحت التراب لزائر القبر الذى يقرأ ، وهو غافل ، ما يحدثه به الدفين المزور

فى كل ذكرى من تلك الذكريات الشخصية صورة من صور الدعابة التى لا يفوتها الإحترام ، والاستخفاف الذى يعرف مواطن الاعجاب والتقديس

وكان صديقنا المرحوم عبد الرحمن شكرى يقول له فيما بيننا بالانجليزية .. حين نسمع تعليقاته على ما نقرأ شعرا ونثرا : ان فيك يا ابا خليل لشيئا ملكيا عفريتيا بلا افتراق Angelic Jmpish وكان هو ـ طيب الله ثراه ـ لا يرفض هذا الوصف ، ولكنه .. يجيب عليه تارة اجابة الملائكة ، وتارة اجابة العفاريت!..

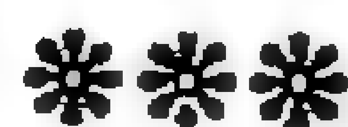
وكان موضع العجب من أمر صديقنا المحبوب المهيب انه ـ على دعابته ـ لم يكن يفقد احترام عارفيه

على اوفاه ، وانه مع استخفافه لم يكن يستخف قط بمواضع التقديس والاعجاب

كان رحمه الله قصير القامة يظلع فى مشيته ، وكان يدرس التاريخ والترجمة فى مدرسة ثانوية اشتهرت بتلاميذها المتمردين ، لانها كانت مدرسة أهلية تجمع الذين تجاوزوا السن فى المدارس الاميرية أو طردوا منها لسوء السلوك ، ولم يكن أيسر من اجتراء هؤلاء على مدرس شاب قصير القامة يظلع فى مشيته ولا يبالى كثيرا بزيه ، ولكنه كان على نقيض ذلك مهيبا عندهم الى حد المخافة ، وكأن لقب « تيمورلنك » هو اللقب الذى اختاروه له من دروسه فى التاريخ !

ولعله كسب منهم هذا اللقب بعد امتحان او امتحانين ، ففهموا بعد الامتحان أى رجل هذا الهزيل الضئيل الذى حاولوا — على غير معرفة به — ان يجترئوا عليه ، لانهم فهموا انه رجل يملك زمام نفسه فلا يستعصى عليه أن يملك زمام الاخرين ، وانه رجل كفؤ لعمله على مثال لم يعهدوه بين عشرات المدرسين

وبهذه الكفاءة ، وتلك الارادة ، أصبح مدرسهم الهزيل « تيمورلنك » زمانه المخيف ، والمحبوب



ولم تكن المدرسة هى الساحة الوحيدة المختارة لهذه الدعابات ، بل كانت كل مفارقة يلقاها على ثقة بالجواب السريع بفصل من هذه الفصول

دخل الى صيدلية يشترى حامضا من الحوامض السامة التى تستخدم فى المنازل للتطهير ، وتقضى التعليمات على الصيادلة ان يسألوا من يشترى المادة

السامة عما يستعملها فيه . فسأله الصيدلى حسب التعليمات

ـ لماذا تريدها يا أستاذ ؟

فلم يجب الاستاذ ، بل نظر الى الصيدلى ورفع ابهامه الى فمه متلمظا كأنه يقول :اشربها

وكان الصيدلى ظريف كفؤا لزبونه الساخر ، فناوله القارورة وهو يقول :

ـ قدحان مرة واحدة كفاية يا استاذ !

***

وقد كانت دعابة صديقنا الودود سلاحا ماضيا يدفع به الاذى ، كما كانت سلاحا حاضرا يطرف به الاصدقاء . وكنا جميعا «المازنى وشكرى وانا » عرضة للاساءات السخيفة نتلقاها ممن هب ودب من انصار القديم ، ومنهم من كان يتميز غيظا من دعوتنا ،ويتحرق شوقا الى الفرصة التى تهيىء له سببا من الاسباب للغض من هؤلاء « الطالعين فيها » .. كما كانوا يصفوننا فى لغو الحديث

ولقد ثقلت هذه الاساءات على مزاج أحدنا ـ شكرى ـ فسئم لقاء الناس وانطوى على نفسه بعيدا عن المجامع والمجالس ، الا من تدعوه ضرورة العمل الى لقائه ..

أما « ابو خليل » فقد كان بدعابته الحاضرة امضى سلاحا من أن يتراجع امام المسيئين أو امام الاساءات، ولم يكن اخبر منه بأساليب الانتقام العاجل ممن يخيل اليه انه سيخنقه بالفصول الباردة: الفصول التى تحرج

المقصود بها ، لانه لايدرى كيف يحتج عليها ولا كيف يسكت عنها

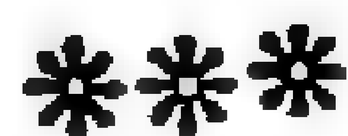


خرجنا ذات مساء الى ضاحية القبة نتنسم هواء الربيع ، وكان لنا صديق يسكن فى تلك الضاحية . فلما مررنا به وجدناه بين فئة من صحبه وجيرانه على باب داره ، فلبينا دعوته ، ولما يكد يستقر بنا الجلوس .. واذا بواحد من الحاضرين يتصدى لتوزيع السجائر ويتخطانى ويتخطى المازنى عمداً ليسىء الينا بهذا الاهمال .. وقبل أن أفرغ من سؤال نفسى : ماذاعسى ان يصنع ابو خليل مع هذا الذى خيل اليه انه يفحمنا باساءته ، وانه حر فى افحامنا بها لانه حر فى سجائره يحيي بها من يشاء ويهمل من يشاء ! .. اذا بالدعابة الحاضرة ـ تحت الطلب ـ تسعد ابا خليل ، فيمد يده الى علبة السجائر ، ويذهل صاحبها فيسلمها اليه ، ويأخذها أبو خليل فيناولنى سيجارة ويتناول اخرى ، ويضع اثنتين على المنضدة ، ويقول لذلك المخلوق المذهول :

ـ هاتان السيجارتان للدورة الاتية .. لاننا لا نريد أن نراك مرة اخرى ..

ثم يرفع رأسه كانه تنبه من سهوة عارضة ، ويقول فى غير اكتراث :

ـ لا مؤاخذة .. ! حسبتك خادم الدار ، ولولا ذلك لطردك صديقنا الكريم



ولقد شهد هذه الفصول المازنية كثيرون من صحبه

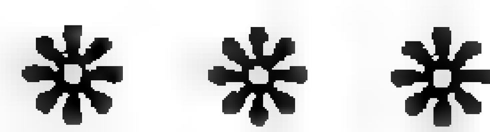
الاقربين وممن لا يعرفهم بغير تحية الزاملة فى العمل أو تحية الطريق ، فلم يعرضه فصل من هذه الفصول قط لفقدان الاحترام ، ولم يعرضه هو ـ بينه وبين نفسه ـ لفقدان الشعور بالاحترام ، وكان له قدره المرعى فى كل بيئة نزل فيها ولو نزول الطارىء الراحل ، وقد كانت لهذا المستخف الساخر غضبته التى لا يغضبها الكثيرون من الجادين الذين لا يعرفون السخرية والاستخفاف . وإذا مست كرامته فلا مزاح ولا هوادة . وقد استقال من وظيفته الحكومية يوم كانت الاستقالة من «خدمة الميرى» شبيهة بالانتحار ، لانه لم يعط حقه من التقدير بين قرنائه فى الديوان

وفهم هذا الازدواج المحكم فى طبيعته بين فلسفة الاستخفاف وشعور الاحترام ليس بالامر العسير على الذين عرفوه وعاشروه : ان «اللامبالاة» عنده لم تكن نقصا فى الشعور ولم تكن وليدة النظرة السلبية الى الحياة، ولكنها كانت عنده وليدة للشعور المفرط وللنظرة الموجبة الى العاطفة الانسانية فى شعابها التى لاتحصى :كان ملء النفس عطفا على الام ،وعلى الابن ،وعلى الاخ ،وعلى الزوجة ، وعلى الصديق ، كان امتلاء نفسه شعورا بالواقع .. هو سر هذا الضيق بالجد المتصل فى حالة بعد حالة واحساس بعد احساس ، وكانت نظرته المثالية الى غير الواقع المتكرر هى التى جعلته يعطى ما لله لله وما لقيصر لقيصر كما قال السيد المسيح : أو هى التى جعلته يعطى للواقع ما للواقع وللمثل الاعلى ما للمثل الاعلى ، دون أن يمزج بينهما فى كل حادث وكل يوم .. فاذا جاء دور المقارنة بين الواقع الانسانى وبين الكمال المنشود فهناك تتفتح الابواب للسخرية بجميع مصاريعها . ولكنها سخرية عاطفة كسخرية الاب الذى هو اعطف

الناس على ضعف وليده ، وأوسعهم رجاء له فى الكمال

بهذه النظرة المطبوعة الى الواقع والى المثل الاعلى استطاع ان يعرف السخرية بالواقع فى حينه ، وأن يعرف الغضب للقداسة التى نرفعها الى سماء المثل العليا فى كل حين

فمن غضباته التى نذكرها تلك الغضبة التى أشرت اليها فى معرض الكلام على تأليف العبقريات ، وأولها « عبقرية محمد » صلوات الله عليه



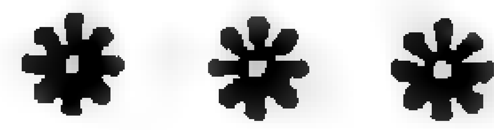
كنا نزور ساحة المولد النبوى على مقربة من مسكنى بالعباسية ، فى جولة من جولاتنا التى كنا نسميها بالتفتيش الفنى على احياء المدينة .. فذكرنا مقال البطولة النبوية فى كتاب الابطال للفيلسوف الايقوسى توماس كارليل . كان يعرف اعجابى بما يكتب ذلك الفيلسوف . فقال :

— ولم لا تكتب انت ذلك المقال من جديد ونحن أولى بهذا الواجب من كتاب الغرب ، مهما يكن من اخلاصهم فى تقدير البطولة المحمدية ؟

وكان فى الجماعة فتى متحذلق يحسب ان حرية الفكر انما تقاس بمقدار التطاول على المقدسات الموقرة ، وعلى مقدساتنا نحن دون سائر العالمين .. ففاه بكلام هازل يشير به الى السيف والى الزوجات الكثيرات .. وما راعنا الا المازنى الوديع الساخر ينتفض غضبا كأنما لمسته لفحة من وقود مضطرم ، والا حركة يوشك ان يتبعها عمل وهو يقول تعقيبا على صيحتى فى وجه ذلك الدعى المتحذلق : كلا . كلا . ان هذا الهجر لا يثبت الحاجة

الى الضرب بالسيف فى نشر الدعوات . انه ليثبت الحاجة الى ما هو أصلح من ذلك لداء البذاءة والقحة : انه الضرب بالحذاء توفيرا للسيف عن مثل هذا المقام .. !

على أن الزمن قد كان يصنع صنيعه فى هذا المزاج الذى وفق هذا التوفيق العجيب بين الجد والقداسة ، وبين السخرية و « اللامبالاة » فى عالم الادب الخالد ، وفى عالم المعيشة العارضة من يوم الى يوم . فكان من صنيع الزمن انه لم يزل يوسع المسافة بين الواقع والمثل الاعلى عاما بعد عام ، حتى كاد أن ينتهى بها الى الطرفين المتقابلين . فلم يكن للواقع عنده فى أخريات أيامه نصيب غير التحدى والسخرية والاستخفاف ، ولم يكن فيه غير باطل الاباطيل ، وغير النظرة « عالماشى » ، وغير التفويت والاغضاء .. ولم يكن فى أكثر الاحايين أهلا للمصالحة بينه وبين المثل الاعلى فوق عرشه الرفيع ، من وراء المنظور والمأمول

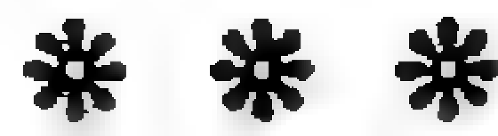


وسكنت فى طويته قوة النضال حتى عاد بشىء من الندم الى نضاله القديم ، وحتى استكثر الرد على من ينكرون حقه ويجحدون فضله حيث هو احق واجدر بالاعتراف ، واحق واجدر بالفضل والتفضيل

فما كان انكاره لشعره — فيما أعلم واعتقد — الا تحديا منه للاعجاب والاستحسان ، ممن يظنون انهم ينعمون عليه باعجابهم واستحسانهم ويسلبونه نعمة يتكالب عليها بما ينكرونه عليه ، او يبخسونه ، مؤمنين ومكابرين متعنتين ..

وفى هذه الفترة كان يقول ما يقوله وهو لا يبالى ان

يحسب جوابه من الجد او يحسب من المزاح : انني فى مصنع النجارة الفنى أعطيكم ما تطلبون : وما بالى أعطيكم كرسى الصالون وانتم تطلبون كرسى المطبخ ؟ أو أسومكم ثمن الدولاب وانتم تبذلون ثمن الصندوق الصغير . وخدعته قبل أن تخدع غيره سهولة الكتابة عليه ، فنسى أن السهل الممتنع هو الذى يستطيعه مثله بلا مبالاة .. يطلبه سواه ، بكل ما فى وسعه من مبالاة ، فلا يقدر عليه



كان يجلس الى المرقم « التايبرايتر » ليكتب القصة المطلوبة ، أو المقال المطلوب ، ساعة الطلب بغير تحضير .. وكان يكتبه فى جلسة واحدة ويختمه مع ختام الورقة الاخيرة ، فيحس القارىء انه لم يقل كل ما عنده ، ولكنه يحس كذلك أن الذى قراه كاف ، واف ، أو يزيد على الكفاية والوفاء

وهنا ـ ايضا ـ نعلم الفارق بين « اللامبالاة » السالبة و « اللامبالاة » الموجبة التى تغنيها القدرة عن جهد المبالاة ..

وربما كانت سهولة الكتابة على المازنى تقنعه هو نفسه بأنه غير مكترث بما يكتب ، ولكنه ينسى أن هذا الذى يكتبه بغير اكتراث يحاوله المكترثون جهدهم فلا ينتهون اليه . واحسب اننى قرأت له المقال الذى كان يكتبه فى نصف ساعة ، وقرات له من قبل ذلك مقالات كان يكتبها ويعود اليها فى ساعات ، فكان أجود ما كتبه من ثمرات السرعة البالغة ، سرعة الكاتب الذى يقول انه « لا يبالى » ، ولكنه يبلغ غاية الشوط من « مبالاة » الآخرين ..

وهذه هي عبقرية المازني التي لا تجاري : عبقرية تعطي وقائع اليوم حقها ولا تنسى حقوق المثل العليا في سماواتها ، وهي على هذا تعطينا نموذجا منها في النكتة مع التلميذ والصاحب وعابر الطريق ، كما تعطينا نموذجا منها في ثمرات الفن والادب ، وتشعر وهي تستخف وتسخر كما تشعر وهي تقدس وتجد ، لانها فيما « تباليه » وما « لا تباليه » ، انما تصدر عن فرط شعور ، وعن تمييز بين مواطن النقص ومواطن الكمال

عبد الرحمن شكرى

عرفت عبد الرحمن شكرى قبل خمس وأربعين سنة (١) فلم اعرف قبله ولا بعده احدا من شعرائنا وكتابنا اوسع منه اطلاعا على أدب اللغة العربية وادب اللغة الانجليزية وما يترجم اليها من اللغات الاخرى

ولا أذكر أننى حدثته عن كتاب قرأته الا وجدت عنده علما به واحاطة بخير ما فيه ، وكان يحدثنا أحيانا عن كتب لم نقراها ، ولم نلتفت اليها ، ولا سيما كتب القصة والتاريخ ..

وقد كان مع سعة أطلاعه صادق الملاحظة، نافذ الفطنة، حسن التخيل ، سريع التمييز بين ألوان الكلام ، فلا جرم ان تهيأت له ملكة النقد على أوفاها لانه يطلع على الكثير ويميز منه ما يستحسن وما يأباه .فلا يكلفه نقد الأدب غير نظرة فى الصفحة والصفحات يلقى بعدها الكتاب وقد وزنه وزنا لا يتأتى لغيره فى الجلسات الطوال

لم يسبقه احد فيما اذكر الى تطبيق البلاغة النفسية ــ السيكولوجية ــ المستمدة من أدب الغرب على ما يقرؤه

(١) توفى عبد الرحمن شكرى يوم ١٥ ديسمبر سنة ١٩٥٨ م

من شعر الفحول فى اللغة العـربية . ولعله اول من كتب فى لغتنا عن الفرق بين تصوير الخيال Immagination وتصوير الوهم «Fancy» وهما ملتبسان حتى فى موازين بعض النقاد الغربيين . ومن ذلك التفرقة بين تشبيه الشفق والفجر بدم الشهداء فى قول المعرى :

وعلى الافق من دماء الشهيد
ين على ونجـــله شــاهدان

فهمــا فى اواخر الليل فجرا
ن وفى أولياته شـــــفقان

وبين تشبيه ابن الرومى للأصلع حيث يقول :

فوجهـــه يأخذ من راســـه
أخذ نهار الصـيف من ليله

فالاول وهم فى خاطر المعرى ، لا يلتفت اليه أحد غيره لو لم يذكره ، والآخر خيال مطبوع يخطر لكل بديهـــة مصورة تتقن من التشبيه مايتقنه الشاعر . وقد كان يشمئز من بيت الوأواء الدمشقى :

فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت
وردا وعضت على العناب بالبرد

ويقول أن نسبته الى يزيد بن معاوية بلاء فوق طاقته فلا نجمع عليه « بين قتل الحسين وقول هذا الشـــعر الذى لابأس به اذا أريد للفكاهة والعبث لا للغزل »

وكذلك كان يحسب من المزاج الغث قول الانبارى :

ولمــا ضـاق بطـن الارض عن أن
يضـــم علاك من بعـــد الممـــات

اصاروا الجو قبرك واستعاضوا
عن الاكفان ثوب السافيات

وهو معدود من عيون الرثاء عند من ينظرون الى اللفظ ولا ينظرون الى بواعث الرثاء من النفس الانسانية . فمثل هذا الرثاء يقال للمكايدة او للعبث ، ولا ينم على حزن دخيل ، ولا تقدير مفيد

شكرى الشاعر

ولم يكن امتع من الاستماع الى شكرى وهو يقرأ القصيدة العربية او الاوربية ويعلق عليها بيتا بيتا امثال هذه التعليقات .. وما كتبه من النقد فى مؤلفاته قطرة من بحر من تلك الآراء النفيسة التى كان يرسلها عفو الساعة ولا يعنى بتقييدها

وقد نظم شكرى سبعة دواوين من الشعر غير القصائد التى لم ينشرها وتمتلىء بها كراسة فى حجم ديوانين آخرين او اكثر ، فمن تخير من هذه الدواوين المنشورة وغير المنشورة امكنه ان يجمع منها زبدة من اجمل الشعر تضارع صفوة القول فى كلام كبار الشعراء . وقد كانت له قدرة على رياضة النظم كما نرى فى ترجماته لبعض رباعيات الخيام . فان الترجمة ادل على قدرة النظم من التاليف لتقيد الناظم بالمعانى المنقولة التى لا يتصرف فيها ، فقد احسن فيما نقله من الخيام غاية الاحسان حيث يقول :

هاج للقلب جدة الحول اشجا
نا لديه قديمة العهد

تانس النفس بالتفرد والوحد
ة فى ظل عيشه الرغد

حيث تحكى الازهار راحة موسى
في بيـــاض النـــوار والورد
ولهـــا نفحـــة كأنفـــاس عيسى
باعثـــات للميت من لحـــد

أو يقـــول :

ارم قد عفت وصـــوح قدما
فى رباها الربيـــع والزهـــر
كأس «جمشيد» قدمضت حيث لاحيـ
ـث لدنيـا من امرهـا خبـر
لـكن الـكرم لا يزال جـوادا
برحيـــق حبـــابه درر
ولنـا منـزل على الروض فينـا
ن تروى أزهـــاره الغـدر

أو يقـــول :

هات لى الـكأس يا حبيبى دهاقا
لا تطع عاتبـا كئـوس العقـار
ان ثـوب الوقـار ثـوب شـتاء
ليس يغنى فى الصـيف ثوب وقار
اغض عنـك الوقـار وارم به فى
جمـرات للقيظ مثـل النـار
انما العيش طـائر بين غصـنيـ
ـن فخـذه مآخـذ المستطار

* * *

وهذه طبقة من الطلاوة والجزالة من سلست له فى مترجماته كانت فى مبتكراته أسلس وأوفر . وقد توافرت لشكرى مقطوعات وأبيات فى هذه الطبقة من بلاغة الأداء .

وكان خليقا ان تتوافر له فى كل ما نظم لولا ان التفاوت طبيعة فى اعمال العباقرة والموهوبين ، ولولا انه كان قليل الاحتفاء بالمراجعة والتنقيح يرسل شعره ارسالا كما قال :

ارمى بشعرى فى حلق الزمان ولا
أبيت منه على هم وبلبال

ولكنه ـ على قلة احتفائه بالتنقيح ـ قد خلص له من جيد الشعر ما يسلكه فى عداد المجددين من نخبة الشعراء

وله عدا ذلك فى ميدان القريض فضل الرائد الذى سبق زمانه فى عدة حسنات مأثورات فهو من أسبق المتقدمين الى توحيد بنية القصيدة والى التصرف فى القافية على أنواع من التصرف المقبول ، فنظم القصيدة من وزن واحد ومقطوعات متعددة القوافى ، ونظمها مزدوجات وابياتا من بحر واحد بغير قافية ملتزمة ، وآثر فى تجاربه الاخيرة أن يلتزم القافية مع تعديدها فى مقطوعات القصيدة الواحدة ، وتسنى له فى جميع هذه المناهج ان ينظم الكثير من القصص العاطفية والاجتماعية قبل ان يشيع (١) نظم القصص فى أدبنا الحديث وله فيها قصيدة اليتيم التى يقول فيها :

وما اليتم الا غـربة ومهـانة
وأى قـريب لليتيم قـريب ؟

يمر به الغلمان مثنى وموحـدا
وكل امرىء يلقى اليتيم غريب •

يرى كل أم بابنها مسـتعزة
وهيهات لا يحنو عليـه حبيب •

---

(١) لعل شاعر الاقطار العربية خليل مطران قد سبقه الى ذلك . ففى ديوانه الذى صدر فى سنة ١٩٠٨ قصص شعرية نظمت قبل سنة ١٨٩٧ م

اذا جاءه عيـد من الحول عاده
من الوجد دمع هاطل ووجيب
كأن سرور الناس بالعيد قسـوة
عليه تريق الدمع وهو صـبيب
عـزاءك لا يلمـم بك الضيم اننا
يتـامى ولـكن الشـقاء ضروب
فهذا يتيم ثاكل صـفو عيشه
وذاك من الصحب الكرام سليب

ونذكر هذه القصيدة خاصة لسبب غير دلالتها عـلى نماذج شعره في هذا الباب ، اذ كانت من اسباب وجومه الذي لزمه من مقتبل شبابه وكان من دواعي هذا الوجوم ان هذه القصيدة اختارها الاستاذ محمد امين واصف فـي كتاب من كتب المطالعة مستحسنا لها ، موصيا بحفظها ، من دون ان يذكر اسم صاحبها ، فكان هذا الاغفال مما آلـم الشاعر أشد الايلام لانه كان يفهم ــ كما قال لنا ـ ان يغفل ذكره لاستهجان شعره ، فاما ان يكون الاغفال حتما عليـه مستحسنا ومستهجنا فذلك كنود عجيب

ولقد كان بعض الانصاف خليقا ان يلطف من وحشـة الشاعر التي لازمته منذ بواكير شبابه ، ولكن التواطؤ على نكران فضله بين من يعرفونه ومن يجهلونه محنة لم يكن ليصبر عليها طويلا ، مع ما فطر عليه من الحس المرهف والملل السريع

ففي نحو العشرين نظم شكري هذه الابيات :
لقـد لفظتني رحمـة الله يافعـا
فصرت كأني في الثمانين من عمري
وحاول مني الهم صبرا فلم ازل
ادافعه حتى ابحت له صـدري

وانى لادرى أن فى الموت راحـــة
وأجنبـــه حتى كـــأنى لا أدرى
ولولا تقى لا يملك اليأس صرفه
لاوردنى يأسى على المسلك الوعر

وقد عاش بقية عمره بهذه الوحشة وهذا الملل وهـــذا التردد بين اليأس والرجاء لا يدرى ما يدافعه من خيبة فى حيـــاته الادبية ولا من خيبة فى حياته الوجدانيـــة ، وكلها اثقل وامض من ان تطاق فى حالة الســليم الجليد فلما اطبقت عليه العلة الوبيلة ـ علة الشلل ـ ران عليه وجوم الابد قبل الهرم وقبل الموت فترك الدنيا ومن فيهـا وما فيها ، ولم يحفل حتي بأن يقول انه تركها غير مأسوف عليها ..

شكرى الناثر

والشاعر الناقد (شكرى) كاتب ناثر على اســلوبه ومنهجه فى السهولة والسلاسة وقلة الاحتفال بالتنقيح والتجميل ، لكن نثره شعر ، ونقده لا تقرأ مثله لشـــاعر غير ناقد أو لناقد غير شاعر

ومن مؤلفاته النثرية كتاب « حديث ابليس » وكتـــاب « الاعترافات » وكتاب « مذكرات مجنون » عدا فصـــوله المجموعة فى كتاب « الصحائف » وكتاب « الثمـــرات » وطابعها الغالب عليها جميعا انها وحى نفسه الذىلايشبهه فيه كاتب يطرق هذه المعانى والاغراض ، فهى «شكرية» فى كل صفحة من صفحاتها وكل فقرة من فقراتها يكاد يميزها اللفظ المسترسل ،كما يميزها لون الفكر والوجدان

يقول من فصل له عن هيبة الحياة وهيبة الموت :

« اننا اذا اغرينا الناس بأن لا يهابوا الحياة خفنـــا ان

يغريهم ذلك بأن يغالوا في حب الحياة حتى يجبنوا ...
واذا نحن اغريناهم بأن لا يهابوا الموت خفنا ان يدفعهم ذلك الى كره الحياة والرغبة فى التخلص منها فخليق بنا ان نحثهم على أن يجعلوا بين الرهبتين موازنة كي لا ترجح احداهما . ولكن الانسان لا يملك صحة نفسه وسقمها.. فان وراء رغبته فى صحة نفسه عوامل لا يملك لها دفعا مثل الوراثة والتربية والبيئة فاذا تحالفت هذه الاسباب على اسقام نفسه بأن تجعله جبانا امام الحياة ، او جبانا امام الموت ، كان ضحية لها ولا تنفعه نصيحه الناصحين شيئا »

وخذ ما شئت من صفحاته تجد فيها ما تجده فى هذه الملاحظة من استيحاء شعوره وفكره والاستفادة من مراقبته لنفسه ولغيره . ثم ارسال التجربة على الورق كما يرسل الحديث فى مجلس السمر عفوا بلا كلفة ولا مراجعة بين مصدره من النفس ومورده من التعبير

أن « عبد الرحمن شكرى » شاعر ناثر نسيج وحده فى فنه . ومن توحده فى هذا الفن اننا نتلقى تعبيره من « شخصية » فذة لا يحكيها غير صاحبها ، وان جال به الفكر اللماح والاطلاع الواسع فى كل مجال

ولقد عرف الناس معرفة أحزنته اشد من حزنه لجهلهم اياه،فان عادوا فعرفوه فلعلهم يرضون أنفسهم بارضائهم تذكراه ..

هؤلاء حادثتهم

نشأت وليس أحب الى من الاطلاع على تراجم العظماء ؛ ولكننى على فرط شغفى بالاطلاع على تراجمهم لم اشعر قط نحوهم بذلك الشعور الذى يغلب على كثير من الناس ، وهو شعور الميل الى رؤيتهم والاتصال بهم ، ان كانوا من الأحياء . وقد يتفق لى ان أقرأ عن أحدهم او اقرأ له كثيراً من الأوصاف والآراء ، ثم يصل الى مصر وتتاح لى فرصة لقائه ، فلا اكره لقاءه ولا اخف اليه ، ولكننى استطيع أن أفرض أنه لا يزال فى بلاده دون أن يكلفنى هذا الفرض اقل عناء

اننى أحب غاندى وأكبره ، وقد عبر بمصر فى طريقه الى لندن ، وأرادت صحيفة البلاغ أن تندبنى للقائه والتحدث اليه ومصاحبته فى السفر من السويس الى بور سعيد ، فلم أنشط لهذه الرحلة ، ولم أشعر بأننى أزداد معرفة بالرجل او اكبارا لقدره اذا قضيت معه هذه الساعات

ومرجع ذلك فيما أظن الى أسباب شتى : منها أننى تعودت أن أرى العظماء والمشهورين فى غير « هالتهم » التى تضفى عليهم ما تضفى من الغرابة ، وتثير فى نفوس

الناس نحوهم حب الاستطلاع أو حب الاستشفاف من وراء الظواهر والمراسم . وقد تعودت ذلك لأنني نشأت فى أسوان حيث كنا نرى فى كل شتاء زوارا من الملوك وأولياء العهود والنبلاء وكبار القادة والساسة ورجال الاعمال ولكنا نراهم على ابسط مايكونون من البساطة ، فيرتفع عن ابصارنا غشاء الغرابة الذى يحيط بهم ويغرى الانظار بالتطلع اليهم ، ونقدرهم من بعيد كما نقدرهم من قريب

كانت الصحف والانباء البرقية تتحدث عن ملنر وكتشنر ، وكان اهل أسوان يرون ملنر فى قهوة بلدية اكثر روادها من الحمالين والتراجمة والاكارين ويرون كتشنر على دكة خشبية امام بيت من بيوت مشايخ العرب

وكان علماء الارض الذين تنقل مجلات العلوم آراءهم وبحوثهم وتعتمد عليهم الحكومة فى بعوث الكشف والتحقيق يفدون الى اسوان أحيانا فيزوروننا فى المدرسة ونزورهم ، ونألف أن يكون كبار العلماء أناسا مألوفين

ذلك سبب من أسباب

أما الاسباب الاخرى فمنها حب العزلة الذى ورثته وطبعت عليه ، ومنها اننى اتطلع الى معرفة العظمة حقيقة لاصورة ، واحسب ان رؤية لحظة او لحظات لا تعرفنى بالعظيم ان لم تعرفنى به قراءة يوم أو أيام

لهذا لم أنشط كثيرا الى لقاء مشاهير العالم الذين تهيأت لى الفرص للقائهم ومحادثتهم ، ولم اتوسل بعملى فى الصحافة الى محادثة أحد منهم ، الا لغرض غير حب الاستطلاع أو حب التقرب من ذوى الاخطار

فحادثت أحمد مختار الغازى ، وحادثت سعد زغلول وحادثت أميل لودفيج ، وكان باعث الحديث فى كل مرة

سببا غير حب الاستطلاع من جانبى أو ارضاء المستطلعين من جمهرة القراء

احمد مختار باشا الغازى

ومختار الغازى كما يعلم قراء التاريخ القريب بطل من الابطال العسكريين الذين اشتهروا فى حروب روسيا والدولة العثمانية

كانت له شهرة عالمية ومكانة موقرة وارادت الدولة العثمانية ان تنيب عنها فى مصر مندوبا ساميا ملحوظ المكانة ، ليستطيع بمكانته ـ فقط ـ أن يوازن مركز المندوب البريطانى بما فى يديه من السيطرة والنفوذ ، فاختارت مختارا لهذا المنصب ، وعرف فى مصر باسم القوميسير

ولم يكن له عمل فى السياسة المصرية ، بل كانت كل أعماله من قبيل التشريفات وحضور الصلاة فى يوم الجمعة مع امير البلاد

ولكنه كان يسأل :« ماذا تعمل فى مصر ؟ » . فكان يقول : « أننى احتجاج حى على وجود الاحتلال »

ولما خطر لى ان احادثه كان هذا الخاطر فى الواقع « شيطنة شباب » .. لاننى اردت ان انقل باسم هذا الرجل الجرىء كلاما يسمع منه ولا يسمع من غيره ، وكان المحمل المصرى قد تعرض يومئذ لهجمة من هجمات الاعراب فى طريقه الى مكة ، وكانت الجزيرة العربية ولاية عثمانية . فليس اجدر من القوميسير العثمانى بأن يسأل عما جرى فيها ، وبخاصة حين يجرى لاناس من الحجاج المصريين فى حماية فرقه مصرية

كان مختار الغازى ضئيل الجسم قصير القامة ، ولكنه كان مهيب الطلعة كأنما تشتعل فى عينيه نار متوقدة • فلما تحدثت اليه لم يتحفظ ولم يبال ان يقول كل ما عن له ان يقوله عن اهمال الانجليز للقوة العسكرية المصرية • ولا أذكر تفصيلات حديثه اليوم ولا يتيسر لى أن أبحث عنه فى مراجعه لنقله بنصه ، ولكننى اذكر انه قال : « ان الانجليز اهملوا جيش مصر ، واننى بقوة كقوة المحمل افتح الجزيرة العربية ! »

وكنت اكتب يومئذ فى صحيفة الدستور لصــــاحبها الاستاذ الجليل محمد فريد وجدى بك • فلما رويت له ما سمعت من الغازى ابتسم وقال : « انك لا تذكر حادثة الحدود •• فان كلاماً اقل من هذا الكلام قد اثار الانجليز على أمير البلاد • فكيف تظنهم يتلقون مثل هذا الحديث من رجل يتبرمون به وبمركزه فى الديار المصرية ؟ »

ونشرنا ما تيسر نشره يومذاك ، ولكنه على خفته بالقياس الى ما قيل قد اقام الدنيا واقعدها فى الدوائر الانجليزية، واحسبه كان من اسباب سعيهم الحثيث فى نقل الغازى والمساومة على مركزه فى الاستانة

سعد زغلول

وحديثى مع سعد زغلول خليق ان يشار اليه ، لانــه فيما اعتقد كان اول حديث لصحفى مصرى مع أحـــــد الوزراء المصريين

ونحن فى العصر الحاضر نفتح الصحف اليـــــومية والاسبوعية فلا يفوتنا حديث وزارى فى عدد من اعدادها المتلاحقة

لقد اصبحت محادثة الصحفيين المصريين لوزراء هــذا

انبلد مادة صحفية دائمة ، وموردا ميسورا لكل قاصد

ولكن صحف مصر قد عبرت فى آلجيل الماضى سنوات بعد سنوات ، دون ان يسمع فيها صوت « ناظر » من النظار كما كان الوزراء يسمون فى ذلك الحين

لان النظار كانوا فى عزلة عن الرأى انعام ، وكان الرأى العام فى عزلة عنهم ، فلا يجسر احد منهم على الافضاء بحديث عن سياسة « نظارته » الى جمهور المصريين

***

وعلمت ان سعدا رحمه الله ناظر ولا كالنظار ، وانه لا يبالى ما يباليه زملاؤه من غضب قصر الدوبارة اوغضب المستشار

فأردت ان احطم هذا السد بين الوزارة المصرية والامة المصرية ، وهمنى ان احادث سعدا على الخصوص لاننى كنت أعجب به واترقب لمصر نهضة وزارية على يديه ، وكان فى تلك الايام عرضة لحملة جائرة من بعض خصومه، وكنت اعلم انها جائرة · لانهم زعموا انه حارب الجامعة وهو الذى رصد لها عشرة الاف جنيه فى ميزانية الدولة ، وزعموا انه حارب التعليم باللغة العربية وهو الذى دفع الطلاب دفعا الى مدرسة المعلمين ، وجعل لهم مرتبـــات شهرية وهم فى سلك الدراسة ليخرج منهم اساتذةيعلمون الدروس باللغة العربية ، وزعموا أنه مالأ الانجليز على تقييد التعليم وهو الذى كان يطوف البلاد من أسوان الى رشيد لمحاربة الامية بتعميم آلمكاتب الاولية

فاتخذت من حديثى معه وسيلة لدفع هذه الشبهات بالاسانيد الرسمية ، وحصلت فعلا على تلك الاسانيد ، ورايته بعينى ما يثبت لى صدق ما ظننته فى عزيمة سعد

واحتفاظه بكرامته وكرامة منصبه ، لان المستشار العنيد ـ دانلوب ـ جاء يستأذن فى عرض اوراق عليه • ولم يكن مستشار آنجليزى يستأذن فى عرض اوراق • بل كان ينظر في كل مسألة بنفسه ويعرض ما يشاء من ذلك على الوزير للتوقيع

نشرت حديثى مع سعد فى شهر مايو سـنة ۱۹۰۸ بصحيفة الدستور ، ولم احادث سعدا باقتراح من الاستاذ الجليل صاحب الصحيفة ، ولكن الاستاذ الجليل من كتابنا القلائل الذين يعرفون حريه النشر ، وكثيرا ما خالفته فيما اكتب وانا يومئذ فى مطلع حياتى الصحفية ، وربما ذهب فى مسألة من المسائل الى رأى وذهبت الى غيره ، فلا يرى حرجا فى نشر ما اكتب كما أراه

اميل لودفيج

اما اميل لودفيج فلم يكن لقائى له عملا صحفيا ، ولا أنا أردت ان القاه لانشر ما يجرى بينى وبينه من الاحاديث ولكنه حضر الى القاهرة فأقامت له المفوضية الالمانية حفلة استقبال في دار وزيرها ، واحب ان يتعرف لهذه المناسبة الى اناس من المشتغلين بالادب والدعوة الفكرية من المصريين فكنت احد المدعوين

وتصافحنا فى مزدحم من الاجانب والمصريين والرجال والسيدات • فقال لى انه يود لو تلاقينا فى فرصـة اخـرى

وكان صديقى الاستاذ محمود الدسوقى سكرتيرا شرقيا للمفوضية الالمانية فدعانا معا الى اللقاء فى حجـرة من حجرات المفوضية وآثر لودفيج ان نتحدث على انفـراد واحسست من اسئلته الاولى انه ينزع فى مسـائل

المجتمع والسياسة نزعة اشتراكية معتدلة ، فقلت انني أوافق الاشتراكيين فى كل ما يؤدى الى تحسين احوال الفقراء والاجراء ، واخالفهم فى كل ما يؤدى الى حرمان الفرد حريته الفكرية والشخصية

فقال : « حسن · حسن » وكررها مرات

ثم احسست انه قد اطمأن الى بعد لحظات من الحديث وتبادل وجهات النظر ، لانه افضى الى بأصرح ما دار بينه وبين المصريين والاجانب من الاحاديث العامة فى المسائل الوطنية والعالمية

ثم سألنى : « عندكم فى مصر قوة تقدم ، وقوة محافظة وجمود ، وقوة بريطانيا العظمى ، فأيها يكون له التغلب فيما تظن ؟ »

قلت : « أتسأل عن المدى الطويل أم المدى القصير ؟ »

قال : « بل عن المدى الطويل »

قلت : « سيكون الغلب لا محالة لقوة التقدم »

قال : « يسرنى ان اسمع منك ذلك »

***

واستطردنا الى الكلام عن مؤلفاته فوجدته اقلّ ما يكون رضى عن قصصه ، واكثر ما يكون رضى عن تراجمه ولا سيما ترجمة نابليون فيما اذكر ، فقلت له ايضاً : « يسرنى ان اسمع منك ذلك ، لانه هو الصواب فيما اراه »

وتركته وفى نفسى اثر من لقائه يقارب الاثر الــــذى استخلصته من قراءة كتبه ، وهو انه صحفى راق ، وان تواريخه وادبياته اقرب الى تبليغات المجلات او تعليقاتها ، وان كانت تفوق بعض ما يكتبه المتخصصون من البحوث

والدراسات ، لانه يكسوها طلاوة لا نجدها كثيرا فى تلك البحوث والدراسات

برناردشو فى أسوان

شمس ربيعية لم تعترف قط بالشتاء ، وأرض تحمل فى كل بقعة من بقاعها سمات التاريخ الذى يطوى الفصول والسنين ، ونيل خالد وقور يوحى اليك أن تقيسه بألوف العهود والاجيال ولا تقيسه بألوف الفراسخ والاميال ، وجبال من حولك كأنها أسوار تدور على صومعة ناسك لا تراه بالعينين ، أو كأنك تسمعه بأذنيك يقول فى سكينته الابدية : « ها أنا ذا لم احفل بشىء فى دنياك فماذا أصابنى على مر الزمن ؟ لا شىء .. فلاتحفل يابنى بشىء ! » ..

تلك هى أسوان فى هذا الشتاء ، وفى كل شتاء ، وتلك هى أسوان التى اقضى فيها بضعة أيام ، وفى وسعى ان أقول بضعة قرون حين تغمرنى بتلك الافاق التى لاتعرف حساب الايام ..

اجازة من عالم السياسة ، ومن عالمنا الصاخب فى غير طائل ..

وهل فى العالم من يستغنى عن هذه الاجازة من سنة الى سنة أو من حين الى حين ؟..

ساء حظه أن أستغنى عنها ، لانه لن يستغنى عنها الا اذا أضاع نفسه فيها

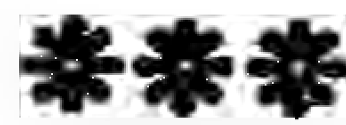
ولقد سن لنا الله سنة الاجازة من الحياة كلها فى كل يوم ، فهل نستغنى عنها فى هذا الشغل الشاغل الذى يبغض الحياة الى نفوس الاحياء ؟..

معاذ الله خالق النوم لنا « اجازة يومية » من الحياة ،

وليته خلق للحيوان « السياسى » بالطبع كما يقول ارسطو ـ اجازة قهرية ينام فيها عن سياسته .. فان غفلة النوم اروح له من هذه الغفلة الدائمة وهو سهران !..

وبحمد الله لازال اعرف هذه الاجازات ، وان لم اكن فى بطالة ..

الا يقدر اناس على الغفوة بعد الغفوة وهم فى وسط الحركة والضجيج ؟ .. بلى يقدرون ..



وفى وسط الحركة والضجيج ، بل فى وسط المعمعة كما كان يفعل نابليون على ظهر جواده ، أستطيع انأغمض عينى فى عالم الاحلام فأذهب فى أجازة اليوم أو الشهر او العام ..

وانني فى تلك الغفوة لايقظ ماأكون ..

لانني فى تلك الغفوة أهيم فى أحلام الشعر والفن والادب ، فلا تقوى معركة «المارن» نفسها على اخراجى من ديوان شعر أو صفحات كتاب أغلق « أبوابه » على !

وقلت : هى أجازة فى كتاب ، حين قلت لنفسى : « الى أسوان .. الى أسوان ! »

لقد كان كتابا حسنا من وجوه كثيرة ، واحسن مافيه أن كاتبه هو الفيلسوف « جود » وموضوعه هو الداعية المشهور « برناردشو » ..

فالكاتب أعظم من المكتوب عنه فى أكثر من ناحية واحدة، وهى على الاقل ناحية الفلسفة وناحية الاراء الاجتماعية..

وان شئت فقل أيضا من ناحية الاراء السياسية

والمبادىء الدستورية ، وهى اليوم شغل شاغل للصحافة والقراء !

***

بين دوى العجلات ، ودوى الدعوات ، فتحت الكتاب أطوى صفحاته والقطار يطوى الارض « كطى السجل للكتب » ، كما جاء فى القرآن الكريم ..

ولم تمض أربعون صفحة حتى وجدت نفسى على ابواب البرلمان من طريق اخر : طريق الاراء والنظريات ، لاطريق المعارك والازمات !..

صاحبنا الفيلسوف « جود » ينظر الى « برناردشو » نظرة التلميذ الي الاستاذ ، لان شو كان شيخا يقود الحركة الفكرية يوم كان « جود » طالبا ناشئا يتلمس طريقه فى مضطرب المذاهب والمعتقدات ..

وصاحبنا « جود » يرشح نفسه للنيابة عضوا اشتراكيا مع حزب العمال ، فيكتب الى « برناردشو » مستشيرا قبل الاقدام على هذه التجربة .. لانه أستاذه فى هذا الميدان ، ولانه زعيمه فى النزعة الاشتراكية قبل عدة سنين ..

واحسب اننى لو كنت فى موضع « جود » لما استشرت الداعية الكبير فى امر من الامور ، لاننى على ثقة انه يخالف كل ماتقترحه عليه . فلو كنت عضوا فى البرلمان واستشرته فى الخروج منه لسخر من اقدامك على هذه الخطوة التى لامعنى لها ! ولو كنت كاتبا واستشرته فى دخول البرلمان لسخر من اقدامك على هذه الخطوة التى لا معنى لها كذلك ..

لان كل اقتراح تعرضه على الداعية الساخر لا معنى له على الاطلاق !

فلا معنى اذن لان تعرض عليه اى اقتراح !

ولكن « جود » قد أراد أن « يسأل » على مايظهر مجرد سؤال .. ثم لايعول على الجواب ..

وهكذا سأل ، وهكذا جاءه الجواب الذى لاشك فيه ..

قال له « شو » ان الفلاسفة الذين دخلوا البرلمان غير قليلين ، ومنهم « ميل » و « برادلو » و « وب » الذى كان عضوا فى الوزارة .. فهل صنعوا شيئا هناك ؟

وقال له ان « تشرشل » لم يكن عضوا فى البرلمان حتى الحرب العالمية ، ثم ساقوه الى دائرة انتخابية أخلوها له، لانهم فى حاجة اليه ، فقد كان شيئا مهما قبل أن يرشح نفسه للنيابة البرلمانية

وقال له انه هو نفسه قد رفض النيابة يوم عرضوها عليه وكرروا العرض مرات ، ثم لم يندم قط على الرفض والاصرار ..

وقال له اخيرا : « ان ورق اللعب لايزال أمامكَ على المائدة ، فان شئت فجرب حظك والعب ورقك .. » ، ثم تواضع « شو » فى ختام خطابه ، لان التواضع من مثله رياضة محبوبة بين « الادعاءات الكثيرة » .. فقال فى شيء من الملل : « وهذه على كل حال اراء رجل كان ينبغى الان ان يكون ميتا لانه قد بلغ من الهرم أقصاه ! »

ولم ينثن « جود » عن عزمه بهذه النصيحة ، بل كتب الى أستاذه يبلغه انه ماض فى ترشيح نفسه ، فجاءته منه تذكرة بريدية يقول فيها : « حسنا .. انك سوف تتعلم على الاقل شيئا واحدا ، وهو أن تعرف كيف لاتعمل ! »

ثم شفعها بتذكرة اخرى قال فيها : « امض فىَ عزمك

بكل وسيلة .. فقد تحصل على تجربة مباشرة لا تخلو من فائدة للفلاسفة السياسيين »

وبعد هذه النصائح المختلفة عدل « جود » عن ترشيح نفسه لانه لم يرض عن أساليب الاحزاب فى الترشيح ، لا لانه عمل برأى الداعية الكبير !

***

تلك هى اجازتى فى هذا الكتاب ..

اجازة ، ولا اجازة ..!

أجازة لانها رحلة فى عالم الفكر والنظر ، ولا أجازة لانها تعود بنا الى السياسة فى بعض الطريق ..

وهى من هنا خبرة حسنة ، لاننى قد اكون فى اجازة والقراء « عاملون » !

وماالرأى بعد هذا فى نصائح « برناردشو » لتلميذه الفيلسوف ؟

ماالرأى فى تقديره لعمل الاديب ، وعمل العضو فى البرلمان ؟..

الرأى الذى لا يتسع فيه الخلاف ان الفيلسوف قد يصنع شيئا فى المجالس النيابية ولكنه ليس بخير مايصنع وانه اذا جرب مهنة الترشيح مرة بعد مرة خليق أن ينبذها بعد ذلك لا محالة لانها تهبط به الى المساومة الرخيصة والوعود الكاذبة ، ولا ترتفع به قيراطا واحدا فوق مستواه ..

ومالنا الآن ولهذه الظلمات ؟ ..

أن الشمس ساطعة باسمة ، وان مشاهد التاريخ ومعالم الخلود من حولنا قائمة دائمة !!

فهلم الى النور ..!

لسان الهلباوى

كان فى مصر قبل الثورة العرابية حزبان سياسيان : احدهما حزب محمد شريف باشا ، والاخر حزب احمد رياض باشا ..

وقد يخطر للقارىء العصرى أن تعريف الاحزاب بالاشخاص دليل على أن الحركة كلها شخصية لا علاقة لها بالبرامج السياسية ..

ولكن الواقع أن تعريف الاحزاب بالاشخاص كان سنة معروفة فى ذلك العصر حتى فى أعرق الامم البرلمانية .. فكان الحزبان المتناظران فى انجلترا يعرفان يومئذ باسم حزب غلادستون وحزب بيكنسفيلد ، ولم يكن ذلك دليلا على وحدة البرامج بين الحزبين ..

وقد كان الحزبان المصريان كذلك مختلفين فى البرامج، ولم يكن الخلاف بينهما مقصورا على الانتماء الى هذا الوزير أو ذاك الوزير ..

كان حزب « شريف » اقرب الى التجديد السريع ..

وكان حزب « رياض » اقرب الى المحافظة مع التقدم فى رفق وأناة ..

وكان الهلباوى بك ناقما على رياض باشا لسبب من

الاسباب فكان يطلق فيه لسانه ويكتب عنه مالا يرضيه..

فأمر عالما من رجال الدين ان يستجوب « الشيخ ابراهيم الهلباوى » تمهيدا لمعاقبته .. فبدأ العالم المحقق كلامه بتهديد الشيخ الناشىء ، واستطرد قائلا : ان ناظر النظار سيخرب بيتك ان لم تكف عن الحملة عليه ..

فضحك الشيخ ابراهيم وأجابه ساخرا :

ـ انه لايستطيع ..

فعجب العالم المحقق : كيف لايستطيع وهو ناظر النظار والحكومة كلها فى يديه ؟

وقال الشيخ ابراهيم : وليكن ناظر النظار أو أكبر من ناظر النظار : ليكن أمير البلاد .. ليكن خاقان البرين والبحرين ، بل ليكن « الله » جل جلاله . فانه لايستطيع أن يخرب لى بيتا ..

ففزع العالم المحقق ، وخيل اليه أن المسألة تنتقل من التمرد والعصيان الى الكفر بالله ، والعياذ بالله !..

فصاح بالشيخ الناشىء حنقا : أهذا الذى تعلمته من جمال الدين ؟..

وكان جمال الدين مظنة « الزندقة » عند بعض العلماء فى ذلك الحين ، فطاب للعالم المحقق أن يجد فى كلام التلميذ برهانا على زندقة الاستاذ ..

وكان الشيخ ابراهيم الهلباوى من تلاميذ جمال الدين .. فلم يكن أسرع منه الى رد التهمة الى المتهم ، وقال لصاحبنا : « بل هذا الذى تعلمناه منكم قبل أن نتعلمه من جمال الدين ! » ..

قال الرجل : اعلمناكم الكفر نحن ؟..

قال الفتى المتحذلق : بل علمتمونا ان قدرة الله لاتتعلق بالمستحيل .. وخراب بيتى مستحيل لسبب واحد ،

وهو انه ليس لى بيت !..

على ان تلمذة الهلباوى لجمال الدين لم تمكن تمنعه ان يستطيل عليه بمثل هذه الحذلقة اذا « حكمت القافية » كما يقولون ، فلعله هو التلميذ الوحيد الذى كان يجترىء على السيد بالدعابة فى مجالس الدرس أو مجالس الحديث ..

قال لى عظيم من عظماء هذا العصر الذين حضروا كثيرا من تلك الاحاديث أو تلك الدروس - وكانت كل أحاديث جمال الدين من قبيل الدروس : ان السيد كان يتكلم يوما عن بعض الرذائل التى تصيب الجسد والنفس الناطقة ، وبعض الرذائل التى تصيب الجسد ولاتمس النفس الناطقة ..

فقاطعه الهلباوى قائلا : ياخبر ! وهل السيد من هؤلاء ؟

فانتفض السيد مغضبا وصاح به : اغرب عنى ايها الخبيث .. لعنة الله عليك !

والهلباوى الذى تدل عليه هاتان النادرتان هو الهلباوى الذى عرفه الناس طوال حياته ، ويمكنك أن تلخصه فى عبارة واحدة ، وهى انه رحمه الله كان « ذلاقة لسان لا تطيق نفسها ولا تريح صاحبها »

ومن هذه الذلاقة المتعجلة كان يؤخذ الهلباوى فى كل ماهو مأخوذ عليه ..

سمعنا عنه قبل أن نراه ، أو نسمع عنه ممن رآه ..

كان اشهر المحامين بين الفلاحين بلااستثناء ، وكان من آيات شهرته انها دخلت فى « النكتة المصرية » .. فكان الذين يساومون القصابين فى شراء لسان الذبيحة يقولون اذا اشتط عليهم القصاب فى الثمن : والله ولا لسان الهلباوى ..

وسمعنا بشهرته كاتبا كما سمعنا بشهرته محاميا ، فكان عنوان مقالاته « الى أى طريق نحن مسوقون » يتردد على كل لسان ، وكنا نسمع به وان لم نقرأ تلك المقالات ..

ثم ادركته آفة التعجل وقلة الاستقرار ، فتحول فى الوطنية الى خطة « الاعتدال » وفسر الاعتدال بمصانعة الاحتلال ..

ثم كانت الطامة الكبرى ، ونعنى بها « قضيةدنشواى» التى وقف فيها موقفا ظل نادما عليه طول حياته ..

وعن قضية دنشواى قلت فى كتابى سعد زغلول : «لقد كنا أربعة نقرأ وصف التنفيذ فى أسوان ، فاغمى على واحد منا ولم نستطع اتمام القراءة الا بصوت متهدج تخنقه العبرات »

ويستطيع القارىء اذن ان يتخيل مبلغ السخط الذى أثارته فى نفوسنا رؤية الهلباوى أمامنا وجها لوجه فى دار الجريدة ، يوم القى الاستاذ « لطفى السيد بك » خطابه الذى أشرنا اليه فى الكلام على صاحب « المؤيد »

لقد كان اغتباطى شديدا بما أصابه من الاذى فى ذلك اليوم ، ولكنى أقول انصافا له اننا رأينا فى الرجل شجاعة لم نرها فى غيره من المقصودين بالهتاف العدائى ذلك المساء .. فقد أوى بعضهم الى حجرات الدار حتى اطمأن الى انصراف الجمهور الغاضب ، وابى الهلباوى الا ان يقتحم الجمع خارجا من الدار فى ابان الهياج ، ولم يحفل بما تعرض له فى طريقه من اللكم والايذاء ..

وغاب الهلباوى زمنا عن ميدان السياسة ثم ظهر بعد الثورة الوطنية معارضا لسعد زغلول ، وكانت المساجلات بين الاحزاب يومئذ على اعتنها .. ولكنى أشهد القارىء

انني ما وجدت القلم ينبعث فى يدى انبعاثا الى القول القارص العنيف كمـــا كان ينبعث فى الرد على خطب الهلباوى واحاديثه ، فردودى عليه فيما أعتقد كانت أعنف ما كتبت على الاطلاق ..

ثم مضت الايام ، وشاء القدر أن يكون للهلباوى شأن فى موقف من أهم المواقف فى حياتى السياسية ، لانه الموقف الذى اعتزمت فيه جديا أن أترك الهيئة الوفدية مستقلا عن جميع الاحزاب ..

كان الوفد والاحرار الدستوريون مؤتلفين على عهـد الوزارة الصدقية التى عدلت الدستور ..

وجاء اليوم الثالث عشر من شهر نوفمبر فعقـــد الاحرار الدستوريون اجتماعا فى دار حزبهم ، وذهبنا اليه تأييدا لمظهر الائتلاف ..

واذا بالهلباوى هو خطيب الاجتماع ..

واذا بى جالس امامه على قيد خطوة واحدة ، واذا به يحتال فى كلامه ليهملنى عند مناسبة ذكرى ويتجاوز الاهمال الى التعريض ..

وعلقت على الخطبة فى اليوم التالى ، ورآها فرصة سانحة لارغامى باسم الائتلاف ..

وجاءتنى دعوة الى بيت الامة حيث يجتمع طائفة من أعضاء الوفد وعلى رأسهم مصطفى النحاس (باشا) ..

ما الخبر ؟ ..

الخبر ــ كما قالوا ــ أن مصير الائتلاف معلق على بيان مطلوب منا ، ونحب أن نتلوه عليك ..

قلت : وما شأنى فى هذا البيان ؟ ..

قالوا : بل الشأن شأنك ، لان فحوى البيان ان الوفد

لا يقر ما كتبت عن الهلباوى بك ..

قلت : انكم احرار فيما تكتبون ، ولكنني سأرد لا محالة على هذا البيان . واقول لكم سلفا اننى انا المسئول عما أكتب ، ولم يعلم الناس قط اننى أكتب باشـــــارة من احد ..

ثم ذكرت لهم سابقة سعد مع اللورد جورج لويد حين حملت على اللورد من أجل زياراته للاقاليم ، وثار اللورد ثورته التى اوشكت ان تعصف بالبرلمان ، وارســـل الى سعد من يقول له ان اللورد يعتقد انه هو الموعز بتـــلك الحملة ، فقال سعد كلمته المأثورة : « انها تهمة لا أدفعها أو شرف لا أدعيه » ولم يفاتحنى فى الامر حتى انقضت الازمة ، لكى لا افهم أنه يقترح على الكف عن الكتابة فى هذا الموضوع ..

ولكنهم لم يقتنعوا وقالوا ان صدور البيان من الوفد أمر لا محيص عنه ، فان شئت فاسمعه لتقترح تغييره أو تعديله فيما لا يرضيك ..

قلت : لن أسمعه ، ولن اسكت عن الرد عليه ..

فى ذلك المساء زارنى مكرم عبيد (باشا) والمرحوم صبرى ابو علم (باشا) ، وسألانى : « ماذا صنعت ؟ »

قلت : كتبت ردا على البيان سينشر فى عدد الغد من جريدة « مصر » ــ وكانت من الصحف الصباحية ، وفيها كنت اكتب مقالاتى كل يوم ..

فحاولا وقف المقال ..

فقلت لهما : اذا كنت لم استطع ان اقنعكم بوقف بيانكم فلن تستطيعوا اقناعى بوقف هذا المقال ..

ثم قلت لهما : اننى أملك أن انشره فى غير الصحيفة الوفدية اذا حيل بينى وبين نشره فيها ..

وكان قد جاءني فعلا من يعرض على العروض الطوال العراض لأعطيه المقال وينشره حيث يشاء ..

وبعد مناقشة طويلة ، قال مكرم باشا : اننا كنا نود لو قبلت رجاءنا وعدلت عن نشر مقالك .. أما وانت مصر على نشره فاقبل منا رجاء آخر ..

قلت : ما هو ؟ ..

قالا : ان يخلو المقال من الملام الشديد

قلت : انني اذا ذكرت الحقائق كما حصلت فلا حاجة بي الى ملام شديد ..

ومضت سنوات ثلاث أو نحوها والهلباوى بك لا يقع لى فى طريق ..

وحدثت فى خلال ذلك جفوة بينى وبين المرحوم عبد القادر حمزة لمناقشة دارت بينى وبينه حين كنت أكتب فى صحيفة « الجهاد » ..

ثم زارنى يوما بعد طول القطيعة ، وهو يقول لى : لقد مررت بدارك وأنا فى مصر الجديدة فحمدت هذه الفرصة وقلت لنفسى : فلنزره ان كان هو لا يزورنا .. فما رأيك ؟ ..

قلت : انه فضل لك سبقتنى به وعلى أن اشاركك فيه ..

وزرته فى دار البلاغ بعد يوم أو يومين ، فاذا بالهلباوى بك هناك ..

فكدت اهم بالرجوع ..

بيد ان الهلباوى كعادته هجام لا يتردد ، فجذب يدى وبدأنى بالحديث

ولقد خطر لى فى تلك اللحظة أن واقعتى معه آخر

ما يذكره فى تلك المقابلة ، ولكنها على عكس ذلك كانت أول ما ذكره واسهب فيه ، وجعل يقول وهو يضحك : « كنت والله يا رجل أحب أن يكتب الله لى ثواب اخراجك من تلك الجماعة .. ولكنه فاتنى ، واراك خارجا منها على التسعين ..

وبعد حديث متشعب دعانى والاستاذ عبد القـادر الى قضاء سهرة فى منزله .. فاعتذرت ، وخرج معى حين انصرفت حتى افترقنا عند دار محمدمحمود (باشا) رحمه الله ..

ويظهر أن رغبته فى زيارتى له بقيت تساوره زمنا حتى صدرت صحيفة روز اليوسف اليومية وواليت الكتابة فيها ، فدعانا جميعا الى قضاء السهرة عنده ، وذهبنا اليه مع السيدة روز اليوسف والدكتور محمود عزمى ، وكانت فى الحق من أمتع السهرات ، لان الرجل محدث ظريف لا يمله المستمع اليه ..

ولقد كانت احاديثه فى تلك الليلة اكثر من أن تذكر .. الا اننى اذكر من طرائف السهرة أن السيدة روز اليوسف كانت تخاطب السيدة قرينته وهى تظن انها زوجة ابنه ، لبعد الفارق بينها وبين زوجها فى السن .. ولم تزل على ظنها حتى نبهها الى خطئها بنكتة من نكاته التى تناسب المقام !

نابغة من نوابغ عصره لامراء .. كان يسلم من كثير مما يؤخذ عليه لولا تلك الحيوية التى أقلقته وباعدت بينه وبين الصبر والاستقرار

طه حسين

للقدماء ضروب من التوقر يستخف بها المحدثون ولا يحفلون بها وحق لهم ان يستخفوا ولا يحفلوا ، لانها ترجع الى أسباب خاطئة فى زمانها فضلا عن الازمنة الحديثة ، وليس أدل على قلة الحياة من كثرة البحث فيما يجوز ومالا يجوز ، لانه دليل على كثرة القيود

واول ضروب التوقر التى يحق للمحدثين ان يستخفوا بها اجتناب الكتابة عن الاحياء وقصر التاريخ والتقدير على من فارقوا الحياة ، فربما كان مصدر هذا العرف عند القدماء انهم كانوا يكبرون السلف ويحصرون فيه العلم والمعرفة والادب والخلق والشهرة . وكأنهم كانوا يستكثرون الجمع بين العلم والحياةأوبين الشهرة والحياة فى وقت واحد : فاماحياةوخمولواما موت وشهرة ، ولا توسط بين الامرين فى تاريخ العلماء والادباء وتقدير حظوظ العلم والادب

وقد جرف العصر الحديث ذلك العرف جرف السيل فكثرت تراجم الاحياء . بل كثرت تراجم الادباء لانفسهم بأقلامهم ونشرها فى ابان حياتهم ، وتلك علامة خيروصلاح لان ما خف من جانب التوقر انما يزيد الحياة ، ولانإساغة

التاريخ للاحياء تدل على رحابة الصدر والتفــاهم على الطبيعة الانسانية فى جوانب كمالها ونقصها واطرائهاوعيبها ولان العصر الذى يساغ فيه الاعتراف ببعض العيوب هو العصر الذى تتوافر فيه المزايا والمحاسن ، فلا يضار المرء بالنقد لانه يعرف حدود الطبيعة الانسانية ومايبقى له بعد النقد من وجوه التحبيذ والترجيح

ولست انا من أعداء القديم حبا لعداوة القديم ، ولكننى اكره التحرج الكثير فى غير طائل ، واشايع زمنى فى هذه العادة خاصة ، فلا أرى حرجا فى الثناء على الدكتــور طه حسين أو اغتيابه على ملأ من الناس .. ولهذا أجبت دعوة « الهلال » حين دعانى الى اجمال رأى فى الصــديق العالم الاديب ، وهو يعدنى أو ينذرنى بمثل هذا النصيب وقبلت الكتابة وانا أرجو الا اكون مغلوبا حين تنــكشف الورقتان المطويتان . اذ الكلام فى كلينا سر مكتوم عــن صاحبه حتى يطلع الهلال ، وعندئذ تشيع الغيبة وينجلى السر عمن أحسن الحيطة والتخمين

أنا ضامن أن الدكتور طه حسين سيقول أننى شاعر ، فليضمن الدكتور طه حسين اذا أن أقول فيه انه كاتب ناتج فى الادب ، وخير ماانتجه كتابه « الايام » وكتــابه « فى الصيف » وهما الكتابان اللذان سرد فيهما بعض ماجرى له فى حياته ، فكان فيهما مثلا فى البساطة والثقة التى تعزف بصاحبها عن التماس التأثير المصطنع بالتعمل والتجمل والطلاء والتزويق ، فالموصوف فى هذين الكتابين صادق بسيط والوصف كذلك على مثل هذه الحال من الصدق والبساطة ، ولكنى لم أطلع على شىء يصف به الدكتور مالم يجر له أو يصف مايخلقه من الشــخوص والحوادث فى عالم الرواية . فما علة ذلك ياترى ؟

أنا ضامن أن الصديق الاديب سيجد عيبا او عيوبا فى

شعري يقيسها بمقياسه ويقدرها بمعياره . فاذا ضمنت هذا فليضمن الصديق الاديب ان علل قلة الوصف المخلوق فى كتاباته القصصية بعيب فيه وهو قلة الخيال .. فهو يصف مايعالجه من المحسوسات ولا يتخيل ماعداه من نقائضه أو مشابهاته ، والعوض من ذلك عنده أنه يحسن البساطة التي يندر من يحسنها ويشعر بالكفاية التى تأتى من الثقة والاطمئنان الى صدق الشعور ، وهو عوض فيه غنى لمن يحسن الاستغناء

***

أما طه حسين الناقد فماذا أقول فيه ؟

أقول انه اطلع على الادب العربى القديم اطلاعه الواسع الذى لا جدال فيه ، واطلع على نفائس من أدب الاغريق واللاتين الاقدمين ، واطلع على آثار رهط من كبار الادباء الاوربيين ولا سيما الفرنسيين . كل أولئك خليق أن يحبب اليه الصحة والمتانة والقوة ويبغض اليه الزيف والسخف والركاكة . فهو يختار مايعلو على مقاييس المقلدين المصطنعين ، وينبذ مايستطيبه المحدودون من أصحاب الاطلاع القليل أو أصحاب الذوق السقيم ، وله فى ذلك قواعد صحيحة ومراجع وثيقه ، واعتماد على فكر لا يتقيد الا بما يرضاه

والى هنا لا اظن أن الدكتور سيعترف لى بأقل من هذا القدر فى ميزان الكتابة المنشورة فأنا رابح على هذا التقدير

ولا أظن كذلك أنه سيعترف لى فى هذا الميزان بلاتعقيب ولا استدراك ، فلنسرع اذن الى التعقيب والاستدراك . ولا لوم ولا اجحاف

فالدكتور صحيح الاصول فى النقد ولـكنه لايوفق بين أصوله وطبيعته فى كثير من الموضوعات

وهو حين يقرر المبدأ على صواب غالب

ولكنه حين يطبق المبدأ ينحرف أحيانا عن الصواب

وعلة ذلك كما أسلفنا ان القاعدة والطبيعة عنده لاتتفقان فالطبيعة عنده لاتحتكم الى الخيال والتصوير الخالق ، ولكنها تحتكم الى الرأى والاطلاع فيقع من هنا التبـاين والاختلاف

اليس الدكتور يوصي بمبدأ «الشك» او مذهب ديكارت ؟

بلى ! ولكنك حين تقرؤه ترى له عبارات من التوكيـد واليقين قلما تراها فى عبارات الشاكين المترددين ، فلا يعجب ـ أكثر مايعجب ـ الا اشد الاعجاب ، أو اعجابا لا حد له ، ولا يقنع بما دون الاسراف وترديد كلمـة الاسراف ، ولا يغضب الذين يتحدث عنهم الا غضـبا شديدا ، ولا يضيقون الا أشد الضيق ولا يتـكلمون الا بصيغة المبالغة فى معظم الاشياء .. ثم تنتقل من هذا الى تشكيك يذكرك « بأن شاء الله » التى قالها جحا حين ضاع المال .. فقال ضاع المال ان شاء الله ...

كأن الدكتور يخاف من نسيان الشك خوف جحـا من تلك الكلمة التي نسيها فضاع ماله ، فأنت تسمع منه : « أزعم انني ضحكت » وقد أزعم .. وقد أتردد .. وقد أقول وقد لا أقول » .. مع ان المرء لو أقسم جاهدا : « والله لازعمن . وتالله لاترددن ، وبالله لاقولن » لما خرج بالقسم مع الزعم ، من دائرة الشكوك

والقاعدة تستقر على اطراد اذا كانت هى والطبع على وفاق غير انهما عرضة للاختلاف اذا وقع بينهما الخلاف ، ومن هنا نرى الدكتور يقول مرة ان أصول النقد الغربى

واحدة قد وضعها اليونان قديما وفرغوا منها ، وتلقاها منهم الانجليز كما تلقاها منهم الفرنسيون فهم لايختلفون

ثم نراه يقول بعد اشهر قليلة أن النقد ليست له اصول مقررة عند الناقد الفرد فضلا عن الامم الكبيرة والعصور الكثيرة ، وأن الناقد يستحسن أو يستهجن والمرجع الى ذوقه وحده فى استحسانه واستهجانه

ولعل هذا التباين بين القاعدة والطبع هو الذى جعل الدكتور ينكر الجديد اذا جاءه فى زى القديم ، أو هو الذى جعله يطالب الشعر الحديث بأمور لا يطالب بها فى حكم الطبيعة لانه يجرى فى مطالبته على القياس

واقول للقلم : على رسلك ! الى اين ؟ ما احسبك الا متوقعا الكثير من تعقيب الدكتور واستدراكه فأنت تستوفى المثل وتأمن أن تزيد

ويقول القلم : ما احسبنى والدكتور مغلوبين على كل حال فى هذه الصفقة ، وليس الحق فيها بمغلوب

نعم ، وحساب الدكتور أو « رصيده » كما يقولون فى لغة المصارف كثير ، ففيه بقية وافرة بعد كل تعقيب واستدراك

واذا قلت أن الدكتور امن استحسان السخيف من الادب فاختلافك بعد ذلك فى زيادة القيمة التى يقوم بها الجيد أو نقصها انما يغير الثمن ولا يغير جودة الشىء الثمين

***

ومن حساب الدكتور طه حسين أنه رجل جرىء العقل قويه ، مفطور على المناجزة والتحدى ، يستفيد مما يقتنع بصحته ومما يعينه على التحدى والتفرد فلا يحجم

عن اتخاذه ، ولهذا تغير أسلوبه الكتابى بعد دراسته للاساليب الاوربية ، فاتخذ له نمطا يوافق علمه بالعربية الفصيحة وعلمه بتقسيم المقاطع والفواصل فى الكلام الاوربى ، كما يتكلمه من يجمع بين الحديث والكتابة فى وقت واحد . فهو يتحدث ولا ينسى انه يكتب ،ويكتب ولا ينسى أنه يتحدث ، وأسلوبه الذى اختاره أوفق الاساليب لذلك جميعا وأولها من نوعه فى اللغة العربية . وليس فيه محاكاة لاسلوب آخر فى اللغات الاوربية

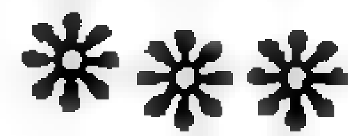
ولو كانت كتابته حديثا محضا لاسترسلت بلا توكيد ولا تكرير ، ولوكانت تقريرا محضا او درسا محضا لما انحرفت عن أسلوب الكتابة الذى لايتحدث به القائل ، ولو كانت تقريرا أو درسا على الطريقة الشرقية لما ظهرت فيها المقاطع والفواصل الاوربية ولجرت على سياق قريب من سياق الدروس الازهرية . ولكن كتابته حديث فيه محاضرة ومراجعة وتنظيم ، فلا يوافقها الاذلك الاسلوب الذى استقل بابتداعه طه حسين ولو غضب المنكرون . وقد يكون غضب المنكرين من أسباب ذلك الابتداع ولاجل هذا الابتداع يغتفر مافى كتابة الدكتور من اسهاب وتكرار

ولقد أفاد بأسلوبه هذا عملا من لم يفدهم الرأى ولم تقنعهم المناقشة . فرأوا أن العربية قد تكتب صحيحة فصيحة على أسلوب غير أسلوب الجاحظ وعبد الحميد وبديع الزمان وابن المقفع ، ورأوا كاتبا كبيرا يكتبها كما يشاء هو لا كما يشاء القدماء « فتنكتب » وتلذ وتفيد فاستعدوا لاستحسان الفصاحة فى غير قيودها القديمة ، وألفوا تعديد الاساليب وطرائق التعبير الى غير انتهاء وذلك وحده فتح قدير

وقد جار نصيب القوة فى الدكتور طه حسين على نصيب

العمق كما أشرت الى ذلك فى نقدى لكتابه « فى الصيف »

وليس بالقليل بين أكبر الادباء العالميين من هو قوى لا يتعمق . فانى لاكتب هذا المقال بعد أن فرغت من قراءة مقال للشاعر الاسبانى ميجويل دى أنامينو كتبه ليمثل به رأى الاسبان بين سائر الاراء التى نشرتها مجلة « الشهر » الفرنسية عن فكتور هوجو لمضى خمسين سنة على وفاته . فاذا هو يقول ان عمله فى أسبانيا على الاقل كان واسعا أكثر مما هو عميق ، وأرجو الا يحسب الدكتور أننى أعود به الى التفرقة بين السكسون واللاتين اذا أضفت الى هذا أن شاعر الامة الاسبانية اللاتينية يقرر أن « بيرون » والشعراء الانجليز هم الذين وجهوا أدب تلك البلاد ، وليس فكتور هوجو ولا الشعراء الفرنسيون، وانه ليقرر ذلك فى مجلة فرنسية تحتفل بهوجو فى عام ذكراه !



والان وقد أبرأت ذمتى وأفضيت بمجمل الرأى مع الحيطة والمعادلة والتربص فانى على ما أرجح كاسب ولست بخاسر . فان اختلف تقديرى فسأتهم محرر الهلال بافشاء السر واطلاع مناجزى على ما أعددت له قبل ان يتأهب لى بسلاحه ، والمناجزة يومئذ بينى وبين محرر الهلال

من وحى أسوان

هبطت اسوان فى هذا الشتاء ، وانا اذكر قول دعبل الخزاعى :

هبطت محلا يقصر البرق دونه
ويعجز عنــه الطيف ان يتجشما
وان امرءاً أضحت مساقطرحله
بأسوان لم يترك له الحزم معلما

وذكرت كلام دعبل فى هذه الرحلة خاصة لاننا قضينا ساعة من الوقت فى القطار نتحدث عن السفر الى الصعيد بطريق الهواء . ومسافته لا تزيد فى هذا الطريق على اربع ساعات ، وقد تنقص غدا الى ساعتين ، ومسافة السفر بسكة الحديد تنقضى ما بين عشية اليوم وضحى الغد . . ثم ينتهى الى حيث يستمع السامع اذا شاء الى صوت المتحدث اليه من القــاهرة والاســكندرية كمــا يتبادل الحديث مع جليسه فى ناديه ، او يدير المفتاح فى المذياع فيصغى الى لندن وواشنطن ، ولا يقصر مكان فى الارض عن ابلاغ صوته اليه . اما الاطياف فما أكثرها فى دور الصور المتحركة الناطقة هناك ! ان منها لاطيافا تنتقل من هوليوود . وأطيافا تنتقل من الجيزة ، ولا تعجز عن

التجشم ، ولا يبدو عليها أنها تعرف الاعياء كما عرفته أطياف دعبل يرحمها الله

تلك أطياف وهذه أطياف ، وتلك بروق وهذه بروق ، وما أكسل البروق والأطياف فيما مضى ، وما أسرع البروق والاطياف فى هذا الزمان ، فلو عاش دعبل اليوم لتمنى ساعة من تلك الايام التى كان يتبرم بها قبل ألف عام ، ولنظر حوله فرأى أناسا يتسابقون الى المكان الذى قصرت عنه أطيافه وبروقه ، ويغبطون أنفسهم على الحزم الذى ساقهم الى هذا المقام فى خاتمة المطاف

وقصة دعبل فى هجاء العالم كله معروفة . أما قصته مع أسوان فخلاصتها انه وفد مع أخيه عبد المطلب بن عبد الله أمير مصر يومئذ فولاه أسوان ، ثم بلغ المطلب هجاؤه اياه فأنفذ اليه كتاب العزل مع مولى له وأوصاه أن ينتظره حتى يصعد المنبر يوم الجمعة فينزله ويصعد مكانه ، ففعل كما أوصاه !

ذكرت كلام دعبل وذكرت كلام أخ له من قبل فى هذا المقام . أهو أخوه فى النسب يا ترى ؟ أهو أخوه فى العربية ؟ أهو أخوه فى الزمن الذى عاش فيه ؟ كلا . ولكنه أخوه فى صناعة الهجاء ، ولم يكن أخاه فى قومه ولا عصره ، لأنه كان من أمة الرومان ، وكان عصره فى القرن الأول للميلاد ، وهو الشاعر اللاتينى جوفنال Juvenal

من توافق المصادفات أن الشاعر اللاتينى كان كالشاعر العربى لا يسلم أحد من لسانه ، وأن هجاءه لفنان العصر « باريس » قذف به من روما الى جزيرة أسوان ، لأن هذا الفنان الساحر كان حظيا عند العاهل دومسيان !

قدم جوفنال الى جزيرة أسوان قائدا للحامية الرومانية فى ظاهر الامر وأسيرا منفيا فى حقيقته ، ولم يستطع أن

يلعن دومسيان فلعن الجزيرة ومن فيها ومن حولها ، ولم يرض عن شيء رآه فى ولايته التى فرضت عليه ، فكذب وأقذع فى شكواه ، وادعى على مصر والمصريين ما لم يدعه أحد سواه

قال ان المصريين يعبدون كل حيوان ، ولا يدعون شيئا الا عبدوه حتى الثوم . وما كان المصريون يعبدون الثوم ولا البصل ، ولكنهم عرفوا خصائص هذا وذاك فانتفعوا بها فى الغذاء وفى العلاج ، وجاء المحدثون فى عصرنا هذا فاتخذوا من الثوم عصيرا سموه ماء الحياة

وقال ان المصريين يأكلون لحم البشر ، وقص من أخبار هذه الدعوة أن أناسا من أهل كوم امبو الذين يعبدون التمساح هجموا على رجل من أهل دندرة قتل تمساحا فأكلوه !

والتمساح ، واسمه هذا منقول من المصرية القديمة ، حيوان مقدس كالذئبة الرومانية ، ولكنه كان مقدسا عند أناس ورجيما ملعونا عند آخرين ، أما ان الذين يقدسونه يأكلون لحم قاتليه فتلك هى الفرية التى اتفق المؤرخون على تكذيبها ، وحسبوها « اختراعة » من أفانين الهجاء ، جناها السخط على الشاعر الهجاء قبل أن يجنيها بشمرد على أبناء كوم امبو الأقدمين ، المظلومين !

ومن عجيب التوافق بين الشاعرين الساخطين أنهما يتفقان فى الخاطر كما يتفقان فى المزاج ، فكان جوفنال يعجب لمن يسأله عن سبب هجائه كأنما كان الهجاء عنده أصلا من الأصول التى لا تحتاج الى سبب ، وكان دعبل ينظم القصيدة المقذعة ويسألونه عمن قيلت فيه فيقول لهم انها ستجد صاحبها لا محالة ، ويتفلسف فيمضى قائلا : « ان من يتقيك على عرضه أكثر ممن يرغب اليك فى تشريفه ، وعيوب الناس أكثر من محاسنهم ، وليس

كل من شرفته شرف ولا كل من وصفته بالجود والمجد والشجاعة ولم يكن ذلك فيه انتفع بقولك »

فهى طبيعة واحدة فى الشعراء الهجائين مع تباعد الجنس والزمن ، ولا نظلمهم فنحكيهم حين يجنون بالسخط على الحقيقة ، فما نحسبهم ظالمين فى كل ما تقولوه على الناس ، وما نظنهم سخطوا بغير حق فى كل مقال ، فلعل اصابتهم الناس تنفيس عن بعض ما أصابهم منهم ، ولعلهم شقوا بالعالم كما شقى العالم بهم ، ومن دلائل هذا الشقاء ، أن شاعرا هجاء فى اللاتينية وشاعرا هجاء فى العربية يرددان معنى واحدا عميقا فى دلالته على شقاوة الرجلين ، فيقول جوفنال فى الاهجية الخامسة عشرة : « ان الطبيعة خلقت للانسان الكريم قلبا رحيما فأودعت فيه ينابيع الدموع ، وهى أكرم جانب فى طوية الانسان »

ويقول ابن الرومى :

لم يخلق الدمع لامرىء عبثا
الله أدرى بلوعة الحزن

وقد تكون الحاجة الى الهجاء كالحاجة الى البكاء ، فى طبائع الشعراء ، فلنقل ان الشعراء الهجائين ظالمون مظلومون ، وكلهم فى هذه الخلة سواء

***

وأعود الى دعبل فأقول ان الاعياء الذى ابتليت به أطيافه وبروقه ليست من فعل الزمن وحده ، ولكنها من فعل الخيبة التى كانت تلاحقه حيث ذهب ، فلا هو استقر فى صعيد مصر ولا هو استقر فى صعيد حيث كان

وقبل ان ينشط العصر الحديث بأصداء الاثير وأطياف الستار الابيض نظر الشعراء الى أسوان بغير هذه العين

التى تستعجز البرق وتتهم الطيف بالقصور : نظروا اليها بعين الرضا فوجدوا فيها بغية الطلاب على اختلاف المقاصد والآراب ، كما قال جعفر بن ثعلب ابو الفضل كمال الدين :

اسوان فى الأرض نصف دائرة
الخير فيها والشر قد جمعا
تصلح للناسك التقى اذا
اقام والفاتك الخليع معا
وحسنها ما أراك مبدعة
تروق الا باختها شفعا

وقد حببت الحياة الى ابنائها حتى قال فيها احد هؤلاء الأبناء من الشعراء :

ما الشيب الا نعمة
مشكورة فاشكر عليه
ما الغبن الا أن تمو
ت وانت لم تبلغ اليه

وقائل هذين البيتين هو الاديب ابراهيم بن محمد بن ابرهيم ، وهو من أسرة عريقة أمرها فى النبوغ عجب ، ومن هذه الأسرة خالاه النابغان احمد بن على الملقب بالرشيد ، والحسن بن على الملقب بالمهذب ، وكلاهما شاعر مشارك فى العلوم يدل كلامه على علمه كما قال الرشيد :

ولن يستفيد البدر اكمال نوره
من الشمس الا وهو فى غاية البعد

او كما قال المهذب فى وصف ليلة :

لو لم تكن نهرا لما عامت به
ابدا نجوم الحوت والسرطان

نادمت فيها الفـــرقدين كأنني
دون الورى وجذيمة اخـــوان
وترفعت هممى فما أرضى سوى
شهب الدجى عوضا من الخلان

او كما قال :

لا ترج ذا نقص وان اصبحت
من دونه فى الرتبـــة الشمس
كيـــوان اعلى كوكب موضـعا
وهو اذا انصـــــفته نحس

وكانا لهذا مبلوين بالحساد والأضـــداد ، ولا سيما الرشيد الذى قيل عنه انه تطلع الى الخلافة ، وكان يقول عن نفسه انه خلق من نار . فقال فيه ابن قادوس :

ان قلت من نـــــار خـلقـ
ـت وفقت كل النـاس فهمـــا
قلنـــا صدقت فمـــا الـذى
اطفــــاك حتى صرت فحمـــا

وقال فيه شاعر يمنى ، وكان الخليفة قد أوفده إلى اليمن داعيا وسماه علم المهتدين ، فحسده أدباء اليمن وقال فيه احدهم :

بعثت لنــــا علم المهتـــدين
ولكنـــه عــلم أســـــود !

ولكنه كان لا ينظر الى الحساد نظرة الاقران والانداد ، وقال فى أمير رجاه فخيب مناه :

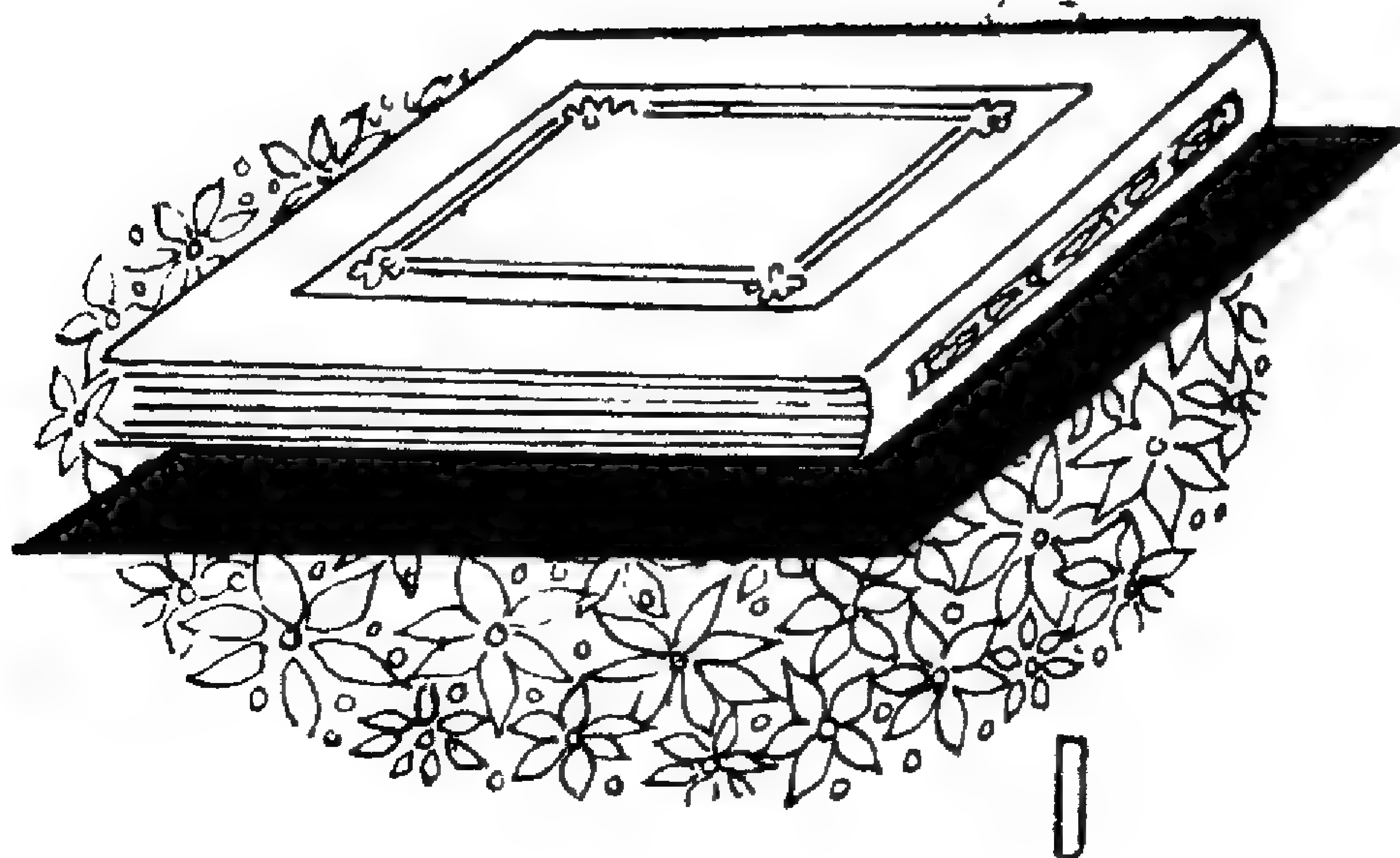
لئن خاب ظنى فى رجائك بعدما
توهمت أنى قـــد ظفرت بمنصف
فانك قـــد قلدتنى كل منـــة
ملكت بها شكرى لدى كل موقف

لأنك قد حذرتنى كـل صاحب
واعلمتنى أن ليس فى الأرض من يفى

عليهم رحمة الله جميعا من ظفر بالانصاف ومن فاته انصاف الناس وفاته هو أن ينصف الناس ، فقد بقى بعدهم وحى اسوان ووحى الزمان كما كان ، وكذلك يبقيان !..

الفصل العاشر

فى أرض الميعـــاد



قصة المدينتين

قلت لبعض الاخوان الفلسطينيين ان الله أنعم عليكم بحرية الاختيار فى أمر واحد ، ولعله فأل حسن وبشارة صادقة بنعمة أخرى تملكون فيها حرية الاختيار فيما يشغلكم اليوم وتؤثرونه على كل نعمة ، وهو نعمة الحرية القومية .. (1)

انكم تملكون اختيار الأجواء والاهوية فى كل فصل من فصول السنة ، وترجعون الى حسابكم أنتم لا الى حساب الافلاك والكواكب لتخرجوا من الصيف وتدخلوا فى الشتاء ..

فنحن فى مصر ننتظر ثلاثة أشهر أو اربعة لنشيع الصيف ونستقبل الشتاء ، ولكنكم هنا لا تحتاجون الى هذا الانتظار الطويل ، لان ساعة واحدة تنقلكم من حرارة يوليو الى برودة نوفمبر أو يناير فى بعض الجهات،

---

(1) قام امام البيان الاستاذعباس العقاد بهذه الرحلة فى صيف عام ١٩٤٥ قبل حرب فلسطين بثلاث سنوات ولما عاد منها كتب هذه الفصول التى تناولت حالة فلسطين المدنية والسياسية والاجتماعية فى ذلك الحين . وقد اشار فيها الى ما يجب على العرب عمله قبل أن تقع الكارثة

فعندكم المكان الذى يتذكر فيه السمار معاطفهم اذاطالت السهرة كما تطول ابدا فى ليالى الربيع .. وعلى مسيرة ساعة منه مكان يتذكر فيه السائرون مظلاتهم فى ابرد ايام الشتاء ، وقد أوحى مكان من هذه الامكنة نغمة الفكاهة الى قائد من قواد الحرب وهو فى ميدان القتال ، فكتب منه اللورد اللنبى الى وزارة الدفاع البريطانية برقية يصف بها احدى المعارك فى ايام الحرب العالمية الماضية فقال : « حلقت طائراتنا هذا الصباح تحت سطح البحر الابيض المتوسط بستمائة قدم ، ولاحقت العدو عند أريحا من هذا الارتفاع ! »

وقد كان الحر هذا العام على أشده فى شواطىء البحر الابيض جميعها ، فلم نشعر بوطأته الثقيلة حين تركنا الشواطىء وارتفعنا الى هضاب رام الله أو « رام ايل » الفيحاء ، ولكننى لم أندم على قضاء معظم ايامى فى فلسطين بين الشواطىء حيث تفرط الحرارة والرطوبة هذا العام على خلاف المألوف فى السنوات الماضية، لاننى لمست فيها عن كثب ذلك الصراع العنيف الذى احسبه اعجب صراع بين مدينتين متجاورتين فى تاريخ المشرق أو فى تاريخ العالم باسره ، وهو الصراع بين مدينة يافا ومدينة تل أبيب ..

ان المدينتين متجاورتان تقيمان فى مكان واحد ، حتى ليبدأ الشارع احيانا فى يافا وينتهى فى تل ابيب ، ولكن السباق بينهما سباق بين اقدم ميناء على شواطىء بحر الروم واحدث ميناء عليه .. أو لعله أحدث ميناء على جميع شواطىء البحار

كانت « يافا » علما مشهورا فى التاريخ القديم قبل نيف وثلاثين قرنا من الزمان ..

وكانت « الاسكندرية » جنينـــا فى الغيب يوم كان سوفكليس ويوربيدس وغيرهما من شـــعراء اليونان يتغنون بجمال « يافا » وينسجون خيوط القصيد حول عروسها الفاتنة « اندروميد » التى ربطها الارباب الى صخرة الشاطىء عقابا لها على رفض البناء بخطابهـــا السماويين!.. ثم مازالت حتى نجا بها القدر من وحش البحر وهو راصد لها ليغتالها .. فأصبحت بعد ذلك كوكبا من كواكب السماء ..

ولا نحسب ان مدينة فى الشرق الادنى عرض لها من تعاقب السعود والنحوس ما عرض لمدينـــة « يافا » فى جميع الدول وعلى جميع العهود ..

فعمرت وخربت مرات على أيدى البشر ، وعلى ايدى الزلازل والجوائح الطبيعية ، وصمدت للعراك بين الدول التى تداولتها من عهد تحوتمس وسنحاريب ، الى عهد العرب والصليبيين ، الى هذا العهد الذى لا يحسب فى تاريخها من العهود الرخية الميمونة ، وان كنا لنرجو ألا يكون من أقسى العهود ، لانها قد صمدت فى تجاربهـــا الكثيرة لما هو اقسى واصرم من تجارب العهد الذى هى فيه الآن

كانت « يافا » تعول فى معيشـــتها على الزراعة وعلى الصناعة وعلى الميناء وما يدور حوله من حركة السفن وحركة البيع والشراء ...

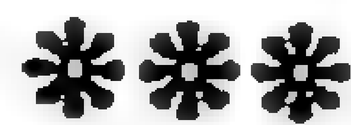
فأصيبت فى جميع هذه الموارد ، ولا تزال مع هـــذا قائمة على قدميها تناضل نضالها المجيد فى سبيل البقاء

فالموالح والثمرات التى عرفت باســـمها من قديم الزمن لا تلقى اليوم فى الاسواق القريبة ذلك الترحيب الذى تعودت ان تلقاه الى زمن غير بعيد

والصناعة ـ وأهمها صناعة الجلود وصناعة الصابون ـ قد منيت بالمزاحمين الاقوياء فى تل أبيب وما وراء تل ابيب من بلدان الشرق الادنى

أما الميناء فقد تحول عنه اكثر السفن الى ميناء حيفا الذى تنتهى اليه أنابيب البترول من آبار العراق ، أو الى ميناء تل ابيب الذى بناه مجلسها البلدى ومد الى جانبه ذلك « الكرنيش » الطويل محاكيـــا به كرنيش الاسكندرية فى كل شيء .. حتى فى « الاذرة الشامية » التى تشوى أو تسلق على زواياه ومنعطفاته ، ويقبل عليها المتنزهون والمتنزهات الى أواخر الليل !

فهى اليوم تتماسك على مضض ، أو على صبر أليم ، وحسبك من مدينة تفجع فى مواردها جميعـا ولا تزال ناهضة على قدميها فى اباء المناضل المستميت



الى جانب هذه « الشيخة » الصـــبور فتاة ماكرة لعوب تتيه عليها بدلال الفتنة وجمال الشباب ..

تلك مدينة تل أبيب ..

صبية لم تتجاوز الثانية والعشرين ، اذا نظـرنا الى مولدها الصحيح فى أعقاب الحرب الماضية ، ولم تتجاوز السادسة والثلاثين اذا نظرنا الى نشأتها فى عهد الدولة العثمانية أيام كانت هذه الدولة تحب أن تســـتعين بالدعاية الاسرائيلية فى مقاومة روسيا ودويلات البلقان، ولم تكن نشأتها يومئذ نشأة مدينة تزخر بالســـكان وتحتوى من الوافدين عشرات الالوف ، ولكنهـا كانت روضة للنزهة وقضاء ساعات الاصيل فى أيام الصيف والربيع ، ولهذا سميت « تل الربيع » حين غرسوها فى أول عهدها بالظهور ..

كذلك نشأت منذ نيف وثلاثين سنة على غير حذر من مواقبها السريعة لا من جانب الراعى ولا من جانب الرعية ...

أما اليوم فليست هى تلك الروضة البريئة التى يتنسم لديها أهل « يافا » نفحات الغروب من نسمات الربيع ..

ياله من صراع عجيب بين شيخة الامس وفتاة اليوم ..

وانه لصراع ظالم اذا ترك فيه الندان منفردين على النحو الذى نراه ، لأن « يافا » تقف وحدها هناك ولا تقف « تل أبيب » وحدها فى ميدانها .. بل تقف هنالك ومن ورائها أمة موزعة بين جميع أنحاء العالم تعينها بأحدث ما اخترعه العلم من الوسائل ، واخفى ما يعرفه المال من الاساليب ، واقوى ماتسيطر عليه السياسة من الخدع والاحابيل ..

واليافيون لا يغفلون عن الخطر الذى يستهدفون له ولا يجهلون ان الاساليب القديمة لن تجدى وحدها فى اتقاء هذه المنافسة التى تعتز بأحدث ماعرفه الناس من ضروب التعمير والاستغلال ..

فقد علمت من مدير المجلس البلدى بمدينة يافا انهم يعدون العدة لبناء الكرنيش الذى يضارع كرنيش تل أبيب ، ولتنظيم الطرقات التى لا تزال بحاجة الى التنظيم ..

وعلمت أنهم يؤلفون شركة كبيرة لبناء فندق فخم وناد حديث يستغنى بهما من يريد الاستغناء عن ارتياد الفنادق والاندية فى تل ابيب ..

وهذا كله حسن واجب ، بل هذا كله قليل من كثير ينبغى الشروع فى انجازه قبل أن يطول التفكير فيه ..

ولكن الحقيقة التى ينبغى أن تذكر فى هذا الصدد قبل كل حقيقة أخرى ، هى ان مدينة « يافا » لن تقوى على هذا الصراع العنيف على انفراد ، فلابد لها من عون سريع كالعون الذى ترجع اليه غريمتها ، ليجرى الامر بينهما على سنة الانصاف ، ويرجى منه اتقاء الهزيمة فى هذا النضال

الصهيونية والجامعة العربية

اذا عبرت « تل أبيب » رايت فى أكثر اوقات النهار زحاما يملأ جوانب الطرق من اليمين والشمال ، وخيل اليك ان القوم منصرفون من محفل اومقبلون على اجتماع فى منعطف الطريق ..

لان حركة المرور لا تنقطع فى « تل أبيب » من ساعات الصباح الباكر الى ما بعد العشاء ..

ولكنك مع هذا تلاحظ هذا الزحام المتلاحق فتعجب لأنك لا ترى فيه أحدا يلوى على أحد ، ولاتكاد تلمح انسانا يومىء الى انسان آخر بالتحية ، الا فى العرض النادر الذى يرجع الى محض الاتفاق ..

واعجب من ذلك انك تنظر الى القوم فلا ترى على وجوههم ما يدل على السعادة : سعادة الظفر بالامنية الروحية والمطلب التراثى القديم .. فلا تملك أن تسأل نفسك : ماهذا ؟ اهؤلاء قوم يهبطون الى ارض الميعاد بعد التفرق فى جوانب الارض مئات السنين ؟ ..

وتتخيل المسلمين فى عرفات ، او النصارى فى معاهد المسيحية المقدسة ، فلا ترى على وجوه القوم فى « تل أبيب » شيئا من دلائل تلك الاخوة الروحانية التى تفيض على وجوه الحجاج من جميع الاديان ، ولا يقع فى نفسك

الا ان القوم مسوقون الى هذه الحجة الموعودة ، وان الذى وجدوه هنالك غير الذى آمنوا به وصدقوه ..

وما فى الامر من غرابة اذا رجعت الى الواقـــع ، أو رجعت الى المعقول ..

اذ كانت حجة اليهود الى أرض الميعاد غير الحجـة الى عرفات أو الى كنيسة القيامة أو ماشابهها من مناسك الديانة المسيحية ...

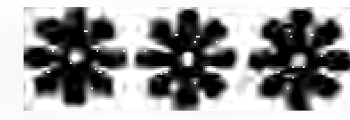
فان المسلمين والمسيحيين يقضون مناســـك الحج ويعودون الى أوطانهم التى نشأوا فيها وألفوا معالمها ..

أما اليهودي حين يهجر بلاده الى الوطن القـــومى بفلسطين ، فأنه يترك وطنه الذى نشأ فيه وألف معالمه ليستنبت نفسه فى وطن جديد .. ولا يفعـل ذلك الا بدافع قوى من الامل فى تحسين الأحوال ، أو بدافع قوى من الحماسة الروحية .. فليس من شك فى أن اليهـودى الناجح فى وطنه ــ الاوربى أو الامريكى ــ لن يهجر ذلك الوطن ليستأنف الحياة زارعا أو بائعا فى ناحية يجهلهـا من أرض فلسطين ، ولن يبيع نجاحه المحقق بأمل بعيد يمنيه به الزعماء الصهيونيون ، بالغا ما بلغ به الايمان بوعود صهيون ...

ولنـــذكر أن اليهودى قد الف العمـــل فى التجارة والصفقات المالية ، ولم يألف العمل فى الزراعة وتربيـة الدواجن وما اليها من اعمال الفلاحة ورعى الحيوان .. فهو لا يقدم على تبديل مألوفاته الا اذا اتفق الشـــظف والتعصـــب والامل فى المجهـول على اقناعه بالهجـرة وامداده بالبواعث النفسية التى تســاعده على هـــذا التبديل .. وقلما تعمر هذه البواعث الى زمن طويل ..

والذى نعتقده أن « النقلة الصـــهيونية » هى نقلة مصطنعة عارضة تخلقها تلك العوامل الموقوتة التى أشرنا

اليها ، وينفخ فيها عاملان آخران موقوتان ، وهما دعاية الزعماء واضطهاد الطوائف الاسرائيلية فى أوربا الوسطى واوربا الشرقية .. ولولا هـــــذان العاملان لبقيت الصهيونية حيث كانت أملا من آمال الخيال ..



ظهرت فى الايام الاخـــيرة مذكرات اللورد « هربرت صمويل » الذى كان أول مندوب سام على فلسطين من قبل الدولة البريطانية ..

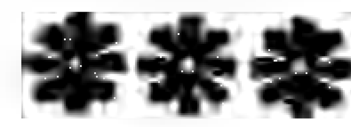
وهو سياسى فيلسوف ينتمى الى أسرة اسرائيليـــــة كبيرة فى البلاد الانجليزية ، ويتكلم بكثير من الصراحة عن موقف زعماء اليهود من الدعوة الصهيونية عند ظهورها واشتدادها فى اعقاب الحرب الماضية .ومن هذه المذكرات يتبين لنا ان ثلاثة من عظماء اليهود الانجليـــــز الذين شاورتهم الحكومة البريطانية فى اعلان الوطـــن القومى بفلسطين كانوا معارضين لاعلانه متشائمين من عقبـاه ، وعلى راسهم « ادوين منتاجو » الذى كان وزيرا للهنـد فى وزارة لويد جورج الائتلافية ..

فحماسة الشعوب الاسرائيلية للوطن القومى هى حماسة مصطنعة مبالغ فيها بغير مراء ، واقل ما يقال فيها انهـا ليست بالحماسة الاجتماعية التى تقاوم جميع المصاعب وتذلل جميع العقبات ..

وانما قامت الحركة كلها على دعاية الزعماء، وصادفت هذه الدعاية ماصادفته من النجاح لامرين لا مناص منهما للمثابرة على نشاط الحركة واستمرارها ..

هذان الامران هما : « أولا » سهولة الحصول عـلى الوطن القومى فى اعقاب الحرب الماضـــية . و « ثانيا » صعوبة المقام فى كثير من الاقطار الاوربية على اليهود ، لما كانوا يلقونه هناك من ضروب الحجر والاضطهاد ..

فاذا تغير الموقف بعد الحرب العالمية الاخيرة ، فصعب المقام فى الوطن القومى وسهل المقام فى الاقطار الاوربية بعد زوال الاضطهاد منها وفتح أبوابها لمشروعات التعمير وصفقات التجارة والمال ، فقد تتكشف الحركة المصطنعة عن حقيقتها الباقية فاذا هى أضعف من ان تقوى على الثبات الى زمن طويل



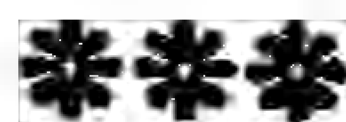
نعم ان الصهيونية تعتمد الآن ـ بعد القيام فى فلسطين زهاء ربع قرن ـ على عاملين آخرين غير تلك العوامل التى بعثت الحركة من مرقدها فى دفعتها الاولى ..

تعتمد الآن على الجيل الجديد الذى يولد وينشأ فى تل ابيب وما يحيط بها من المستعمرات الاسرائيلية

وتعتمد كذلك على الصناعات الحديثة التى تأسست فى أيام الحرب الاخيرة على الخصوص ، واتصلت معاملاتها بأقطار الشرق الادنى وما جاورها من الاقطار

لكن الجيل الجديد الذى يولد وينشأ فى تل ابيب خليط من الاوطان المختلفة لا يمتزج بعضه ببعض فى زمن قريب

أما الصناعات الحديثة فلها مزاحم قوى من الصناعات الاوربية المتعطشة الى الاسواق ، ولها مزاحم آخر من الصناعات الوطنية التى تعتمد على الشعور الوطنى والضرورات الاقتصادية ، ولها بعد هذا وذاك كابح آخر من حراسة الاسواق الشرقية حيثما تنبهت الى أخطار الاحتكار ، وليست أزمات البطالة فيها بعد انتهاء الحرب بالازمات التى يسهل علاجها فى هذه الاوقات



كنت أقول لاخواننا الفلسطينيين كلما سألونى عن رأيى فى قضية بلادهم وقضية البلاد العربية : اننى

متفائل قوى التفاؤل عظيم الرجاء فى مصير البلاد الشرقية على الاجمال . .

ولكنني كنت اشفع ذلك دائما بتفسير التفاؤل الذى أعنيه واعقد عليه عظيم الرجاء . .

فالتفاؤل المحمود هو التفاؤل الذى يقنعك بأن العمل ممكن وانه مع امكانه مفيد . . .

ومتى آمنت بذلك فعليك ان تعمل وأن تحقق الفائدة التي ترجوها وان كلفك العمل أثقل الجهود . .

فلا فائدة من تعظيم خطر الصهيونية والارتفاع به الى ما وراء طاقة الجهود البشرية . .

ولكن لا فائدة كذلك من تهوين هـــذا الخطر اذا لم يقترن تهوينه بالشروع فى العمل المفيد . .

والجامعة العربية خليقة أن تنتهز فرصة العمـل فى هذه الآونة لانها فرصة سانحة بعد الحرب الاخيرة وفى مفتتح الحياة الجديدة التى تستعد لها الاقطار الاوربية، ممن كانت على صلة بالمسألة الصهيونية او باضـــطهاد اليهود ، وقد تفتح ابوابها غدا لمن يؤثرون العودة اليهامن أرض الميعاد اذا عز عليهم الوفاء بمـــا وعدهم به الدعاة والزعماء . .

ولا غنى للبلاد العربية على أية حال ــ لخدمة نفسها لا لخدمة القضية الفلســـــــطينية وكفى ــ من تنظيم الصناعات الحديثة ، وتنظيم الاسواق فى وجه المعاملات الطارئة عليها ، ومن منـــع الاحتكار فى أيدى فريق من الناس كائنا ما كان . .

واذا استقامت البلاد العربية على هذا الطريق فقــد استقامت على الطريق السوى الذى يفضى بهـــا الى النجاح فى جميع قضاياها ، ومنها قضية فلسطين

الحالة الاجتماعية

المجتمع الفلسطينى قريب من المجتمع المصرى فى تكوينه وفى معظم آدابه وعاداته ، ولا يختلفان الا فى بعض التقاليد التى ترجع أولا الى امتزاج شعائر الاسرة المصرية بشعائر الحداد الموروث من أقدم العصور ، وترجع ثانيا الى الزراعة المصرية والبادية الفلسطينية.. فمصر تنقسم الى عاصمة وقرية ، وفلسطين تنقسم الى حاضرة وبادية ، وأن كانت باديتها اخصب من بادية الصحراء واقرب الى العمار ...

ولا يزال سلطان البادية ظاهرا فى تقاليد الاسرة الفلسطينية سواء منها الاسلامية أو المسيحية ..

والبادية كما لا يخفى تشتد فى المحافظة الاجتماعية وتحب البقاء على القديم ، واظهر ماتبدو عليه هذه المحافظة الاجتماعية فى حجاب المراة ونظام الحياة الزوجية .. فان بنات الاسر فى حواضر فلسطين متعلمات على نصيب وافر من الثقافة العصرية ، ولا يندر بينهن من تحسن لغة أو لغتين من اللغات الحديثة ، ولكنهن قليلات الظهور فى الحياة العامة ، وقلما تجسر السيدة منهن أو الفتاة على السفور فى الطريق الا أن تكون من اسرة قوية السلطان مهيبة الجانب تحميها بسلطانها وهيبتها أن

تتعرض للاذى والمهانة من بعض من ينكرون السفور ، وهم كثيرون ..

فاذا سفرت السيدة أو الفتاة من البيوت المتوسطة التى لا تخشى شوكتها فقد يصيبها ما يسوءها فى طريقها، ولا يتقدم أحد لحمايتها ، لانها تستحق ما تلقاه فى رأى السابلة من طبقات العامة ومن يحسبون حسابها ..

ونحن لا نتمنى لفلسطين ذلك الشطط الذى تمادى فيه بعض السافرات فى بعض الاقطار الشرقية .. ولكننا نعتقد أن تيسير الحجاب والتخفيف من قيوده الثقيلة نافعان للمجتمع الفلسطينى فى مرحلته الحاضرة ، ولعلهما نافعان له جد النفع فى مكافحة « تل أبيب » ومغرياتها ، لان الفتى الذى يصحب خطيبته أو زوجته فى رياضته اليومية يشعر بالامانة الزوجية ماثلة امام عينيه فى بيته وفى طريقه ، وتغنيه هذه الصحبة المشروعة عن تلك الصحبة الموبقة التى تذهله عن كرامته وماله وقضية بلاده

ولسلطان البادية القوى اثر فى السياسة الفلسطينية. لان الزعماء هناك هم ـ بطبيعة تكوين المجتمع ـ رؤساء العشائر وعمداء البيوت العريقة فى الحواضر ، ولهم من النفوذ فى السياسة بمقدار مالهم من الاشياع والاتباع والاقرباء وانصار العصبيات ، وهم الذين نهضوا باعباء الحركة فى اشدها ، وتعرضوا لمخاطر الموت والابعاد من اجلها ..

وقد اضيف الى هذا العامل الموروث عامل مكتسب من نفوذ الدين أو نفوذ الرئاسة الرسمية ، بل اضيف اليه ماتقضى به اطوار العصر من رعاية البرامج والمبادىء التى تتعلق بها آمال الشعوب فى الزمن الحديث ..

ولا تخلو فلسطين من ذلك القلق الذى يخامر نفوس الشباب ويعجلهم على الصبر والانتظار ، ومطاولة الاحوال التى درجت عليها السياسة فى ايدى الرؤساء والعمداء

وقد سألنى بعضهم سؤالا صريحا فى حفل حاشد عن الزعامة السياسية والبرامج الوطنية فقال موجها الى الخطاب : الا ترى أن ينفرد الشباب بقيادة الحركة القومية دون الرؤساء والعمداء ؟..

فلمحت على وجوه الحاضرين أن صاحب السؤال ينوب فى الحقيقة عن الاكثرين منهم ، وانه يعبر عن خاطر يساورهم ويدور عليه النقاش الطويل فيما بينهم ، فقلت : ان الشباب يستطيع أن يسمع صوته فلا يقوى الزعماء على اغفاله ، ولايزال للشباب عمل كثير يضطلع به فى خدمة وطنه قبل أن يتصدى لمهمة الزعامة الشعبية ، ولكنه اذا رزق الالمعية النادرة التى ترشحه لقيادة قومه فان هذه الهبة الفطرية لن تخفى على أحد ، ولن تحول الحوائل دونه و دون القيادة التى يستحقها ، اذ لاحاجة به يومئذ الى التوسل والرجاء فى طلب الاعتراف له بالكفاءة الممتازة والزعامة الموهوبة ، لان الكفاءة الممتازة تفرض مكانتها على من يعرفها ومن ينكرها على السواء ..

***

والفلسطينى وسط بين المصرى وبين السورى واللبنانى فى الاقدام على الهجرة والتمرس بالمحاولات الاقتصادية فى بلاده او فى البلاد الاجنبية ..

فهو لايهاجر كما يهاجر السوريون واللبنانيون ..

وهو اجرأ على انفاق المال من أبناء الامم التى تعودت المحاسبة على الموارد والمصارف ، وانتظمت على الموازنة بين الارباح والخسائر ، منذ عهد بعيد ..

ولم يزل الى زمن قريب يعول على تربية الماشـــية والزراعة ، ويعول معها أحيانا على التجارة الدورية التى تجرى فى مواسمها على سنة الزراعة والثروة الطبيعية ..

وفى طبعه استقلال البدوى الذى تثقل عليه رياضة الحياة المدنية وتعنته بما فيها من الموانع والقيود ..

وقد قال لى رجل من أذكياء السوريين وذوى الغيرة منهم على القضية الفلسطينية : ان اخواننا هنا يتعبون كثيرا مع جماعة الصهيونية ، لانها تحاربهم بسلاح لم يتعودوه

قال ذلك وقد مررنا بخص من القش على شـــاطىء البحر فى جوار « يافا » يملكه رجل يهودى يطهو فيـــه الطعام لمن يستريحون لديه فى أثناء الطريق ، أو لمن يقصدونه فى طلب النزهة والاستجمام وقضاء فترة من الوقت فى ضواحى الخلاء ..

قال الدمشقى الاريب : لو نزل رجل من بلدنا هنا يوما واحدا وتناول هنا وجبة واحدة ، لما فارق المكان قبل أن يعيد حسبته فى ذهنه ويقدر نفقات المكان ونفقات الطعام ومكسب اليوم الواحد ثم مكسب الايام ..

فاذا أعجبه الحال وراقه المكسب ، فما هى الا أيام معدودات حتى يرى اليهودى خصا قائما الى جانب خصه يبيع الطعام الذى يبيعه ويهيىء المائدة التى يهيؤها ، وينزل عن بعض ربحه فى أيامه الاولى ليحول قصاد الخص القديم الى الخص الجديد ..

قال صاحبى الدمشقى : فليت الصهيونية تبتلى فى هذه الديار بمن ينافسونها هذه المنافسة وينازلونها بمثل هذا السلاح ..

قلت : ان الدرس غير عسير على من يرى الصراع من حوله ويعلم عاقبة التهاون فيه ..

***

واحسب ان المصريين والفلسطينيين فى مجال الهجرة فرسا رهان ، أو فارسان متقاربان ..

فمن فلسطين مهاجرون فى مصر ، ومن مصر مهاجرون في فلسطين ، وقد يعيش الفلسطينى فى مصر زمنا ثم يعود الى بلاده ، وقد ترى بينهم من يلقب بالانشاصي والبلبيسى والطنطاوى كما ترى بيننا من يلقب بالغــزى والرملى والعكاوى ، وكأنهم يتسابقون أو يتلاحقون فى حلبة واحدة لايخرجون منها ولا يسرعون الى تبديل معالمها ، سواء فى التقاليد الاجتماعية أو معيشة البيوت .. حتى «الملوخية» وهى صحفة مصريه لا يتقنها الطهاة فى غير وادى النيــل ـ قد اكلناها فى بيت أبى خضرة كما تؤكل على أفخــر موائدنا التى تعتز بتقديمها فى بواكيرها أو معقباتها .. لان أبناء هذا البيت يحافظون على تراثهم القديم منــذ كانوا بريف مصر ، ولا تزال لهم قرابة فيه ..

بين مصر وفلسطين جوار هو أقرب من جوار المكان لانه كذلك جوار التاريخ وجوار السكان

مصر والقضية العربية

سألنى فنان صهيونى : لماذا يهتم المصريون بمشاكل العرب ؟

فاستغربت سؤاله ، ولم اكتمه انه سؤال غريب . فعاد يسأل : وما وجه الغرابة فيه ؟ ..

قلت : وجه الغرابة فيه انك تنتظر الاهتمام من يهود أمريكا بجماعة الوطن القومى فى فلسطين وتحسبه من الامور الطبيعية التى لا تحتمل السؤال والاستفسار ، ولكنك تستغرب من العرب المتجاورين أن يهتم بعضهم ببعض ، وهم مضطرون الى هذا الاهتمام .. نعم مضطرون اليه ولو لم ينظروا الى المسألة من الوجهة الشعورية او العلاقة التاريخية الروحية ، لان استقرار السلام فى الشرق الادنى يعنيهم جميعا ويوجب عليهم أن يتداركوا اخطاره قبل وقوعها بشىء من الحيطة والمعاونة، ولا استقرار للسلام فى الشرق الادنى مع تهديد أمة كاملة فى استقلالها ومصالحها ومعالم وجودها

فلاح عليه انه كان يتوقع جوابا غير هذا الجواب ..

وكان غيره أصرح منه فى السؤال ـ وهو كاتب فى صحيفة « فلسطين بوست » الانجليزية يراسل بعض

الشركات البرقية ـ فسألني :

هل تريد مصر أن تسيطر على سياسة البلاد العربية ؟ ..

قلت : كلا .. ولو جاءتها السيطرة طيعة هينة بغير سعى منها ، لان الاساس الذى قامت عليه الجامعة العربية هو استقلال كل امة من أمم العرب التى تشترك فيها ، وبذل المجهود المستطاع لتمكين الامم الخاضعة للحكم الاجنبى من بلوغ استقلالها ، وليست لمصر مصلحة فى التوسع او زيادة التبعات والاعباء السياسية والعسكرية والاقتصادية ، ولكنها ترى المصلحة كل المصلحة فى التعاون بينها وبين الامم التى تقاربها فى الموقع الجغرافى والتراث التاريخى والوجهة السياسية ..

***

ان الشعوذة السياسية وحدها هى التى تسول لبعض الادعياء أن ينتحلوا لانفسهم صفة الزعامة على جميع الامم العربية ، كما ينتحلون لانفسهم صفة الزعامة المطلقة على الامة المصرية ..

وانما يخدم أولئك الادعياء أنفسهم بتلك الشعوذة البغيضة الى كل من يطلب الحرية وكل من يؤمن فى الشرق بمبادىء الديموقراطية، لانها تضير القضية المصرية كما تضير القضية العربية ، ولا تنتهى الى فائدة مرجوة لغير أولئك الادعياء فيما يتخيلونه من الاوهام والاحلام ..

انهم يتوهمون انهم يروجون فى سوق المناصب على قدر البضائع التى يعلنون عنها ويدخلون فى روع الاجانب انهم قادرون على تسليمها ..

فهم يبيعون ويشترون فى قضية مصر وقضية العرب على السواء ، ويخرجون المسألة من حدود التعاون المحمود الى حدود الزعامة المنكرة وما وراءها من الدعاوى والشبهات

ونحمد الله على ان الوقائع قد افهمت من يفهم ومن لا يفهم أن مصر تبغض هذا النوع من الشعوذة وتتشاءم به وتأباه ، وانها تعاف مزاج الدعاة الذين يدقون الطبول وينفخون الابواق حول انفسهم ، ولا ينزهون مطلبا من المطالب عن صغائر التهريج والتهييج ، لانهم لا يعيشون بغير اجراس المزاد فى سوق المساومات

ليس فى ساسة مصر اليوم - بحمد الله - من ينطوى على مثل ذلك المزاج ، فهم لا يعملون لمصر ولا لغير مصر ليحتكروا الزعامة الابدية على هذا الشعب او ذاك ، ولكنهم يعملون لانهم يعرفون الواجب ولا يتجاوزون به حدوده ، ويخدمون القضية العربية خدمة الاخوان أو الاعوان ، ولا يخدمونها - ولا يستطيعون أن يخدموها - من طريق الضجة الخاوية التى يعلن بها المعلنون عن تسليم البضاعة فى أسواق المطامع الاجنبية

هذا التعاون على أساس الاستقلال الموفور لكل امة من الامم العربية هو قوام الجامعة العربية ، ولا قوام لها بغيره ..

وينبغى ان يفهم الاستقلال هنا على أوسع معانيه او على جميع معانيه ، فهو يشمل الاستقلال الادبى كما يشمل الاستقلال فى عرف العلاقات الدولية ..

فلا افتيات فيه على حق امة من الامم فى الاعتماد على نفسها والتوفر على جهودها ، وليس من شأنه أن يحمل

احدا على التواكل ولا ان يحمـــل احدا على تجـــاوز الحدود ..

لكل امة عربية أن تنتظر المعونة من أخواتها وجاراتها..

ذلك حق الاخ على اخيه والجار على جاره ..

وعلى كل امة عربية ان تعمل ما فى طاقتهـــا لتحقيق مطالبها ..

ذلك واجب الانســـان على نفســـه بل واجبـــه لنفسه ...

وقوام الامر بين الجميع هو استقلال فى الراى والعمل وتعاون بين اخوان مستقلين فى الآراء والاعمال ..

فلا سيطرة هناك ولا قيادة ، ولا اعفاء من واجب ولا تجاوز فى الحقوق ..

***

ومن دواعى الغبطة اننى رأيت دلائل الشعور بهـــذه التبعة العظيمة ــ على هذا الاساس القويم ــ فى كل من لقيت من ذوى الرأى والمكانة بين خاصـــــة ابناء الامم العربية ..

فهم ــ مع ايمانهم بجدوى هذا التعاون الاخـــوى فى تخفيف الاعباء ومضاعفة القدرة على النجاح ــ يعتقدون انه قد ضاعف شـــــعورهم بالتبعـــة وتقـــديرهم للواجب ورعايتهم للحقوق ، لان عمل امة تسأل عنه امم ، وكـــلمة فريق من المجاهدين قد تحسب على كل فريق ..

قلت للكاتب الصهيونى : ان مصر لا تريد السيطـــرة على الامم العربية ولو جاءتها السيطرة بغير سعى منها ..

واحسبنى اردد كل رأى رشيد فى الاقطار العربيـــة حين اقول ان الضجة الخاوية التى سولت لبعض الظنون

أن تهجس فيها هذه الهاجسة قد ذهبت الى غير رجعة ، وان العمل الوقور هو العمل الوحيد الذى يليق بخدام هذه القضية الكبرى ، وانه لا يستقيم على أساس كما يستقيم على اساس التعاون الاخوى فى حدود الاستقلال المرعى ، ومرحبا بآمال الامم العربيـة فى الامة المصرية ولو طالبتها بالحصة الكبرى من المعونة وتوجهت اليها بالجانب الاكبر من الرجاء .. فحبذا مضاعفة الواجب كلما تضاعفت الطاقة ، وحبذا ان تزداد القدرة ويزداد معها التوفيق الى تحقيق الآمال

الفصل الحادي عشر

دين وفلسفة



الله

في رأينا أن مسألة وجود الله مسألة « وعى » قبل كل شيء

فالانسان له « وعى » يقيني بوجوده الخاص وحقيقته الذاتية ، ولا يخلو من « وعى » يقيني بالوجود الاعظم والحقيقة الكونية ، لانه متصل بهذا الوجود ، بل قائم عليـــه

والوعى والعقل لا يتناقضان ، وان كان الوعى أعم من العقل في ادراكه لانه مستمد من كيان الانسان كله ، ومن ظاهره وباطنه ، وما يعيه هو وما لا يعيه ، ولكنه يقوم به قياما مجملا

ونحن نخطىء فهم العقل نفسه حين نفهم أنه مقصور على ملكة التحليل والتجزئة والتفتيت ، وانه لا يعمل عمله الشامل آلا على طريقة التقسيم المنطقى وتركيب القضايا من المقدمات والنتائج واثباتها بالبراهين على النحو المعروف

فالعقل موجود بغير تجزئة وتقسيم ·· وهو في وجوده ملكة حية تعمل عملا حيا ولا يتوقف عملها على صناعة المنطق وضوابطه في عرف المنطقيين··وهو في وجوده هذا يقول:

« نعم » ويقول « لا » ويحق له أن يقولهما مجملتين فى المسائل المجملة على الخصوص

وقد يخطىء القول فى بعض الاشياء ولا يضمن الاصابة فى كل شىء • ولكن الخطأ ينفى العصمة الكاملة ولا ينفى الوجود • فقد يكون العقل المجمل موجودا عاملا وهو غير معصوم عن الخطأ الكثير أو القليل ، ولن يقدح ذلك لا فى وجوده ولا فى صلاحه للتفكير • لان « التقسيم المنطقى » يخطىء أيضا كما يخطىء العقل المجمل فى احكامه المجملة ، ولا يقال من أجل ذلك أن التقسيم المنطقى غير موجود أو غير صالح للتفكير

فاذا قالت البداهة العقلية : « نعم •• هناك آله » فهذا القول له قيمة فى النظر الانسانى لا تقل عن قيمة المنطق والقياس ، لانها قيمة العقل الحى الذى لا يرجع المنطق والقياس الى مصدر غير مصدره أو سند أقوى من سنده • وقد كان العقل المجمل أبدا أقرب الى الايمان وأقرب الى قولة « نعم » فى البحث عن الله ، ولم يستطع التقسيم المنطقى ان يقول « لا » قاطعة مانعة فى هذا الموضوع

وقد أسفرت مباحث الفلاسفة المؤمنين عن براهين مختلفة لاثبات وجود الله بالحجة والدليل ، ونحسب أننا نضعها فى موضعها حين نقرر فى شأنها هذه الحقيقة التى يقل فيها التشكك والخلاف : وهى أن البراهين جميعا لا تغنى عن الوعى الكونى ، وأن الاحاطة بالحقيقة الالهية شىء لا ينحصر فى عقل انسان ولا فى دليل يتمخض عنه عقـــل الانسان ، وانما الترجيح هنا بين نوعين من الادلة والبراهين ، وهما نوع الادلة والبراهين التى يعتمد عليها المؤمنون ، ونوع الادلة والبراهين التى يعتمد عليها المنكرون ، فاذا كانت أدلة المؤمنين ، أرجح من أدلة المنكرين فقد أغنى

الدليل غناءه وأدى القياس رسالته التي يستطيعها في هذا المجال ، وهي في الواقع أرجح وأصلح للاقتناع بالفكر ـ فضلا عن الاقتناع بالبداهة ـ كما يبدو من كل موازنة منصفة بين الكفتين

ولا يخفي أن قاعدة الاثبات والنفي في مناقشات الخصوم لا تنطبق على هذا الموضوع الجليل • فليس للعقل البشرى خصومة في الاثبات ولا خصومة في الانكار •• وليس على أحد عبء الدليل كله ولا على أحد عبء الانكار كله في البحث عن حقيقة الوجود

ونحن لا نحصى هنا جميع البراهين التي استدل بهـا الفلاسفة على وجود الله فانها كثيرة يشابه بعضها بعضـا في القواعد وان اختلفت قليلا في التفصيلات والفروع ، ولكننا نكتفي منها بأشيعها وأجمعها وأقربها الى التواتر والقبول وهي : برهان الخلق ، وبرهان الغاية ، وبرهان الاستكمال أو الاستقصاء ، وبرهان الاخـلاق أو وازع الضمير

محمّد الإنسان

من الاقوال المتواترة بين كثير من مؤرخى المسيحية ، انها انتشرت على يد بولس الرسول ، ولو لم يعرف المسيحيون قبل ذلك بهذا الاسم لعرفوا فى الغرب باسم « البولسيين » نسبة الى « بولس » الذى كان يدعى قبل ذلك باسم شاؤل

ويحمل الاستطراد بعض مؤرخى الغرب الى التماس الشبه بين انتشار المسيحية وانتشار الاسلام فى خصلة كهذه بين محمد عليه السلام وخليفة من أكبر أصحابه وهو الفاروق عمر بن الخطاب ، ويزيدهم ولعا بهذا التشبيه ان الفاروق كان ، أيام جاهليته ، أشد ابناء قريش أيذاء للمسلمين ، وكذلك كان بولس قبل ايمانه برسالة السيد المسيح . فانه آمن بها وهو متجرد لاضطهاد اتباعها فى حملة من حملاته على الشام

وهذه مشابهة مغرية بالمقارنة فى اكثر ظواهرها واشكالها ولكنها تنقضى عند حقيقة واحدة غفل عنها أصحاب المقارنات بين الاديان ، وتلك هى الفرق بين اثر الدعوة واثر الداعى بالنسبة الى الرجلين ، فان بولس الرسول لم يلق السيد المسيح ولم يعاشره على التحقيق ، ولكن الفاروق

كان هو نفسه غرسا من غروس محمد عليه السلام ، وكان فى كل ما عمله بعد اسلامه طالبا مجتهدا على يد معلم محبوب

واجتماع الرجال الافذاذ من قبيل ابن الخطاب هو مقياس العظمة الانسانية فى نبى الاسلام صلوات الله عليه ؛ فلم يحدث قط فى تواريخ الدعوات الدينية ، كتابية كانت أو غير كتابية ، ان اجتمع حول داع من دعاتها رهط من أفذاذ الرجال يدينون « لشخص » ذلك الداعى بالاجلال والمحبة ويعترفون له بالتفوق والرجحان راضين مغتبطين كما اجتمع الفاروق وأقرانه حول نبى الاسلام ، وقد ظل الفاروق طوال حياته يتحدث بعذوبة قول النبى له «ياأخى» مرة ونداءه له بكنيته « أبى حفص » مرة اخرى ، وظل غيره من الصحابة يحتفظون بكل اثر « شخصى » ظفروا به فى أيام صحبتهم له سنوات بعد سنوات

***

كان للانبياء والدعاة اصحاب كثيرون اوقليلون ، ولكنهم لم يذكروا بين عداد العاملين بين ابطال التاريخ ، ولم يجتمع قط فى صحبة طويلة للانبياء أمثال هؤلاء الاصحاب الذين حفوا بنبى الاسلام ، ولا نحصيهم فى هذا المقام ولكننا نذكر منهم ابا بكر وعمر وعثمان وعليا وخالد بن جبل ومعاوية بن العاص ، ومعاذ بن جبل ومعاويه بن أبى سفيان وابا عبيدة بن الجراح والمقداد بن عمرو ، وغيرهم من السابقين المتلاحقين فى هذا الطراز ، كل منهم أمة فى رجل أو قائد على جيش ، او مؤسس لدولة ، أو سيد بين علية قومه يؤتم به ويهاب ، وكلهم يلحظ فى عشرته لنبيه أنه يعتز برئاسته وولائه ، فضلا عن ايمانه به ايمان المهتدى بهاديه المصدق الامين

ذلك مقياس للعظمة الانسانية لم يتحقق قط لعظيم من عظماء بني الانسان ، ولا استثناء لاحد من العظماء الدينيين كان أو من العظماء الدنيويين

فالصداقة العالية اكبر برهان من براهين العظمة المحمدية فى صورتها الانسانية ، مع صورتها القدسية الالهية ..

ومحمد الصديق هو أعظم العظماء بين بنى الانسان بمقياس هذه « الظاهرة » النفسية الفذة فى تواريخ العظماء

***

ولسنا نقول غير الحقيقة التى تثبت كل الثبوت بمعيار النفوس ، اذا قلنا ان محمدا الزوج اعظم نفسا وخلقا من محمد الصديق

ان الاراذل من المحترفين بالتبشير الدينى قد ابتذلوا كل أدب من آداب الدين ، وكل خلق من أخلاق الكرام ، حين اتخذوا من زواج محمد عليه السلام مذمة يعيبونه بها ، حاشاه ، بين رسل الله بل يعيبونه بها بين عامة الخلق من عباد الله

ولو كان محمد كما ارادوا أن يكون طالب متعة فى زواجه لكان على النقيض مما كان

لو كان كما أرادوا لكان فى حريمه عشرات من أجمل العقائل والجوارى ، من بيوت العرب ومن سبايا العجم والروم ، يرفلن فى الحرير ويتحلين بالذهب والجوهر ، ويأكلن على سماط كسماط قيصر وكسرى وبلقيس

ولكنه كان وحوله من الزوجات الكهلة والشيخة والتى مات عنها زوجها والتى عز عليها الزواج من غيره ، ولم تكن بين هؤلاء غير فتاة عذراء واحدة هى بنت صديقه

ابى بكر الصديق ، وكن جميعا يشكين قلة المؤنة وشظف العيش ويخيرن بين الطلاق وبين انبقاء على هذه الحال : « يأيها النبى قل لازواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيــا وزينتها فتعالين أمتعكن واسرحكن سراحا جميلا ، وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخــرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما »

واذا بحثنا عن بواعث الزواج النبوى كلها لم نجــد بينها غير باعثين اثنين كان لهما الاثر الاول والاخــير فى اختياره عليه السلام لكل زوجة من زوجاته : وهمامصلحة الدعوة والمروءة العالية

فقد بنى بثلاث من زوجاته لانهن بنـــات أصحابه الاوائل : ابى بكر وعمر وعثمان ، وليس للاخوة فى الله من سند انسانى فى بلاد العرب أوثق من الاخــوة فى النسب والمصاهرة

واولى زوجاته خديجة رضى الله عنها كانت فى نحــو الاربعين يوم بنى بها وهو فى نحو الخامسة والعشرين ، ولم يكن وفاؤه لها وفاء الحس والمتعة ، لانه فضلها على أصغر زوجاته ، وأحبهن اليه : عائشة بنت الصــديق ، عليهما الرضوان . .

وكانت ام سلمة مسنةحين قتلزوجهاعبد الله المخزومى فى واقعة أحد ، ورملة بنت ابى سفيان تركت اباها لتسلم وتركت وطنها لتهاجر ، وفارقها زوجها بغير عائل وهى فى الحبشة ، فطلبها النبى من النجاشى وتزوج بها لكى لا ترتد وهى عائدة الى أهلها . وصفية الإسرائيليــة خيرت بين العودة الى قومها وبين العتق وزواج الحرائر غير السبايا فاختارت زواجها بالنبى عليه السلام

واكرم ما كان من بواعث المروءة فى اختيـ ـار زوجات

النبى قد كان ذلك الـــزواج الذى خاض المبشرون فى حديثه ، وزعموه عشقا غلبه على نفسه الكريمة ، حاشاه فطلقها من فتاة زيد ليضمها اليه

فقد كانت زينب زوجة زيد بن حارثة من بنات عمومته عليه السلام رآها منذ طفولتها الى يوم زفافها ، ولم تكن من الغريبات اللاتى يفاجأ برؤيتهن لاول مرة فى بيوت أزواجهن ، وانما كان كرم النبى هو الذى حبب اليـه أن يرفع من شأن الاسير الغريب فيجعله أهلا لمصـــاهرته ومصاهرة بنى هاشم من أبناء عمومته ، وقد شق عـــلى الفتاة ان تسكن الى العيش مع رجل من غير أكفائها ، ثم شق على زيد ان يواجه النبى بتسريح بنت عمته بعـــد ما كرمه بمصاهرته ، فكان كرم النبى باعثه على اعفـــاء الزوج من ضنك هذه العشرة واعفاء الزوجة من اهمـــال يصيبها بعد طلاق يذلها ، ثم يقصى عنها الخاطبين الذين لا يتقدمون مختارين الى مطلقات الارقاء ، وتمت القدوة كما أرادها الانســـان بمروءته ، وأرادها النبى بتشريف الاسير وجبر الخاطر الكسير

وان الانسان ـ حق الانسان ـ ليعرف من أمر محمد فى اختيار زوجاته جانبا من المروءة المثلى فى صاحب الدعوة الالهية ينبىء عن تلك العظمة الانســانية التى تمثلت فى مكانة الرجل بين صفوة الابطال من عظماء الرجال ، فهو كذلك لانه انسان عظيم ، غاية ماترتقى اليه شمائل الرجل العظيم

***

ولقد كانت معاملة محمد لنسائه صفحة اخـرى من صفحات تلك المروءة التى يسمو بها ـ انسانا عظيما ـ الى شرف الرسالة الالهية . فمن وصاياه ، نبيا ، ان خـير

الناس خيرهم لنسائهم ، ومن رعايته لهن ، انسانا ، قد ضرب للرجال مثلا يعلو على غاية الغايات فى العمل بتلك الوصية ، فما من رجل مضت له فى العشرة الزوجية سنوات طوال لم تفلت من لسانه الكلمة النابية ولم تبد على وجهه اللمحة القاسية ، ولم يلق امرأته بحالة من الشدة تبدر من الرجل للمرأة كما تبدر من المرأة للرجل ، وهذه سيرة محمد مفصلة مطولة لم يهمل رواتها خبراً من أخبارها ولم يسقطوا حديثا من أحاديثها التى تؤثربالنقل والرواية ، فما انتقلت الينا منها كلمة زجر ولا نظرة سخط ولا لمحة تأنيب أو زراية ولم يكن له فى حالة غير حال الرضا موقف أشد من موقف العتاب فى صمت أو السؤال فى غير اقبال ، وتلك شيمة من شيم الرفق الانسانى تتلاقى عندها طبائع الملائكة وطبائع البشر من أبناء آدم وحواء

وليس هذا من صنيع رجل لا يعرف الغضب فليس من لا يعرف الغضب بانسان ! ولكنها قدرة على النفس حيث تحمد القدرة فى موضعها ، وهى احمد ما تكون من رجل اذا غضب حق الغضب استطاع ان يوقع بمن يغضب عليه ماليس فى طاقة الاقوياء بله الضعفاء ولقد غضب النبى على اناس خدعوه وكفروا نعمته وقتلوا الآمنين من رجاله واستدرجوهم ليعلموهم الدين كما زعموافغدروا بهم وانتزعوا منهم ما أحسنوا به اليهم ، فغضب الانسان محمد ، والنبى محمد ، حيث يعاب الرضا والهوادة

غضب على الغدر والشر والخداع والغلظة ، وجزاهم الجزاء العدل وهم غير أهل للرحمة ، ولم يحرمهم الرحمة وهى ليست عنده أو ليست من الزم شمائله ، بل حرمهم رحمته ورحمة الله لان الرحمة بهم قسوة على كل خلق شريف فى الانسان ، فكان غضبه سواء لرفقه ورحمته

فى خير ما يحمد من انسان

ولقد يكون الضعف الانسانى خير مقياس للعظمة الانسانية فى أرفع مراتبها ، بل هو فى الواقع اصدق قياسا للعظمة الحقة من منازلة الابطال الاشداء من الرجال فان من يغلب بقدرته قدرة تصارعها وتضارعها عظيم ، ولكن القدرة التى هى أعظم من قدرة القاهر الغلاب قدرة تغلب نفسها باختيارها لترفق بالضعيف الذى لا طاقة له بقهرها ولا غنى له عن رفقها ولا أمل له فى النصفة من غيرها ، ولا حصر لمآثر النبى التى شمل بها الضعفاء فى عنفوان قوته ونصره ، ولكننا قد نحصرها كلها اذا ذكرنا منها تلك المروءة التى حببت اليه أن يجبر خاطر الاسير الضعيف المنقطع عن أهله ، فيرفعه الى مقام مصاهرته فى أقرب الناس اليه ، وتلك آية من ايات « الانسانية »الحقة أروع ما فيها ان تأتى من النبى العربى القرشى الهاشمى، وليس أحق منه باعتزاز النسب فى مقام المصاهرة

ان محمدا الصديق لانسان فى الذروة من عظمة الانسانية

وان محمدا رب الاسرة لفى الذروة من رفق الانسانية

وان محمدا المنتقم لفى الذروة من بأس الانسانيةوعدل الانسانية والرحمة بالانسانية

وان محمدا السيد لفى الذروة من بطولة الانسانية

وان محمدا الاب قد عرف ضعف الانسان فبكى بكاء الانسان ، فكان فى موضع ضعفه نعم الاب الانسان ، ونعم النبى المرسل فى آن

بكى وهو يحمل جثة وليده الصغير ابراهيم على يديه ، ونظر الى الجبل فقال : « يا جبل ! لو كان بك مثل ما بى

لهدك . ولكن انا لله وانا اليه راجعون »

وكان النبى الصادق الامين أقرب ما يكون يومئذ من الانسان الباكى الحزين ، فلما انكسفت الشمس وقيل انها انكسفت لموت ابراهيم أبت النبوة على الاب أن يبلغ بالبنوة هذا المبلغ فى سورة الوجد عليها ، فقال الاب الذى انكسفت الشمس حقا فى عينيه : كلا ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا حياته »

بهذا الحزن الصادق وهذا الصدق الحزين استحق الانسان محمد بمشيئة الله أن يصبح رسوله الى الناس : والله أعلم حيث يجعل رسالته ، كما قال عن من قال

ومحمد «الانسان» هو الذى استحق كرامة النبوةفصنع فى تاريخ الكون ما لم يصنعه قط انسان سواه : أربعمائة ألف ألف من بنى الانسان هم اليوم فى مشارق الارض ومغاربها يقرنون اسمه باسم خالق الارض والسماء كل صباح ومساء : لا اله الا الله محمد رسول الله

ليلة القدر

ليلة القدر خير من الف شهر ..

والمتفق عليه بين جلة المفسرين ان ليلة القدر شرفت هذا التشريف لنزول القرآن الكريم فيها ، ولا خلاف بينهم على هذا المعنى ، ولكنهم ـ كعادتهم فى تحقيق كل دقيقة وجليلة من تفاصيل الآيات والاخبار القرآنية ـ يفسرون نزول القرآن على كل وجه من وجوهه المحتملة . اذ يجوز أن يكون المقصود به ابتداء النزول كما يجوز أن يقصد به نزول الكتاب كله جملة واحدة ، ويشير القرطبى وابن كثير الى قول القائلين ان ليلة القدر اسم جنس لجميع الليالى التى تنزلت فيها الآيات ، قد تبلغ عدتها عشرين أو اكثر من عشرين ليلة على هذا الاحتمال ، ولكنه قول لا يأخذ به الكثيرون وان اخذوا بتعدد الليالى التى تنزلت فيها آيات الكتاب

والمفسرون الذين يحققون ان ليلة القدر ليلة واحدةمن ليالى شهر رمضان يرجحون انها احدى لياليه العشر الاخيرات ، وانها على الارجح ليلة السابع والعشرين منه لاسباب لا محل لتفصيلها فى هذا المقام

ومن المفسرين من يرى أن نزول القرآن الكريم جملة واحدة هو المقصود بنزوله فى ليلة القدر يعزون رأيهم بأن ابتداء نزول الآيات كان نهارا ، ولم يكن فى ليلة من

الليالى . لانه من المتواتر ان النبى عليه السلام خوطب بأول آية كريمة وهو عاكف بغار حراء ، وقيل له (اقرأ) فقال : ما أنا بقارىء ، الى آخر ما وردفى الحديث المشهور ، ولكن الامر الذى لا خلاف فيه أن ســـورة العلق التى افتتحت بهذه الآيات قد تمت بعد ذلك لما ورد فيها من الاشارة الى الامور التى حدثت كما قال الاستاذ الامام « بعد شيوع خبر البعثة وظهور أمر النبوة وتحرش قريش لايذائه عليه السلام »

فلا خلاف على وجه من الوجوه فى تشريف ليلة القدر لنزول القرآن الكريم فيها آيات متفرقة أو جملة واحدة ، وان حكمتها الكبرى انها هى ليلة الفـــرقان كما جاء فى سورة الدخان « انا انزلناه فى ليلة مباركة انا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم »

فهى ليلة القدر لانها ليلة التقدير والتمييز بين الخير والشر والتفريق بين المباح والمحظور ، والامر بالدعوة والتكليف ، وهو اشرف ما يشرف به الانســـان لانه هو المخلوق المميز بالتكليف والمخصوص بالتمييز بين جميع المخلوقات ، ومن أجل هذا فضل على الملائكة لانها لاتتعرض لما يتعرض له الانسان من فتنة التمييز بين المباح والمحظور وفضيلة الوصول الى الخير والامتناع عن الشر بمشيئة الحى المكلف المسئول ، وقد افتتحت دعوة محمد عليـــه السلام بالامر بالقراءة واقترن تمييز آدم على الملائـــكة بفضيلة العلم كما جاء فى وصف الخليقة من الكتاب المبين:
« هو الذى خلق لكم مافى الارض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شىء عليم ، واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال انى أعلم مالا تعلمون ، وعلم آدم الاسماء

كلها ثم عرضهم على الملائكة ، فقال انبئونى باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم ، قال يا ادم انبئهم بأسمائهم فلما انبأهم بأسمائهم قال الم اقل لكم انى أعلم غيب السموات والارض واعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون »

وقد جاء وصف الانسان بهذه المزيه بعد الامر بالقراءة فى أول آية خوطب بها عليه السلام : « اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم »

وهكذا ينبغى أن نفهم معنى القرآن ومعنى الفرقان ومعنى التقدير والتمييز الذى خص به الانسان ، ومعنى الامر الحكيم الذى يفرق فى ليلة القدر ، بأمر العليم الحكيم

فالشرف الذى فضلت به ليلة القدر انما هو شرف التقدير والتمييز ، وشرف القرآن والفرقان ، وشرف التكليف الذى رفع به الانسان الى منزلة أشرف المخلوقات وحق عليه أن يذكره لانه محاسب عليه ، فيذكر فى كل يوم وليلة انه مسئول عما يفعل ، وانه مشرف بين الخلائق جميعا لانه مناط السؤال والحساب

وعلى هذا المعنى وحده ينبغى أن نفهم التقدير الذى يرتبط بنزول القرآن وبأمر القراءة والعلم الذى يفرق به كل أمر حكيم

ومن حقائق البداهة التى يدين بهـا المؤمن بالله انه سبحانه وتعالى يقدر الاقدار ويقسم الارزاق ، ويحيى ويميت ، ويجرى قضاءه فى صروف الحوادث واطوال الحيلة والاحياء ، ولكن اقتران ذلك بليلة واحدة من ليالى الزمن امر لا يقول به المؤمن بالاله الواحد السرمد الذى لا اول له ولا آخر ، ولا تأخذه سنة ولا نوم ، وانما يتخلف هذا الاعتقاد من بقايا الاديان التى ظلت تعددالارباب وتخص

كل رب منها بوقته وسمائه ، أو تشبهه بما يعده الانسان من أعمال أصحاب التصريف والسلطان من بنى نوعه المحكمين فيه ، وتجعل للسعود والنحوس اياما تتعلق بمطالع النجوم ومدارات الافلاك ، ويستنزلها العارفون بأسرار النجوم عندهم توسلا اليها بشفاعة القرابين والضحايا ورموز الطلاسم والعبادات

ومن بقايا تلك العقائد الوثنية تسربت عقيدة التقدير فى احدى ليالى السنة ، وسرت الى بنى اسرائيل بعد اختلاطهم بعباد النجوم والارباب الارضية أو الفلكية فى أرض بابل فأخذت سبيلها مع سائر الخرافات والاسرائيليات الى عامة المسلمين ، فظهرت فى تلك الاساطير التى احاطت بأخبار ليلة القدر وعدلت بتلك الليلة المباركة عن معناها الذى يتصل به شرف الانسان وشرف التمييز والتكليف الى معنى يناقضه ويبطل حكمته ويبطل حكمة الاسلام فى جملته ، لانه يرتهن السعادة والشقاء والمثوبة والجزاء بغير الاعمال والمقاصد ويعود بها الى أرصاد الليالى والايام ورموز الشفاعات والقرابين

كان قدماء البابليين يحتفلون بسنتهم الزراعية ويبتهلون الى أربابهم فى مطلعها أن يغدق فيها المطر ، ويورق فيها الشجر ، ويجعلها سنة أمن ورخاء ونعمة وثراء ، لاعتقادهم ان أرباب النجوم تقضى فى الليلة الاولى من مطلع السنة كل ما يقضى من امور الخصب والجدب والرزق والحرمان والحياة والموت ، وكان من عقائدهم ان للاعمار شجرة تخضر أوراقها او تذبل مع اخضرار الشجر على الارض وذبوله ، فمن كتب له العيش اخضرت ورقته ، ومن قضى عليه بالموت ذبلت ورقته وسقطت فلم يبق منه غير عود كعيدان الحطب بغير روح ، وكان من عقائدهم مع هذا أن اخضرار الورقة وذبولها مرتهنان بمراسم الصلاة

وطلاسم السحر التى يتولاها الكهان ويفرضون من أجلها القرابين والهدايا على طلاب الصلوات والدعوات

وقد نقل الاسرائيليون كل ذلك الى عيد من أعيادهم التى اختلطت فيها عبادة الاله بعبادة الارباب الوثنية ، ثم تسربت منهم الى عامة المسلمين ، وانخدع بها من غير العامة من كان يحسب ان القوم ينقلون ذلك عن مصادر الكتاب الصحيحة ، فأضافوا الى ليلة القدر اكثر ما كان يقال عن مراسم السنة الزراعية عند البابليين ومراسم التكفير عند كهان اسرائيل

ولعل انتقال بعضهم بليلة القدر الى منتصف شهر شعبان ، مع وضوح نسبتها الى شهر الصيام فى القرآن الكريم ، انما جاء من ذلك الاعتقاد القديم فى السنة الزراعية اذ كان شهر شعبان انما سمى بذلك لانشعاب عيدان الشجر فيه على ما جاء فى روايات الجاهلية ، فهو أشبه بما كان يقال فى بابل القديمة عن شجرة الحياة وعما يعرض لها من « اشعاب » الاعمار بين الاخضرار والذبول

لكنه فى الواقع « انشعاب » آخر بين العقائد الاسلامية فى صميمها وبين العقائد التى تخلفت عن عبادة الاوثان والارباب من دون الله

فالعقيدة الاسلامية فى صميمها لا تتمثل فى شىء كما تتمثل فى التكليف والتمييز ، وفى المخلوق العاقل المسئول الذى يدان بعمله ولا يصيبه الجزاء أو الغفران من عمل غيره ، وهنا تنشعب العقائد بين ليلة القدر فى شريعة المسلم وبين اشباه هذه الليالى فى كل شريعة يناط فيها قدر الانسان بغير الاعمال والنيات وان المسلم ليعود الى اسلامه الصحيح كلما احتفل بليلة القدر ، وهو يذكر انها ليلة فرقان وحساب ، وانه يدعو الله فيها ليشرف بما شرفته به الليلة المباركة من آيات التقدير والتذكير

القصة في القرآن الكريم

القصص فى اللغة هو تتبع الاثر لمعرفة المكان الذى نزل به أصحابه أو سلكوه

ومن هنا قيل للحكاية عن القوم انها قصة ، لان من يحكى عنهم يتتبع أثرهم ليعرف خبرهم ، فهو يقص سيرتهم فى الزمان ، كما تقص السير فى المواقع والجهات

وقد وردت الكلمة فى القرآن الكريم بالمعنيين فى سورة واحدة . فجاء فى سورة الكهف : « فارتدا على آثارهما قصصا » بمعنى تتبع الاثر لمعرفة الطريق ، وجاء فيها : « نحن نقص عليك نبأهم بالحق انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى » بمعنى تتبع الخبر فى التاريخ

ولكن كلمة القصص فى القرآن الكريم تنصرف على عمومها الى معنى الهداية الى الاخبار والآثار الباقية من سير القرون الغابرة ، وهى تساق فى الكتاب لمقاصد كثيرة تجمعها كلها هذه المقاصد الثلاثة :

فهى تساق للعبرة والموعظة ، او تساق للقدوة وتثبيت العزيمة ، أو تساق للتعليم والهداية

وتتلى قصص العبرة والموعظة فى القرآن الكريم لتذكير

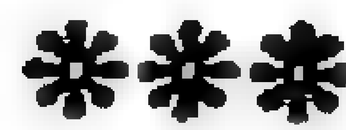
الاحياء بمصائر الغابرين من الامم الاولى ، وكانت توصف بأنها أساطير الاولين من الكلام المسطور أى المكتوب ، وقد تكون الكلمة أحدى الالفاظ التى تعربت عن اليونانية ، لان « الاستوريا » عندهم بمعنى الخبر المسجل أو المعروف ، ولا يبعد أن يكون اليونان قد أخذوها عن العرب لانهم أخذوا الكتابة عن الامم السامية وسبقهم عرب الشمال وعرب الجنوب الى رسم الحروف ، ولا تزال أسماء « الالفا والبيتا والجما » عندهم منقولة من الالف والباء والجيم ، بل يرجع أن كلمة « كلموس » اليونانية أى « القلم » منقولة عن العربية ، لان القلامة أصيلة فيها ، ومن مادتها « القصم والقضم والقطم والقحم والقرم » وكلها تفيد القطع كما يفيده التقليم ، وكذلك السطر والشطر بمعنى الخط أو القط فى العربية ، يقال سطره وشطره وخطه وقطه بمعنى واحد ، فليس من البعيد أن تنتقل هذه الكلمات مصاحبة للكتابة التى لا شك فى انتقالها من الامم السامية الى اليونان

وقد ترددت فى القرآن الكريم اخبار الاولين على سبيل العبرة والموعظة ، وكان مدارها جميعا على تحذير الامم الباقية من الاغترار بالمتعة .. كما اغترت بهـــا الامم الخالية ، وكانت هذه العظات الزم العبر لتلك الامم التى آمنت بالاوثان والارباب ولم تؤمن بالوحدانية ، فانها اذا علمت أن أربابها لا تحميها من الكوارث ، ولا تقدر على اصابتها بها ، ذهب ايمانها بتلك الارباب ، ووجب عليها أن تبحث عن قوة الهية تملك القدرة التى عجزت عنها معبوداتها

وفى القرآن غير القصص التى تدعو الى العبرة بمصير الكافرين أنباء تروى عن الانبياء الذين أرسلوا الى الامم الغابرة ، فكذبتهم وتنكرت لهم ، ثم ظهرت دعوتهم وحاقت

النقمة بمن كذبوهم وانكروهم ، وبقيت قدوتهم لينتفع بها من يعملَ عملهم ، ويقفو أثرهم ، ويلقى من قومه مثل ما كانوا يلقونه من أقوامهم ... « وكلا نقص عليك من انباء الرسل ما نثبت به فؤادك » كما جاء فى سورة هود

وهذه على الجملة حكمة القصص التى جاءت فى الكتاب عن جهاد الرسل وعاقبة الصبر على الدعوة ، تثبيتا للافئدة وتبشيرا للدعاة والمصلحين بعاقبة الصبر على الجهاد



ومن قصص التعليم والهداية فى القرآن قصة موسى والخضر عليهما السلام ، يرى بعض المفسرين أنها درس لاصحاب الشرائع يفرقون به بين شريعة الظاهر وشريعة الباطن كأنهما على اختلاف ، كما اعتقد أناس من القائلين بالاسرار والاشارات الخفية ، ويرى الثقات أن القصة درس لاصحاب الشرائع حقا ولكنهم يفهمون من هذا الدرس ان سعة العلم من شروط القضاء بين الناس ، وان العدل منوط بمقدار ما يعلمه الحاكم من شئونهم وحقائق أحوالهم وأسباب مصالحهم ، فلا يتساوى فى العدل قاض يعرف تلك الاحوال على حقائقها واخر ينظر فيها بما يبدو له من ظاهرها ، وذلك درس لا غنى عنه لمن يقضى بشريعة من الشرائع تجرى على قسطاس واحد ولا يختلف فيها ظاهر وباطن ، كما يعتقد القائلون بالاسرار والاشارات الخفية ، فلا حاجة بالقاضى العادل الى غير العلم بحقيقة القضية التى بين يديه ، ثم لا يختلف فيها بعد ذلك قولان

ومن الواجب أن نذكر ان قصص القرآن جميعا تساق للموعظة والتعليم وحسن القدوة ، وانها تأخذ من التاريخ

ما فيه الغنى لكل سياق أو مقصد يعنى به الدين . فليس المقصود بها تفصيل التواريخ ولا تسجيل الوقائع والسنين ، وليست حكمتها موقوفة على شيء غير ما فيه الكفاية لهذه المقاصد كما يفهمها النـــاس

ولكن الجانب التاريخي المحض من القصص الديني قد كان له درسه النافع للمتعجلين من أدعياء التحقيق ـ العلمي ـ منذ أوائل القرن التاسع عشر ، لعلهم لا يستغنون عنه بعد انتصاف القرن العشرين . فقد كان ورود الخبر في كتاب من كتب الدين كافيا عندهم للجزم باختـــلاقه وحسبانه في عداد الخرافات أو في عداد الخيالات الشعرية التي لم تحدث قط في غير أوهام الشعراء ، فلم تمض سنوات على الشروع في حركة البحوث الحفرية حتى ثبتت علامات الصـــبغة التـــاريخية لكل خبر من أخبـــار تلك الحوادث المشكوك فيها ، وثبت ان علماء التاريخ كانوا خلقاء أن يجهلوا كل شيء عن تلك الحوادث لو لم يعلموا بها من مصادرها الدينية ، قبل ان يتوفروا على حركة الحفر والتنقيب في آثار الشرق الادنى وما جاور بلاد النهرين

ومن هذه الاخبار ما كانوا يقرءونه في الكتب ويمرون به على غير انتباه لانهم لم يعرفوا له خطرا جديرا بالاهتمام في غير المصادر الدينية ، فشكوا في وجود عاد وثمود وشكوا في حملة الفيل وهلاك أصحاب الفيل ، وشكوا في الزلازل والاعاصير والطوفانات والجوائح والحروب التي سيقت مساق العبرة في قصص القرآن وانفرد بها أحيانا بين كتب الاديان ، فلما حققوا الآثار وصححوا المراجعة تبين لهم أن عادا وثمودا من أخبار بطليموس ، وان هلاك أصحاب الفيل من تواريخ الحبش والروم ، وأن المـــدن التي ساخت بها الارض أو عصفت بهـــا الرياح حقيقة

لا تقل فى صـدقها عن حقـائق طيبـة ومنف وطروادة ومسينى ، وان بقـايا اللغة تقول لنـا اليوم بعد المقارنة بين اللغـات كل ما كذبوه من الاصول أو من الصلات بين شعوب الامس وأعراقه فى أحاديث المتدينين ، وانهم هم فى انكارهم وتحقيقهم المزعوم قد أبدعوا لهذا العصر صورة جديدة من صور الخرافة لم تكن مقبولة عند المخرفين الاقدمين . وهى خرافة العالم الذى ينكر ما يجهل ويجهل ما ينكر ، ويظن ان كلمة « التحقيق » وحدها سـلطة تخولهم دون غيرهم حق الاستئثار بالرفض والانكار

واذا أنكر هؤلاء المتعجـلون كل شىء فى الدين فلعـلهم لا يستطيعون ان ينكروا اليوم هذا الدرس الذى تعلموه من كتب الدين ، فقد تعلموا على غير قصد منهم ان التعجل بالانكار جهل شائن كجهل المتعجلين بالتصديق

رمضان شهر الإرادة

كان منا رجل من رجال الاعمال ، وسفير ، وشاعر ، وكاتب وصحفى ، ومنا المسلمون والمسيحيون ، وجرى حديث الصحة ونظام التغذية المفضل فقال رجل الاعمال: «اننى تعودت بين حين وحين أن اصوم اسبوعا أو اسبوعين عن كل طعام غير السوائل وافضل من السوائل عصير البرتقال »

وقال السفير : « اننى أصوم فترة كهذه واكتفى فيها كل يوم بوجبة أو وجبتين من اللبن ، ولكننى افضل عليه السوائل الاخرى »

وقلت : « اننى أعالج الصوم مرة فى كل أسبوع ، واختار يوما من أيامه للصوم عن كل طعام غير السوائل، وأفضل منها مغلى البابونج أو عصير الليمون الحلو أو عصير البرتقال ، وقد احتاج فى أيام الاسبوع الاخرى الى اسقاط وجبة من الوجبات الثلاث ، وأكثر ما تكون وجبة العشاء »

ولا أذكر مما قيل فى هذا المعنى غير ما تقدم ، ولكننى

على يقين ان القارىء يسمع فى مجالسه مثل ما سمعنا فى ذلك المجلس وفى غيره فان لم يسمع حديثنا عن الصيام لاصلاح المعدة سمع حديثنا عنه لاجتناب السمنة او لزيادة نصيب الجسم من بعض الاغذية الحيوية ، أو سمع عن الصيام السياسى الذى يراد به فرض رأى أو الاحتجاج على معاملة ، فليس اكثر من أنواع الصيام فى هذه الايام

ولا حاجة الى الافاضة عن الكلام على أنواع الصيام التى يعالجها الجنس اللطيف حرصا على الرشاقة واعتدال القوام ، أو رياضة له فى سبيل الجمال تشبه الرياضة التى يعالجها اللاعبون فى سبيل القوة والنشاط . فان حديث الصيام من هذا القبيل فى كل بيت وكل ناد ، وبلغ من شيوعه أنه اخاف المصانع التى كانت تعول على الشراب الخفيف كالجعة والمنقوعات وما اليها وتعلم أن وجود الجنس اللطيف مع الرجال اكبر مشجع على الاكثار من هذه الاشربة ، فاننا نقرأ اخيرا عن الجعة التى تخفف السمنة وعن التى تزيل الرواسب وتحفظ على الجسم « هندامه » واعتدال قوامه

ووراء هذه المنشورات مصالح تلك المصانع على الاقل فى بعض الاحايين

ليس زماننا اذن زمان الاعراض عن الصيام كأنه عادة من عادات الاقدمين التى عفى عليها الدهر كما يقولون ، بل هو فى الواقع زمان تزيد فيه الوان الصيام ولاتنقص، ويكثر فيه اختلاف انواعه ولا يقل ، فما علمنا من عصر قط انه استحق ان يسمى عصراً « صياميا » كالعصر الذى نحن فيه

ونقول « الصيام على اختلاف انواعه » لان الانواع التى

ذكرناها آنفا ليست هى كل الصيام الذى يشتغل به ابناء العصر الحاضر ، فتلك جميعا انواع « جسدية » تراد لحفظ الصحة أو حفظ الرشاقة أو حفظ القوة والنشاط ،وغيرها كثير من أنواع الصيام يدرسها ابناء العصر الحــاضر ولا يطلق عليها وصف « الانواع الجسدية » ٠٠ لانها تــراد لتربية الخلق ورياضة النفس وتعويد الانسان ان يملك عاداته كما يشاء

وقد تفتح باب البحث فى هذه « الصيامات » على أثـر التوسع فى دراسة الاديان والمقارنة بينهــا ، وعلى أثر التوسع في الدراسات النفسية وعلاقة العقل فيها بالبنية، وعلى اثر القول بامكان توليد الامراض العقلية وشفائهــا بتعاطى بعض العقاقير او الامتناع عن بعض أصناف الطعام

وكثر الكلام على « اليوجا » الهندية ، كما كثر الكلام على عادات المتصوفين والنســاك آلتى ملــكوا بها زمام أجسادهم وضمائرهم ، فلا يقل الكلام على الصيام فــى سبيل الروح والضمير عن الصيام فى ســبيل الجوارح والعضلات

والصيام الذى فرضــته آلاديان احق هذه الانواع بالبحث عن دواعيه وعن معانيه ، وقد طال القول فى أصل الصيام الدينى قديما قبل ظهور الاديان الكتابية فلا حاجة بنا الى استقصائه فى هذا المقام

أما حكمة الصيام فى الاديان الكتابية فهى محصــورة فى أغراض معدودة : وهى تعذيب النفس والتكفير عن الخطايا والسيئات ، وتربية الاخلاق على نحو من الانحاء

والدين الاسلامى هو الدين الكتابى الوحيــد الذى فرض كتابه الصيام فترة معروفة من الزمــن على نحو معروف من النظام

ولا خلاف بين الائمة فى الحكمةالمقصودةبهذه الفريضة وهى تقويم الاخلاق وتربيتها ، وان تعددت الاخلاق التى تذكر فى هذا المقام

فمن الجائز كثيرا ان صيام الغنى يعلمه الرحمةبالفقير، ولكنه مقصد لا يشمل الفقراء كما يشمل الاغنياء وكما ينبغى فى كل فريضة عامة لا تخصص بانسان ولابطائفة من الناس

أما الخلق آلذى يعم الاغنياء والفقراء ولا يستفاد من فريضة عامة كما يستفاد من الصيام فهو « الارادة » ألزم الصفات لكل انسان • ان الارادة لازمة فى كل تكليف وفى كل تبعة وفى كل فضيلة ، فلا قوام للفرائض والفضائل جميعا بغير هذه الارادة

وهى لازمة للفقير لزومها للغنى ، فان كان احدهما أحوج اليها من الآخر فهو الفقير • لان الغنى قد يجد عنده ما يعوض التفريط فى أعمال الارادة والعزيمة والحزم والمضاء ، وليس هذا العوض ميسورا للفقير الا بزيادة الجهد والعناء

الارادة اذن هى فضيلة الفضائل فى الصيام

ومتى عرفت هذه الحكمة فآداب رمضان كلها محصورة فيها مستفادة من معناها ، ولا حاجة بالصائم الى أدب غير أن يذكر انه يريد الصيام وانه يقوم بفريضة يطلبها ويعلم نفعها ويحمل جهدها ، وان لم تكن مفروضة عليه

فليس من أدب رمضان ان يتململ الصائم وان يتجهم لمحدثيه وأن يبدو منه مايدل على الضيق بالفريضة كأنه مكره عليها مطيع لها بغير رضاه

وليس من أدب رمضان أن يهرب الصائم من ارادته بقضاء النهار كله فى النوم تاركا للطعام ، لانه غافل عن

مواعيده غير متنبه اليه

وليس من ادب رمضان ان يفلت زمام الارادة بعد غروب الشمس فلا يعرف الصائم له ارادة تصده عن الافراط فى الطعام والشراب الى موعد الامساك

وليس من أدب رمضان أن يصوم الانسان وهو معرض للتهلكة بصيامه فان من كان مريضا لم تجب الفريضة عليه ولا معنى لاداء الفريضة اذن الا انه يريد لنفسه الهلاك ، وهذا محرم عليه

كلمة « الارادة » وحدها تلخص آداب رمضان ولاتحتاج الى أسهاب فى تفسيرها وتعديد أنواعها

ومزية رمضان انه فريضة اجتماعية مع فرضه على آحاد المكلفين ، فهو موعد معلوم من العام لترويض الجماعة على نظام واحد من المعيشة وعلى نمط واحد من تغيير العادات ، وليس أصلح لتربية الامة من تعويدها هذه الاهبة للنظام ولتغيير العادات شهرا فى كل سنة ، تتلاقى فيه على سنن واحد فى الطعام واليقظة والرقادومايستتبع ذلك من أهبة الجماعة كلها لهذا الشهر خلال العام

واذا استطاعت الجماعة ان « تربد » ذلك التنظيم وذلك التغيير ، فليس ثمة نمط من انماط المعيشة لا تستطيعه على هذا المثال فى الشدة او الرخاء

رمضان شهر الارادة

ادبه ادب الارادة ، وحكمته حكمة الارادة ، وليست الارادة بالشىء اليسير فى الدين والخلق ، فما الدين وما الخلق الا تبعات وتكاليف ، وعماد التبعات والتكاليف جميعا أنها تناط بمريد

ومن ملك الارادة فزمام الخلق جميعا فى يديه

لو عاد محمد عليه السلام

من الاماثيل التى تعاد ولا تمل أمثولة للكاتب الروسى « دستيفسكى » عن السيد المسيح ومحكمة التفتيش فى قصة الاخوة كرامزوف

وخلاصة الامثولة أن السيد المسيح عاد الى الارض واخذ فى وعظ الشعب وتبشيره بالملكوت فأقبلوا عليه واستمعوا له وأوشكوا أن ينفضوا عن وعاظهم ودعاتهم المعهودين ، فأشفق هؤلاء على مكانتهم وأوعزوا الى رئيس محكمة التفتيش فاعتقله وتوعده بالمحاكمة والحكم عليه لتضليله الشعب والانحراف به عن تعاليم السيد المسيح ! .. وقال له : ان هؤلاء الذين يقبلون عليك اليوم هم أول الثائرين عليك وأسبق المبادرين الى تنفيذ القضاء فيك ..

أمثولة تعاد ولا تمل لان العبرة بها لا تنقضى فى حقبة واحدة ، ولا تزال عبرة الدهر كله فى أحاديث المصلحين والمفسدين

ولم يبالغ الكاتب العظيم فى تخيله ، فانما يكون مبالغا لو كان ما تخيله بعيدا أو غريبا فى بابه ، ولكنه فى الواقع اقرب شيء الى الاحتمال مع هذه البشرية التى تختلط فيها

الشيطانية والخنزيرية والحماريه فى وقت واحد ، فلا تزال حربا على من ينفعها وأعوبة فى أيدى العابثين بها ، وان كرروا العبث بها كل يوم مرات بعد مرات

لو عاد السيد المسيح لانكره كثيرون ممن يعيشون باسمه وينتحل هدايته

ولو عاد محمد عليه السلام لكان له نصيب كذلك النصيب ممن يرفعون العقيرة بهداية الاسلام والاسلام برىء منهم ، وكل ماهنالك من خلاف أن المسألة لا تمر بتلك السهولة التى توهمها رئيس محكمة التفتيش أومن يتصدى فى الاسلام لمثل عمله ، وأنه سيندم على فعلته ندما يكفر عن سيئاته ، ان كانت سيئاته مما يقبل التكفير

وأسأل نفسى كيف ينتفع المسلمون على أحسن وجوه النفع بعودة النبى عليه السلام فترة قصيرة من الزمن ؟ وما هى المسائل التى يرجعون بها الى شخصه الكريم فيسمعون منه فصل الخطاب فيها ؟

أسأل نفسى فتخطر لى مسائل خمس يرجع فيها الى شخصه الكريم ويغنى جوابه فيها كل الغناء فلا لجاجة ولا اختلاط ولا حاجة الى الاجتهاد والتأويل من مجتهد أو مقلد وما أشبه الاجتهاد والتقليد فى هذا الزمان !

تلك المسائل الخمس هى : مسألة الاحاديث النبوية ، ومسألة الروايات فى قراءة الكتاب المجيد، ومسألة الخلافة والملك ، ومسألة الرسالة والنبوة بعد خاتم المرسلين ، ومسألة المذاهب الاجتماعية الحديثة وحكم الاسلام عليها وقول نبى الاسلام فيها

مسألة الاحاديث النبوية

ان رجال الحديث قد بلغوا الغاية من الاجتهاد المشكور

فى جمع الاحاديث وتبويبها وتقسيم رواتها وأسانيدها ، وقد جعلوا من أقسامها الثابت والراجح والحسن والمقبول والضعيف والمشكوك فيه والمرفوض وجعلوا لكل قسم شروطه وعلاماته فأصبح الحديث بفضل هذه الشروط والعلامات علما مستقلا يتفرغ له علماء مستقلون

وبعد كل هذا الجهد المشكور لا تزيد الاحاديث الثابتة على عشر الاحاديث المتداوله فى الكتب وعلى الالسنة

وكلمة واحدة من فمه الشريف عليه السلام ترد الامور جميعا الى نصابها : « لم أقل هذه الاحاديث ! » وينتهى القيل والقال ويبطل الخلاف والجدال ، ويبطل معهما بلاء أولئك المحدثين الذين يستندون الى الحديث الكاذب فى التضليل وترويج الاباطيل

قراءات القرآن

ومسألة الروايات القرآنية دون مسألة الاحاديث فى اشكالها ونتائج الاختلاف عليها ، فان الروايات التى لم يتفق عليها القراء لا تغير شيئا من أحكام القرآن ، ويمكن الاخذ بها جميعا ولا ضرر فى ذلك ولا ضرار

الا أنها لا تحتمل اقل اختلاف مع وجود النبى الذى تنزل عليه القرآن فما يقوله فيها فهو مجتمع القراءات ومرجع الروايات ، ومتى استمع الناس الى تلاوته ــ فى عصر التسجيل ــ فتلك ذخيرة الابد فى ذاكرة الاجيال ، وسيبقى صوته بتلاوة القرآن اول ما يسمعه السامعون فى مجالس الذكر الحكيم

الخلافة والملك

وتأتى مسألة الخلافة ، بل معضلة الخلافة

تلك المعضلة التى سالت فيها بحور من الدماء وجداول من المداد ، وبقيت وراء كل انقسام نذكره فى الاسلام حين نذكر السنة والشيعة والاماميين والزيديين والاسماعيليين والنزاريين ، وحين نذكر الهاشميين والامويين والعباسيين والفاطميين وغيرهم وغيرهم من المنقسمين واقسام المنقسمين

بم أوصيت يا رسول الله فى أمر الخلافة ؟ وهل أوصيت بها دينية أو دنيوية ؟ وهل تريدها اليوم على هذه أو على تلك من صفاتها وأحكامها ؟

فاذا قال عليه السلام أوصيت بكذا ولم أوص بكذا ، فكأنما مسح بيده الشريفة على تلك الصفحات والمجلدات فاذا هى بيضاء من غير سوء ، واذا هى بقية من بقايا الماضى تحال الى دار المحفوظات للعبرة والحذر أو يلقى بها حيث لا حس ولا خبر

وكفى الله المؤمنين شر القتال وذكرى القتال

الرسالة بعد خاتم المرسلين

والخطب أهون من ذلك جدا فى مسألة الرسالة والنبوة بعد خاتم المرسلين ، فان المخالفين للاجماع فى هذه المسألة واحد فى كل خمسمائة مسلم ، وسينتهى خلافهم عما قريب

ولكن اذا انتهى بكلمة من الرسول الذى يؤمن به المسلمون جميعا فتلك هى النهاية الفاصلة ، وقد تمنع فى المستقبل أضرارا لا يقاس عليها ضررها فى الوقت الحاضر ، وخير من واحد ينشق على خمسمائة أن يتفق الخمسمائة فلا ينشق منهم واحد

وما قولك يا رسول الله فى دعاة المذاهب العصرية من اجتماعية أو غير اجتماعية ؟

لا حاجة الى السؤال عن الديموقراطية ، فان سابقة الاسلام فيها أصلح من كل سابقة

ولا حاجة الى السؤال عن الفاشية فان الاسلام يمقت الجبارين والمتجبرين

ولا حاجة الى السؤال عن الشيوعية الماركسية ، فانها ملعونة فى كل دين

وانما يسأل النبى عليه السلام فى الاشتراكية فيقول ما قاله القرآن حيث نهى أن تكون الثروة « دولة بين الاغنياء » .. ثم يسأل عن شرحها فيتلقاه منه المسلمون على أقوم المناهج وأسلم الحلول

وتأتى على الهامش أسئلة عن ترجمة القرآن وعن حقوق المرأة وعن دعاوى المدعين فى الاحكام والقوانين باسم الدين ، وعن أحاديث شتى مما يتحدث عنه الصحفيون وأشباه الصحفيين

ويسمع من النبى عليه السلام فى أولئك كله جواب يغنى عن ألف جواب أو عن كل جواب

ونعود الى محكمة التفتيش وما يشبه محكمة التفتيش بين المسلمين

ان كاتب هذه السطور اخر من يؤمن باقناع العقول أو بسلطان البرهان فى الاقناع

ان كاتب هذه السطور قد رأى بعينيه اناسا أغرب وأصفق ممن ينكرون الشمس فى رائعة النهار

وليس بالمستحيل عندى أن يعاندك المعاند ويكابرك المكابر فى « اثنين واثنين يساويان أربعة وفى واحد وواحد يساويان اثنين »

بل ليس بالمستحيل عندى أن يكابرك المكابرون فى معنى الواحد ومعنى الاثنين وان هذا خمسة وليس بواحد وذلك صفر وليس برقم من الارقام

فاذا عاد النبى عليه السلام وقضى قضاءه فى أحكام الاسلام فلا والله لا يعدم الناس من يشكك فى كلامه وبيانه وفى ملامح وجهه وعلامات جثمانه ، ولا والله لن يسلس المقاد ممن يلج فى العناد ويضيع عليه الجاه أو الغنى بما قضاه الرسول وتلقاه الناس منه بالتسليم والقبول

غير أنه ، فيما نحسب ، عناد لا ينفع أصحابه ولا يطمعون فى الرجاء منه حتى تفجأهم الحوادث بالندم عليه ، وصلى الله على محمد فى الاولين والاخرين ، فما هو الا أن يعود فلا تعز عليه هداية المهتدين ورياضة الذين لا يهتدون ، فلا يصدون أحدا عن الدنيا ولا عن الدين

لو عاد السيّد المسيح

فى احدى روايات الكاتب الروسى العظيم ـدستيفسكى ـ بطل من ابطال الرواية يتخيل أن السيد المسيح عاد الى الارض فى طوفة عابرة ونزل بأشبيلية فى ابان سـطوة « التفتيش » فوعظ الناس وصنع المعجزات وأقبل عليه الضعاف والمرضى والمحزونون يلثمون قدميه ويسألونه العون والرحمة

وانه ليمضى بين الشعب يضفى عليهم حبه وحنـــانه ويبسطون له شكاياتهم ومخاوفهم اذا برئيس ديـــوان التفتيش ـ المفتش الاعظم ـ يعبر بالمكان ويتأمل السيد والشعب من حوله هنيهة ثم يشير الى الحراس ويأمرهم أن يعتقلوه ويودعوه حجرة السجناء فى انتظار التحقيق

ويأتى المساء فيذهب المفتش الاعظم الى الحجرة ويقول للرسول الكريم : « اننى أعرفك ولا أجهلك ، ولهـــذا حبستك ، لماذا جئت الى هنا ؟ لماذا تعوقنا وتلقى العثرات والعقبات فى سبيلنا » ؟

ثم يقول له فيما يقول : « انك كلفت الناس ما ليست لهم به طاقة • كلفتهم حـــرية الضمير ، كلفتهم مؤنة

التمييز ، كلفتهم أوعر المسالك فلم يطيقـــوا ما كلفتهم وشقيت مساعيهم بما طلبت منهم ٠٠ والان وقد عرفنا نحن داءهم واعفيناهم من ذلك التكليف ، واعدناهم الى الشرائع والشعائر ، تعود الينا لتأخذ علينا سبيلنا وتحدثهم من جديد بحديث الاختيار وحرية الضمير ؟

« ليس اثقل على الانسان من حمل الحـــرية ، وليس اسعد منه حين يخف عنه محملها وينقاد طائعا لمن يسلبه الحرية ويوهمه في الوقت نفسه انه قد اطلقها له وفوض اليه الامر في اعتقاده وعمله ، فلماذا تسوم الانسان من جديد ان يفتح عينيه وان يتطلع الى المعرفة وان يختـــار لنفسه ما يشاء ، وهو لا يعلم ما يشاء ؟

« انك منحتنا السلطان قديما وليس لك أن تســترده . وليس في عزمنا أن ننزل عنه، فدع هذا الانسان لناوارجع من حيث اتيت ، والا اسلمناك لهذا الانسان غدا وسلطناه عليك وحاسبناك باياتك واخذناك بمعجزاتك ، ولترين غدا هذا الشعب الذى لثم قدميك اليوم مقبلا علينا مبتهلا لنا ان نخلصه منك وان ندينك كما ندين الضحايا من المعذبين والمحرقين »

قال ايفان كرامزوف بطل الرواية التى تتخيل هـذا الملتقى وهذا الحوار « ان السيد المسيح لم ينبس بكلمة ولم يقابل هذا الوعيد وهذا العداء بعبوس أو ازورار ، وتقدم الى المفتش الاعظم ـ وهو شيخ فان فى التسعين ـ فلثم شفتيه وخرج الى ظلام المدينة وغاب عن الانظار »

خلاصة لما تخيله الكاتب العظيم فى خطاب طويل مملوء بحكمة الحياة كما يراها « الحكماء » من الطرف الاخرالذى يقابل الحكمة المسيحية : حكمة الرسول الكريم

ولا نحسب أن الخيال فى هذا الخطاب العجيب بعيد عن

الحقيقة ولا نستبعد ما قاله المفتش الاعظم حين انـــذر الرسول الكريم ان يسلمه لمن يثور عليه ويصب عليه الويل والغضب ، بعد أن أحاط به ولثم قدميه وتوسل اليه

كلا .. ان الخيال فى ذلك الخطاب العجيب غير بعيد من الحقيقة ، واقرب شىء الى طبائع الناس أن يصنعوا ذلك الصنيع وان يتبعوا المفتش الاعظم فى نقمتـه على الرسول الكريم

واقرب شىء ان يكون لو عاد السيد المسيح الى الارض أن ينكر الكثير مما يعمل اليوم باسمه وأن يجد بين أتباعه كتبة وفريسيين ينعى عليهم الرياء ويعلمهم من جـديد ان السبت للانسان وليس الانسان للسبت ، وأن العبرة بما فى الضمائر لا بما تفوه به الالسن ويبدو على الوجوه، وأن الوحى فى طوية الانسـان لا فى طـوايا الكتب والاوراق

أقرب شىء ان يكون أن ينعى على الناس ما نعاه قبل الف وتسعمائة سنة ، وان يجد انسان اليوم كانسـان الامس فى شروره وعداوته ، وفى نفاقه وشقاقه ، وفى اعراضه عن اللباب واقباله على القشور ، وفى استعلائه بالتقوى حين يتقى ، ولجاجه فى الجحود والعدوان حين يجحد ويعتدى ، خمرا جديدة فى زق قديم

ذلك أقرب شىء أن يكون

واقرب شىء ان يقال اذا طاف بالخاطر ذلك الخيال ، أن يردد اللسان قول أبى العلاء :

تعب غير نافع واجتهـــاد
لا يؤدى الى غناء اجتهـــاد

ففيم يشقى المصلحون ، وفيم يهلك الشـهداء ؟ وفيم يأتى الانبياء ويذهبون ؟ وفيم اختلفت الديانات واصطرع

عليها المتدينون ؟ فيم كان هذا ؟ فيم جاءهم رسول بعد رسول ؟ وفيم توالى التابعون بعدهم باحسان أو بغير احسان

جاءوا وعادوا ..

وانصرفوا والبلاء باق

ولم يزل داؤنا العياء

لئن قيل هذا ليكونن أقرب مايقال بعد تلك الحقيقة التى جاءت فى صورة الخيال

ولكن الحقيقة الكبرى التى توزن بها جميع الحقائق هى أن الحقيقة لا ترى من جانب واحد ، ولا سيما الحقيقة التى تخلد على الزمن فى أطوار الانسان منذ كان ، وتخلد معه أنى يكون

ليست حرية الضمير مطلبا محدود المسافة ، يرحل اليه الانسان ثم يصل اليه ويقعد عنده ، ويكف بعده عن كل عناء

انما حرية الضمير جهاد دائم وعمل دائب ، يتقدم فيه الانسان شوطا بعد شوط ، أو طبقة فوق طبقة ، ولا يفرغ من جهاده يوما الا لينظر بعده الى جهاد مستأنف ولا يودع الشر فى مرحلة من مراحله الا ليلقاه ويجاهده ، ولن يلقاه فى سلام

ومطالبنا المحسوسة تهدينا الى القياس الصحيح فى هذه المشكلة ، وهى أولى بأن ندركها من المطالب الخفية التى تعتلج بالضمير وتبعثه الى العمل مرة حيث يرى مواقع خطوه ومرات حيث يبصر فلا يرى غير الحجب والظلمات

منذا يقول أن عناء التعليم باطل اذا رأى الطفل يحمل الكتاب وهو فى الخامسة ، ورآه يحمله وهو فى العاشرة ،

ورآه يحمله وهو فى العشرين ثم فى الثلاثين ، ثم رآه مدى الحياة لا يستغنى عن علم ولا يقضى على الجهل كل القضاء؟

منذا يقول ان عناء الطب باطل اذ رأى الناس يمرضون بعد علمهم بالجراثيم وبعد افتنانهم فى الطبابة ومواقع الدواء وموانع الشفاء ؟

منذا يقول أن الغاية عبث لان الطريق اليها طويل ، أو لانها غاية تتلوها غاية بلا انقطاع ولا اكتفاء ؟

لا نقول هذا فى محسوساتنا التى نلمحها ونلمسها ، فهل نقوله فى غاية كحرية الضمير هى سر الاسرار فى حياة الانسان منذ كان وأنى يكون ؟

ليست العبرة ان الشر واقع ، ولكن العبرة كيف ننظر اليه وكيف نواقعه او كيف نتقيه

واذا وقع اثنان فى الشر ، فليس الذى وقع فيه وهو مستريح اليه مستزيد منه ، كالذى وقع فيه وهو مضطر اليه نادم عليه ، وليس الذى وقع فيه وهو يعلمه كالذى وقع فيه وهو يجهله ، او يقف منه موقف المغالطة بين العلم والجهل وبين القصد والاضطرار

انما الانسان غير الحيوان البهيم لانه صاحب ضمير، وانما يقاس ضمير الانسان بالقيم التى يقومها والمثل العليا التى يتمثلها ، والمطالب التى يطلبها وينالها أو لا ينالها ، وما دام المصلحون والرسل يعلمون الانسان قيمة يغليها ويرفعون امامه مثلا اعلى يتسامى اليه .. فهم عاملون وعملهم لازم ، ونتيجته محققة ، وان دام الشر ولم ينقص عدد الذنوب والجرائم بأرقام الاحصاء

واذا قلنا يوما ان الانسان فى هذا العصر يطلب الخير ولا يدركه ، فقد قلنا على اليقين أنه أفضل من الانسان

الذى كان لا يطلبه ولا يعرفه ، وأن عمله غير مطلوب وغير معروف كما يعمل الحيوان

انما تقاس الاديان بما تودعه النفوس من القيم والحوافز ، وبما تزيده من نصيب الانسان فى حرية الضمير أو فى حرية التمييز بين الحسن والقبيح ، وقد عملت الاديان كثيرا ولا تزال قادرة على العمل الكثير ، ولكنها لن تغنى الانسان يوما عن جهاد الضمير

كان جهلاء الناس فيما غبر ينتظرون ألف سنة يعم فيها الخير وينقطع فيها الشر ويمتنع الشقاء ولا يرى فى العالم يومئذ غير سعداء أبناء سعداء

وكان « العارفون » يقولون عن هؤلاء انهم جهلاء

لكن هؤلاء العارفين اجهل منهم اذا اعتقدوا ان دينا من الاديان لم يعمل عملا ، ولم يكن غير عبث من العبث ، لان الدنيا باق فيها الشر ، باق فيها البغى ، باق فيها الكفران

أى فرق بين العارفين الذين ينتظرون من الدين دنيا لا تعاب وبين الجاهلين الذين انتظروا السعادة المطلقة فى « الالفية » الموعودة آخر الزمان ، بعد قرون تعد بالعشرات أو بالمئات ؟

لعل هؤلاء الجاهلين أقرب الى التقدير الصحيح من أولئك العارفين ، لانهم يفكرون وينتظرون « الالفية » . وقد انتظرها الجاهلون بغير تفكير !

***

لو عاد السيد المسيح اليوم لوجد كثيرا يصنعه ويعيد صنعه ، ولصنع كثيرا بين اتباعه ومن يعملون باسمه ويتواصون بوصاياه ، ولكن الدنيا التى يصنع فيها الهداة

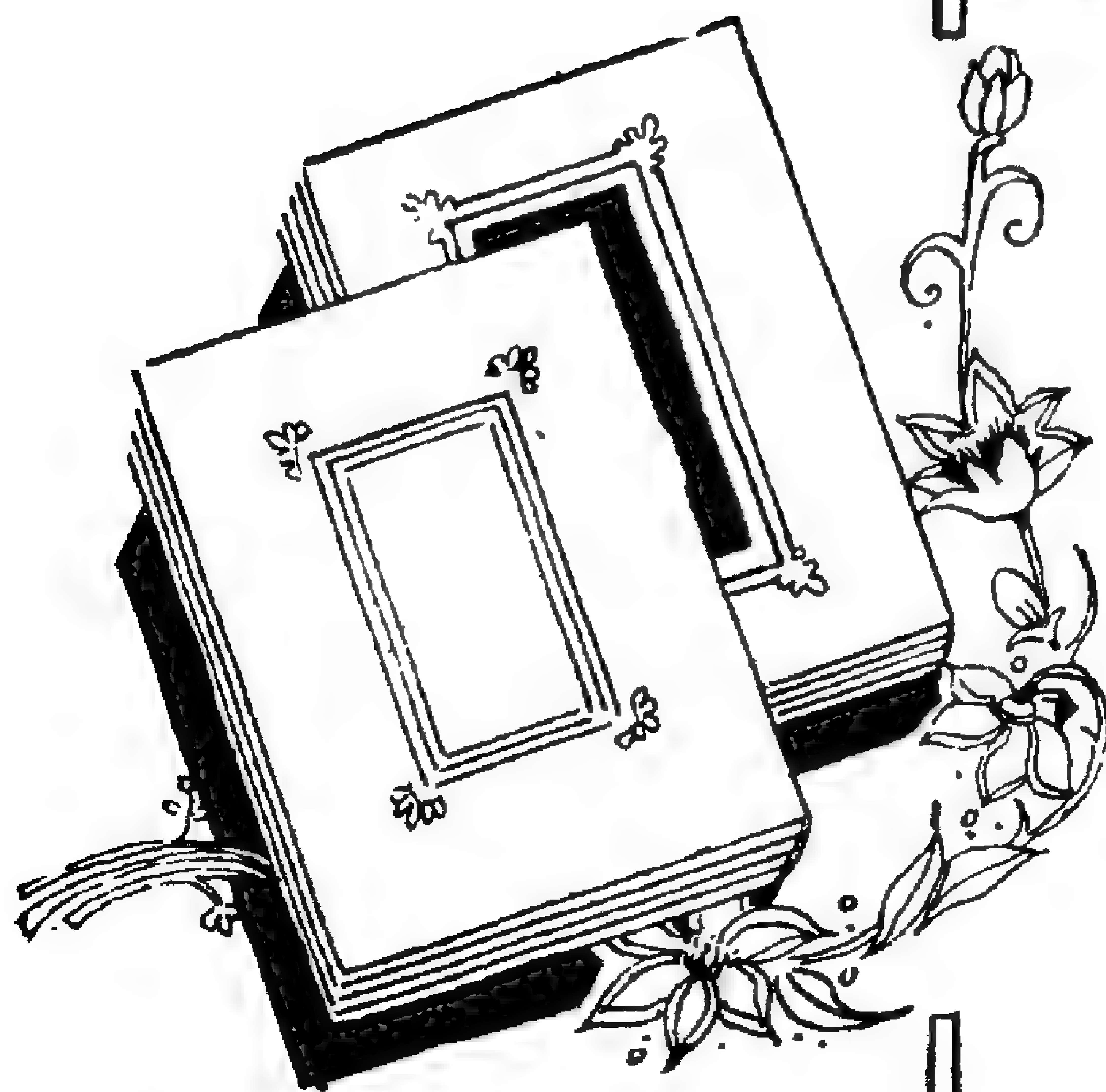
صنيعا كثيرا خير من الدنيا التى لا موضع فيها لصنيع الهداة وجهاد الضمير

ولن يختم المسيح العائد الى الدنيا رسالة الخير والهداية ، فتلك هى شوط الضمير الذى لا ختام له ، وهو الغاية وراء كل ختام

وسيعلم الناس فى العصر الحديث ـ ان لم يكونوا قد علموا حتى اليوم ـ ان عقيدة الانسان شىء لا يأتيه من الخارج فيقبله مرضاة للداعى او ممتنا عليه ، ولكنها هى ضميره وقوام حياته الباطنية يصلحه ، ان احتاج الى الاصلاح ، كما يصلح بدنه عند الطبيب وهو لا يمتن عليه ولا يرى انه عالج نفسه لمرضاته . فالعقيدة مسألة الانسان ، لا شأن للانبياء بها الا لانها مسألة الانسان ، وعليه اذا عالج اصلاحه ان يعالجها كما يعالج جزءا من نفسه بل كما يعالج قوام نفسه ، ولا يعالجها كأنها بضاعة يردها الى صاحبها ويفرغ من أمرها ، فلا فراغ من أمر العقيدة الى آخر الزمان

الفصل الثاني عشر

في الشعر العربي



المذاهب العربية

نظم الشعر فى اللغة العربية فن مستقل بذاته بين الفنون التى عرفت فى العصر الحديث باسم الفنون الجميلة ، وتلك مزية نادرة جدا بين أشعار الامم الشرقية والغربية ، خلافا لما يبدر الى الخاطر لاول وهله ٠٠ فأن كثيرا من أشعار الامم تكسب صفتها الفنية بمصاحبة فن آخر ، كالغناء أو الرقص او الحركة على الايقاع . ولكن النظم العربى فن معروف المقاييس والاقسام بعد استقلاله عن الغناء والرقص والحركة الموقعة ، فلا يصعب تمييزه شطرة شطرة بمقياسه الفنى من البحور والاعاريض ، الى الاوتاد والاسباب

وليست هذه خاصة من خواص اللغات السامية اخوات العربية . فاننا اذا أخذنا سطرا على حدة من قصيدة عبرية لم نستطع أن ننسبه الى وزن محدود أو مقياس متفق عليه ، ولابد من اقترانه بسطور اخرى يتم بها الايقاع ولا تطرد فى قول كل شاعر ولا فى سطور كل قصيدة فهو والفاصلة النثرية التى يمكن أداؤها بالغناء أو بالايقاع على حركة الرقص ، متساويان

ومن الشعر الغربى ما يعرف كل سطر منه بعدد من

المقاطع والنبرات ، ولكنه بغير قافية تنتهى اليها هـذه السطور

اما ضروب النظم التى تلتزم فيها القافية ، فكلها فى نشأتها كانت تغنى او تنشد على ايقاع الرقص ، ثم استقلت بأوزانها المحدودة على نحو مشابه للاوزان العربية ، وهى الموشحات التى اشتهرت عندهم باسم « استانزا » أو اسم « سونيت » ويدل كلا الاسمين على أصلها من الرقص والغناء .. فان استانزا كلمة ايطالية بمعنى الوقوف تقابلها ستاند stand بالانجليزية ، وسوانيت sonnet من كلمة سونج song بمعنى الغناء

فالشعر الذى لا يضبط بالوزن او بالقافية موجود فى اللغات السامية واللغات الآرية ، وبعضه لا يزيد الايقاع فيه على الموازنة بين السطور بغير ضابط متفق عليه ، وبعضه يضبط فيه الايقاع بعدد المقاطع والنبرات ، ولا ينتهى الى قافية ملتزمة فى القصيدة او المقطوعة الصغيرة

انما الوزن المقسم بالاسباب والاوتاد والتفاعيل والبحور خاصة عربية نادرة المثال فى لغات العالم . وكذلك القافية التى تصاحب هذه الاوزان

ومرجع ذلك الى أسباب خاصة لم تتكرر فى غير البيئة العربية الاولى : اهمها سببان : هما الغناء المنفرد ، وبناء اللغة نفسها على الاوزان

فالامم التى ينفرد فيها الشاعر بالانشاد تظهر القافية فى شعرها .. لان السامعين يحتاجون الى الشعور بموضع الوقوف والترديد ، ولكن الجماعة اذا اشتركت فى الغناء لم تكن بها حاجة الى هذا التنبيه ، لان المغنين جميعايحفظون الغناء بفواصله ولوازمه ومواضع النبر والترديد فى كلماته وفقراته ، فينساقون مع الايقاع بغير حاجة الى القوافى

عند نهاية السطور ، وانما تنشأ الحاجة الى القافية ، أو وقفة تشبه القافية عند تفاوت السطور وانقسام القوم الى منشدين ومستمعين

يقول العلامة جلبرت مورى — وهو من ثقات البحث فى الاوزان والاعاريض — « ان احدى نتائج هذا الاختلاف زيادة الاعتماد على القافية فى اللغات الحديثة . ففى اللغتين اللاتينية واليونانية ينظمون بغير قافية لان الاوزان فيهما واضحة ، وانما تدعو الحاجة الى القافية لتقرير نهاية السطر وتزويد الاذن بعلامة ثابتة للوقوف .. وبغير هذه العلامة تثقل الاوزان وتغمض ولا تستبين للسامع مواضع الانتقال والانفصال . بل لا يستبين له هل هو مستمع لكلام منظوم أو كلام منثور . وقد اختلف الطابعون عند طبع الكتب هذا الاختلاف فى بعض المناظر المرسلة من كلام شكسبير ، فحسبها بعضهم من المنثور وحسبها الآخرون من المنظوم . ومما يلاحظ ان اللاتين اعتمدوا على القافية حين فقدوا الانتباه الى النسبة العددية .. وان الصينيين يحرصون على القافية لانهم يلتزمون الاوزان ، وان انتشار القافية فى أغانى الريف الانجليزية يقترن الترخص فى أوزان الاعاريض »

ويستطرد الاستاذ مورى الى الشعر الفرنسى فيقول : « ان اللغة الفرنسية حين رجع فيها الوزن الى مجرد احصاء للمقاطع ، واصبحت المقاطع بين مطولة وصامتة — نشأت فيها من أجل ذلك حاجة ماسة الى القافية ، فصارت فى شعرها ضرورة لا محيص عنها ، ودعا الامر الى تقطيع البيت أجزاء صغيرة ليفهم معناه »

ومن أسباب الاكتفاء بالوزن دون القافية فى أشعار الغربيين سبب لم يذكره الاستاذ مورى ، وهو غناء الجماعة للشعر المحفوظ كما تقدم

فحيث شاعت اناشيد الجماعة قل الاعتماد على القافية وكثر الاعتماد على حركات الايقاع ولو لم تكن متناسقة الوزن على نمط محدود ، لان الغناء بالكلام المنثور ممكن مع توازن الفواصل وموازاة السطور

واناشيد الجماعة قد شاعت بين العبريين لانهم قبيلة متنقلة تحمل تابوتها فى رحلتها وتنشد الدعوات معا فى صلواتها الجامعة ، وفى هذه الدعوات ترانيم على وقع الدفوف كما جاء فى الاصحاح الخامس عشر من سفر الخروج حيث « أخذت مريم النبية الدف بيدها وخرجت جميع النساء وراءها بدفوف ورقص . وأجابتهم مريم : رنموا للرب فانه قد تعظم .. »

وكذلك شاعت بين اليونان أغانى المسرح التى ترجع فى نشأتها الى الشعائر الدينية ، ثم انتقلت منها الى الامم الاوروبية

ومما يؤيد الصلة بين غناء الفرد والتزام القافية ان شعراء الامم الغربية الذين ينشدون قصائدهم للمستمعين قد لجأوا الى القافية والتزموا فى مراعاتها أحيانا مايلتزمه عندنا شعراء الموشحات

أما البيئة العربية فلم تكن فيها قبل الاسلام صلوات جامعة منتظمة بمواعيدها ومحفوظاتها ، وانما كان الحداء هو الغناء الذى يصاحب انشاد الشعر على بساطة كأنها بساطة الترتيل ، ينشده الحادى على انفراد وتصغى اليه القافلة احيانا فى هداة الليل ، اذ يعتمد الحس كله على السمع فى متابعة النغم الى مواضع الوقوف والترديد ، فتقفو النغمة على وتيرتها ، ويصدق عليها اسم القافية بجملة معانيه

لهذا استقل المنظم بحقه فى الصنعة ، لان هذه الصنعة لازمة لتمييزه مع الغناء ومع غير الغناء . فانتظمت قوافيه

وانتظم ترتيله انتظاما لابد منه لكفايته ، مع بساطة افانين الغناء

واذا التمسنا مدخلا لفن الحركة الموقعة مع الحداء فهناك ايقاع واحد نتابعه فى خطوات الابل وفى خطوات الهرولة التى تصاحبها على القدم . والى هذا الايقاع يرجع وزن الرجز على قصد وعلى غير قصد ، ومجيئه على غير قصد أدل على تمكن العادة وعلى اصالتها فى الحياة البدوية :

انا النبى لا كذب
انا ابن عبد المطلب

***

هل انت الا أصبع دميت
وفى سبيل الله ما لقيت

***

وقد تكون حركة الهرولة فى الطواف بالكعبة ملحوظة فى كل دعاء مروى كيفما اختلف المختلفون فى صحة الروايه ، كما قيل عن امرأة أخزم بن العاص حين نذرت ولدها للكعبة فقالت :

انى جعلت رب من بنيه
ربيطة بمكة العليه

فباركن لى بها اليه
واجعله لى من صالح البرية

فهكذا يفهم الناظم كيف تكون حركة الدعاء مع الهرولة، أيا كان صاحب النظم او من ينسب اليه

هذه المرددات الفردية هى التى ميزت النظم العربى باستقلال فنه ووضوح قافيته وترتيله ، ولو وجدت فى الجاهلية العربية صلوات جامعة تنشد فيها الدعوات

المحفوظة لوجدت فيها القصائد التي تمثل لنا حياتهم الدينية وحياتهم الاجتماعية ، أما من اناشيد الصلاة كما عرفها العبرانيون ، أو من اناشيد المسرح كما عرفها اليونان . ولكننا نعرف العرب من قصائدهم الفردية كما نعرف الامم الاخرى من أمثال تلك القصائد ، فلا يفوتنا منها غاية ما تدل عليه

هذا سبب من اسباب تلك الظاهرة النادرة التي ظهرت لنا في القصيدة العربية ، وكانت نادرة بين الامم السامية والامم الآرية على السواء

أما السبب الآخر فهو أصالة الوزن في تركيب اللغة . فالمصادر فيها اوزان ، والمشتقات أوزان ، وأبواب الفعل أوزان ، وقوام الاختلاف بين المعنى والمعنى حركة على حرف من حروف الكلمة تتبدل بها دلالة الفعل ، بل يتبدل بها الفعل فيحسب من الاسماء او يحتفظ بدلالته على الحدث حسب الوزن الذي ينتقل اليه

هذه اصالة في موضع الوزن من المفردات والتراكيب لا يستغرب معها ان يكون للوزن شأنه في شعر هذه اللغة وان يكون شأنها في نظم أشعارها على خلاف المعهود في منظومات الامم الاخرى ، ولو صرفنا النظر عن أثر الانشاد الفردي في تثبيت القافية واستقلال فن العروض عن فن الغناء في القصائد العربية

نعم أن اللغات السامية تجرى على قواعد الاشتقاق وتوليد الاسماء من الافعال ، ولكن المقابلة بين هذه اللغات في أقسام مشتقاتها وتفريع الكلمات من جذورها تدل على تمام التطور في قواعد الاوزان العربية وعلى نقص هذه القواعد أو التباسها في اخواتها السامية ، بل تدل في باب الاعراب خاصة على تفصيل في العربية يقابله الاجمال

أو الاهمال فى أخواتها ، وفى غيرها من اللغات الآرية التى دخلها شيء من الاعراب

***

وواضح مما تقدم اننا قصرنا القول على النظم من حيث هو أوزان عروضية أو قوالب تحتوى الكلم المنظـــوم فيها

فهذه القوالب هى التى تطورت فى اللغــة العربيــة فأصبحت فنا مستقلا بمقاييسه عن فن الغناء او فن الحركة الموقعة ، اما الكلام المنظوم فى تلك القوالب فهو عمل ممتد مع الزمن يأتى فيه كل عصر بما هو اهله من الابــداع او الزيادة او المحاكاة .. وانما نعود الى القوالب والاوزان فى كل عصر لنسأل : هل هى صالحة لاداء المقاصد الشعرية ومجاراة الامم فى تطورها الذى يمتد مع الزمن على حسب حالاتها من الشعور والفهم والقدرة على الاداء ؟ وهل تتسع للتعديل اذا وجب التعديل للوفاء بمطلب جديد من مطالب التعبير ؟

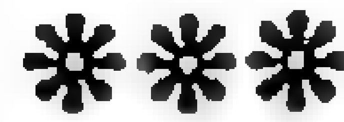
ان تجارب العصور الماضية تنجلى عن صلاح القوالب العروضية لمجاراة أغراض الشعر فى أحوال كثيرة ، ويبدو منها أن اساس العروض العربى قابل للبناء عليه بغير حاجة الى نقضه والغائه . فقد كانت بضعة بحــور من اوزان الشعر كافية لاغراض الشعراء فى الجاهلية ، اشهرهــا الطويل والكامل والوافر والخفيف ، ثم نشأت من أوزانها مجزوءات ومختصرات صــالحة للغنــاء حين استحدثت الحاجة اليه فى الحواضر العربية التى عرفت الغناء على ايقاع الآلات ، ثم اتخذت من هذه البحور أسماط وموشحات واهازيج تتعدد قوافيها مع اختلاف مواقعها وتطول فيها الاشطر او تقصر مع التزام قواعد الترديد فيها . واختار بعض الشعراء نظم المثانى أو المزدوجات وبعضهم نظــم

المقطوعات التى تجتمع فى قصيد واحد متعدد القوافى او تتفرق وتتعدد بأوزانها مع توحيد الموضـوع ، ولما نقلت الالياذة اليونانية الى النظم العربى لم تضق بها اوزانه ولم يظهر سياق الترجمة ان هذه الاوزان قاصرة عن التنويع فيها على نمط غيرهذا النمط لمن يشاء التنويع، واستجابت الاوزان لمطالب المسرح كما استجابت للملحمة المترجمـة ولمـا يشبهها من القصائد التاريخية المطولة

وقد أفرد الموسيقار العصرى الاستاذ خليل اللاوردى فصلا وافيا فى كتابه فلسفة الموسيقى الشرقيـة لبحث التوزين والايقاع وتطبيق العروض العربى على الضوابط الموسيقية فانتهى من بحثه الى امكان التنويع فى الاوزان العروضية واستطاعة الموسيقى والشـاعر ان « يفتتح اشكالا غير محدودة من أشكال الموازين ، واعتمد فى تجاربه على الجهاز الفنى المسمى بالمتروتوم وهو صندوق صغير من الخشب هرمى الشكل ، يفتح من احدى جهاته الاربع فينكشف عن قضيب معدنى مقسم بخطوط ، وعليه ثقل متنقل يحدث حركة متساوية .. فيقسم الدقيقـة الواحدة من الزمن الى نقرات تتراوح بين أربعين ومائتين وثمان ، فيمثل الحد الادنى النقرات المتناهية فى البطء ويمثل الحد الاعلى النقرات المتناهية فى السرعة » .. ولم يلجأ الموسيقار الى وحدات للنغمات غير وحدات الفواصل والاوتاد والاسباب التى يستخدمها العروضيون ولم يجعل لها اقساما غـير اقسامهم المعروفة كالسبب الخفيف والسبب الثقيل ، والوتد المقرون والوتد المفـروق ، والفاصلة الصغرى والفاصلة الكبرى ، وانما استخدم الضوابط الموسـيقية لبحث الموضوع بمصطلحات فنه ، وترك مجال بحثه للعروضيين يتفاهمون فيه بمصطلحاتهم التى لا تحتاج الى التخصص أو التوسع فى فنون الالحان

فخلص من بحوثه الموسيقية والعروضية معا الى نتيجة محققة خلاصتها ــ كما قال ــ ان اشكال الموازين الشعرية غير محدودة أو ان حدودها ــ على ما نرى ــ أشبه بحدود الكلمات التى تتألف من الحروف الابجدية ، على حين أن الحروف الابجدية قلما تزيد على الثلاثين

فاذا نظرنا الى ما تم من اشكال العروض ، وما يتأتى ان يتم منها مع التنويع والتوزين ، ثبت لنا انها قائمة على أساس صالح للبناء عليه وتجديد الأنماط والاشكال فيه، على نحو يتسع لاغراض الشعر ولا يلجئنا الى نقض ذلك الاساس



وهذا كله مع التسليم بداهة بالتفرقة بين الكلام المنثور والكلام المنظوم فى السهولة أو الصعوبة ، فان التسهيل المطلوب لفن من الفنون كائنا ما كان ينبغى أن ينتهى عند بقاء الفن فنا مقرر القواعد والمقاييس ، وما جهل الناس قط ان الكلام أسهل من الغناء ، وان المشي أسهل من الرقص ، وان الحركة المرسلة أسهل من الحركة الرياضية ، ولم يكن ذلك قط مسوغا للاستغناء بالكلام عن فن الغناء او بالمشي عن فن الرقص ، أو بتحريك الاعضاء بغير هدى عن أصول الحركة الرياضية أو الحركة فى العاب الفروسية . فمهما يكن من تيسير الاوزان بالتنويع والتوفيق فلا مناص فى النهاية من التفرقة بينها وبين الكلام المرسل فى سهولة الاداء ، وانما المطلوب ان تكون فنا سهلا وليس المطلوب مجرد السهولة التى تخرجها من عداد الفنون

ولا بد فى هذا السياق من تفرقة أخرى هى التفرقة بين القواعد والقيود فى كل فن من الفنون ، فلا سبيل الى الاستغناء عن القواعد فى عمل له صفة فنية ، ولا ضرر

من الاستغناء عن القيود التى تعوق حرية الفن ولا يتوقف عليها قوامه الذى يسلكه فى عداد الفنون

ومن تجاربنا فى تاريخ الشعر العربى يتبين لنا أن قواعد النظم عندنا مؤاتية للشاعر فى كل تصرف يلجئه اليه تطور المعانى والتعبيرات فى مختلف البيئات والازمنة . فلا موجب للفصل بين قواعد النظم وأغراض الشعر فى تجربة من التجارب العربية التى وعيناها منذ نشأت أوائل الاوزان الى أن بلغت ما بلغته فى منتصف هذا القرن العشرين

ذلك شأن التجارب العربية ، فما بال التجارب فى أمم الحضارة التى تتصل بنا ونتصل بها وتبادلنا ونبادلها مطالب الفنون والاداب كما يحدث الان بيننا وبين أمم الحضارة الغربية ؟ ماذا تفرض علينا هذه الثقافة المتبادلة فى ميدان النظم والشعر على اتصال بينهما أو على انفراد ؟

أما فى النظم فلا خفاء بالامر من أيسر نظرة الى آدابنا وآداب الامم الغربية التى نتصل بها فى العصر الحديث

فمما لا تردد فيه أن هذه الامم لم تبدع فى موازين النظم بدعا نستفيده منها ولم تكن قد سبقناها اليه فى عصر من عصورنا ، فاذا التزموا الاعاريض معتدلين او مبالغين فليس عندهم ما هو ادق وأجمل من الموشحة فى أوزانها التى تقبل التنويع والتشجير الى غير نهاية ، والتى يعتبر تعدد القافية فيها ندحة وزينة فى وقت واحد . فان اطلاق الحرية للشاعر لتوزيع القوافى حيث شاء يوشك ان يعفيه من قيودها كما يزيد الايقاع جمالا على جمال . ولم يبدع الاوربيون ــ حتى فى شعر المسرحيات الملحنة ــ فنا من الاناشيد أتم من الموشحة وأصلح منها للتلحين وحركة الايقاع

فاذا ترخص الشاعر الغربى فى القواعد فأسقط القافية واختار الوزن الذى يسمونه النظم الحر او النظم الابيض ـ فجهد ما بلغوا اليه انهم عادوا الى الاسطر المتوازية أو الى الاكتفاء بالمقاطع التى لا تبلغ فى دقتها مبلغ الاسباب والاوتاد والفواصل ، وكل أولئك طور من الاطوار التى تخطاها الشعر العربى فى الازمنة الماضية أو سبقتهم اليه أمة من الامم الشرقية وتوقف بها التطور عنده ، لارتباطه بالتقاليد الدينية

فليس عند الغرب من فنون النظم جديد نأخذه منه فى أبواب التوزين والتنويع

ليس فى فن النظم جديد نأخذه من الاعاريض الغربية لم تكن عندنا أسسه العريقة ، ولم تكن عندنا أصوله وفروعه أو جذوره واغصانه على حد تعبير « الموشحين . »

لكن الامر يختلف كثيرا فى الكلام على « الشعر » أو الكلام على الادب ومدارسه ومذاهبه ودعواته التى تجيش بها الحياة الغربية فى كل حقبة ، ولا تتميز منها دعوة واحدة دون أن يتميز لها حكم خاص بالشعر يتناوله قبل أن يتناول غيره من الفنون الجميلة ولا سيما فنون التعبير

هذه المذاهب الشعرية تعنينا كما تعنيهم وتمتد بآثارها الى اقوالهم وأفعالهم كما تمتد الى اقوالنا وأفعالنا

لانها من أطوار الحياة التى لا تنحصر فى دوائر الفن ولا فى ادوار الثقافة على اطلاقها . وان يكن مظهرها الثقافى هو الجانب الذى يشتغل به النقاد والمؤرخون فى ميادين الفنون

هذه الدعوات أوسع نطاقا من أن يحاط بها فى مقال .

ولكنها تقترب من الحصر المستطاع اذا جمعناها فى ادوارها الانسانية العامة التى توشك ان تكون أمواجا دورية فى هذا المحيط الزاخر ، اذ هى عالقة بطبيعة الانسان فى جملتها ، وطبيعة الانسان واحدة كما قيل فى كل زمان ومكان ..

ونحن نعلم ان ابقراط حصر الطبائع الجسدية فى اربعة امزجة ، وهى المزاج الدموى والمزاج الصفراوى والمزاج البلغمى والمزاج السوداوى . ثم جاء العلامة بافلوف بعد تقسيم خصائص الاجسام بين الهرمونات وعائلات الدم وودائع الوعى الباطن والوعي الظاهر اقساما لا تنفد ولا تحصى ـ فعاد الى الامزجة الابقراطية تيسيرا للفوارق العامة وجعلها أساسا لتجاربه النفسية التى تعد الى هذه الساعة من أحدث تجارب العلماء

فنحن على هذه الوتيرة نقسم الذوق الفنى فى الانسان الى أقسامه الخالدة حين نقول : ان الناس كانوا منذ فطروا واقعيين وخياليين ، ومحافظين على القديم وطلابا للجديد ، أو أنهم كانوا اذا اكتفينا بقسمتهم الى قسمين اثنين : صنفا يمشى فى وسط القطيع وصنفا ينزع الى الاطراف ، أمام ووراء وعلى كلا الجناحين من اليمين واليسار ، وقد تفكه بعض الجادين فأطلق على الصنف الاول اسم فريق الضأن وعلى الصنف الثانى اسم فريق المعيز ...

ونرى من تاريخ الامم الغربية منذ ملكت حرية التفكير أنها دارت دورتها بين مذاهب الادب خلال القرون الثلاثة الاخيرة ، وانها نزعت فى دعواتها المتعاقبة كل نزعة طبيعية تستلزمها اطوار الحياة بعد عصر الجمود والتقليد

ففى فترة اليقظة الاولى كان من الطبيعى أن ينزع الانسان الى استقلال « الشخصية الانسانية » فى وجه

التقاليد المطبقة والقيود العتيقة والاحكام التى تطاع بغير فهم ، بل بغير شعور فى أكثر الاحوال ، وهذه هى النزعة التى سميت بنزعة الابداع و « الحرية » الشخصية Romanticism

ومن الطبيعى أن ينتهى هذا الابداع من كل جانب على غير هدى متفق عليه ـ الى شىء من الفوضى والشرود يستحب معه التوقف الى حين ، وهنا ظهرت دعوة العود الى الاتباع والاطراد على نحو جديد يناسب مطالب الزمن ، فنشأت من ثم دعوة الاتباع أو الاطراد الجديد Neo Classicism

واذا حكم اختلاف الطبائع حكمه بين أنصار الواقع وانصار الخيال فهنا مجال الاختلاف بين الواقعيين Realists والخياليين المثاليين Idealists

وقد يظهر هذا الاختلاف فى صورة أخرى بين الطبيعيين Naturalists وبين الفنيين أنصار الفن للفن Art for Arts sake

ونقول ان الواقعيين والطبيعيين متقاربون لانهم جميعا من أنصار الواقع ، وانما ينفرد الواقعيون بمحاربة النزعات الخيالية ، وينفرد الطبيعيون بمحاربة النزعات الصناعية : نزعات الاغراق فى التزويق والتنسيق . واذا اقترنت هذه المذاهب جميعا فى عصر من عصور النهضة العلمية فالانقسام بينها يؤول فى هذه الحالة الى قسمين : قسم تغلب عليه الصبغة العلمية وقسم تغلب عليه الصبغة الفنية ، ويتسع كل قسم منها لكثير من الاراء واشتات من الاساليب

ولا جدوى من متابعة العناوين التى تنتهى فى الغرب بصيغة النسبة المذهبية Ism فانها تنطوى جميعا فى هذه الدعوات ، ويحيط كل منها بعالم من الاراء والاسباب . ولكننا نجمعها فى حدودها الواسعة اذا

اكتفينا منها بالرومانتيزم والنيوكلاسيزم والريالزم والايدليزم ، فلا يخرج من هذه المذاهب مذهب جاد يناط به عمل من أعمال البناء والاصلاح فى عالم الفنون ، ولا تزال حتى اليوم وافية بأغراض البحث والمناقشة بين المختلفين على الفنون فيما يستحق الخلاف

وعلى تعدد المذاهب والعناوين فى الغرب لا نرى هنالك لبسا على الاطلاق بين المذاهب التى أشرنا اليها وبين عشرات المذاهب التى ينتحلها الدعاة على عجل منذ الحرب العالمية الاولى ، ويندر أن تعيش احداها او تستقل عن سواها بصفة من الصفات التى يتناولها التطبيق والتمييز

فلا لبس على الاطلاق بين مذاهب الجد ومذاهب الهزل فى الاداب الغربية ، فمذاهب الجد تدعو كلها الى البناء وتقوم بالبناء فعلا ويعيش ما تبنيه ، ومذاهب الهزل لا تتحدث بشىء غير الهدم والالغاء فلا لون ولا شبه ولا رسم ولا قاعدة فى التصوير ، ولا لفظ ولا معنى ولا منطق ولا مدلول فى الشعر والنثر ، وانه لمن الحظ الحسن أن تقصر هذه الدعوى عن الفنون التى ترتبط بها ضرورات المعيشة والاجتماع ، فانها لو تناولتها لسمعنا بفن المعمار الذى لا حجرات ولا جدران ولا حجارة ولا طلاء فيه . وسمعنا بمجامع الموسيقى التى لا تميز بين الضوضاء والالحان ، ولا محل فيها للمعازف والآلات

من هذه المذاهب ما يطلق عليه اسم المستقبلية Futurism أو فوق الواقعية surrealism أو الذئبية Fauvism .. بل منها ما يسمى بمدرسة التأتأة Dadaism ويقول أصحابه انهم اختاروا له هذا الاسم من أول تأتآت الطفل Da Da وتطلق أحيانا على حصان الخشب ليسهل النطق به على ألسنة الاطفال . ومؤدى مذهب هؤلاء الدعاة أن

التعبير الصحيح عن النفس الانسانية ا... بع الى صورة الطفولة ورموز الاحلام وخفايا الوعى الباطن كما تبدو للحالم فى المنام او كما يرسلها الناطق عفوا بغير تأمل وبغير انتباه !

ومن هؤلاء الملفقين للمذاهب من يختار اللفظة ويسأل عن معناها فيسخر من السائل لانه يبحث عن المعنى ولا يكتفى بوقع اللفظة فى الاذن أو من منظرها للعين القارئة . فمن عناوين مارينتى امام المستقبلية « زانج تمب تيايم » Zang Tumb-Tuuum ومن عناوين زميله أردينجوسوفيسى 18 + Bifz ما لا يفهم ولا يترجم . وانما هو مقابل عندنا لحرف الباء ثم الياء ثم الفاء ثم علامة موسيقية ثم زاى ثم علامة + ثم رقم ١٨)

وقد عقب صاحب تاريخ الادب الايطالي على امام هذه المدرسة فقال انه لم يجاوز حدود السخف فى شعره .. ولم يخل كلام المؤرخ من مجامله . لان السخف معنى يوصف بالرداءة .. ولا معنى هنا ولا وصف لردىء أو غير ردىء (١)

***

ولا بد من وضع هذه الدعوات فى موضعها من تاريخ الاداب الانسانية والاداب الاوربية التى تظهر بينها .. فما هو موضعها الصحيح ؟

موضعها الصحيح انها تمثل جانب السخافة الذى لا بد أن يتمثل فى بيئة يباح فيها القول لكل قائل والقراءة لكل قارىء ، ولا يخجل فيها العاجز من عجزه ولا صاحب اللجاجة من لجاجته ، وهم جميعا فى غمرة من محن

---

(١) صفحة ٤٨٥ من كتاب تاريخ الأدب الايطالى تأليف « ارنست هاتش ولكنز »

الحروب والفتن والقلاقل والافات . فهل تخلو هذه البيئة من جانب سخافة فى الاذواق والدعوات ؟ وأين هو هذا الجانب أن لم يكن هذا مظهره الذى يتمثل فى صوت القنوت ؟

ولسنا نقول ان هذه السخافة جانب يهمل ولا يلتفت اليه ، فانها خليقة أن تدرس كما تدرس عوارض الامراض والعلل والنكبات ، ولكن البون بعيد جدا بين دراستها لهذا الغرض ودراستها للاقتداء بها واعتبارها من مدارس الفن والادب ونماذج الذوق والجمال

ولا تفوتنا فى معرض الكلام على الشطط الفنى ملاحظة وثيقة الصلة بموضوع الخلط الذى يقال عنه أنه هو الفن الصحيح أو انه هو التعبير الصادق دون غيره عن الوعى الباطن والسريرة الانسانية فى أعماقها « اللامنطقية » على حد تعبيرهم المأثور

فالخلط الهاذر مذهب لم يخلقه دعاة « اللامنطقية » فى القرن العشرين ، ولكنهم خلقوا شيئا واحدا فيه لم يسبقهم أحد اليه ، وهو اطلاق العناوين العلمية عليه واستعارتها من دراسات التحليل النفسانى أو من دراسات العلوم الطبيعية ، وقديما وجد فى الشعراء والفنانين من يجنح به هواه أحيانا الى رفع الكلفة واطراح الحشمة والابتذال فى اللفظ أو المعنى أو فى كليهما ، فيسترسل فى الهذر واللغط كأنه فى اجازة من « نفسه الفضلى » كما يقولون ، وينسب الى هذه النزوات شعر المجانة والهزل وشعر الاباحة والجموح ، وينسب اليه كذلك ضرب من الشعر الذى يخيل الى الناس انه محدثهم بالحكم والامثال وهو فى أسلوبه الهازل ساخر بضروب الحكمة والمثل ، كما صنع بن سودون اليشبغاوى (٨٠١ ــ ٨٦٨ هـ) فــى

قصيدته البائية التى يقول فيها :

عجب عجب عجب عجب
بقر تمشى ولهـــا دنب
ولهـا فى بزبزها لبـن
يبـدو للنـاس اذا حلبوا
ولا تغضـب يوما ان شـتمت
والناس اذا شتموا غضبوا
من أعجب ما فى مـصر يرى
الـكرم يرى فيـه العنب
والنخـــل يرى فيـــه بلـح
أيضــا ، ويرى فيـه رطب
زهر الكتـان مع البلســ
ـان هما لونان ولا كـذب
كيهود فى دير ، خالطوا
بنصـارى حركهم طرب

وادخل من هذا فى باب « اللامنطقية » مذهب من مذاهب الزجل فى اللغة الدارجة يعاقبون بينه وبين الادوار المقصودة ، فيبدأون بالدور العاقل ويتبعونه بالدور المجنون الى نهـاية الزجل ، ويحفظ من هـذه الأزجال كثير فى مجموعات هذا والاجيال القريبة ، من أمثلتها فى كتـاب ترويح النفوس لحسن الآلاتى زجل يقول فيه :

كسرت بطيخـــة رايت العجـب
فى وسطها اربع مداين كبـار
وفى المـداين خـلق مثل البقـر
فى كل واحدة أربع قواعى حصار
وفى القـلاع أقوام طـوال اللاقون
ودمعهم يجـرى شـبيه البحـار

من دمعهم تزرع نجوم السما
في خلقــة المشــمش عــديم المثــال

وأحيانا يقسمون الادوار الى دور صاح ودور سكران . او يصوغون فيها المفارقات على ألسنة الصبيان كمــا يجرى على الســنة العــامة :

يا ليــــل يا عين معـــــرفش اكدب
والضــفدعة شـــايلة مـــركب
وابو فصـــــــاده ريســــــها
والقـــــط الاعـــــور حارســـــها

الى أشباه هذه « اللامنطقيات » المتواضعة التى يضعها أصحابها في مواضعها ويسمونها بأسمائها ولا تعدو عندهم أن تكون « منفسا » يستبيحونه الى حين ويعرضون به « اللامنطقية » في صورة فنية ، ويعلمون ويعلم الناظرون اليها أنها من قبيل الصور الهزلية أو « الكاريكاتور » ،ولا يطلبون من الانسانية أن تحلها في محل فنونها وأن تنبــذ المنطق في سبيلها

فاذا كان لا بد من هذه اللامنطقية في الاداب العربية فعندها منها ما يغنيها ولها فيها مجال لا يخرج بالعقل من دائرة العقل ولا بالجنون من دائرة الجنون

الشعر أسبق أم النثر؟

السيد جوردان شخصية مشهورة من الشخصيات المضحكة في احدى روايات « موليير » التى استوى بها على عرش الفكاهة المسرحية فى الآداب الفرنسية ..

ومدار الفكاهة فى شخصية جوردان أنه غنى من محدثى النعمة أراد أن يتشبه بالنبلاء فاتخذ له معلمين يعلمونه الرقص والمسايفة والبلاغة ، وجاء بالطرائف التى لا تخطر على البال وهو يحاول أن يفهم دروسهم ويعقب على شروحهم وأقوالهم ، فاذا هو كما قال يتكلم « النثر » طوال حياته ولا يعرف ذلك حتى عرفه من كلام معلم البلاغة !

لقد أفهمه معلمه معنى الشعر ومعنى النثر ، فخيل اليه أن النثر هو ما ليس بكلام موزون منظوم ، وتخيل اذن أن كلامه طول حياته داخل فى ذلك التعريف ، وأنه كاد أن يقضى بقية حياته وهو يجهل هذه المعجزة .. لولا أنه تلقى الخبر اخيرا من الاستاذ

أراد موليير أن يجعل السيد « جوردان » مضحكا بهذه العبارة فأفلح فيما اراد وضحك الناس مما قال ، لانهم ادركوا على البديهة من غير تطويل فى البحث

والاستقصاء أن السيد « جوردان » مخطىء فى تصوره الساذج ، وان النثر شىء غير مجرد الكلام الذى لا ينطبق عليه تعريف الشعر : وهو الكلام الموزون المنظوم

فاذا لم يكن الكلام شعرا فليس من الضرورى اللازم فى هذه الحالة أن يكون نثرا لا محالة . قد يكون كلاما وليس بشعر وليس بنثر ، لان المقصود بالنثر هو التعبير الادبى فى غير نظم أو وزن من أوزان البحور الشعرية ، وقد يتكلم الانسان طول حياته وهو لا ينظم ولا ينثر ، اذا كان كلامه خلوا من التعبير الادبى فى المنظوم والمنثور

واذا سأل السائل : أيهما أسبق ، الكلام أم الشعر ؟ فلا محل للخلاف ولا لاطالة الروية قبل الجواب ، فان اللغة سابقة للكلام المنظوم والكلام المنثور على السواء . ولكن السؤال الذى يقع عليه الخلاف هو : أيهما أسبق ، الشعر أم النثر ؟ ونعتقد نحن أن الشعر أسبق من النثر بزمن طويل . نعتقد هذا ولا نحسب أن الدليل القاطع فى تقرير هذا الراى مستطاع ، ولكنه رأى يقوم على القرائن التاريخية والقرائن النظرية ، ولا ينقضـــه من الواقع شىء معلوم حتى الآن

فمن القرائن التاريخية أن الشعراء أقدم من الكتاب ومن الناثرين على العموم ، اذا صرفنا النظر عن الكلام المكتوب أو المحفوظ فى الاوراق

فشعراء العرب فى الجاهلية لا يسبقهم ناثر ، ولا يحفظ العرب كلاما منثورا يقترن تاريخه بالتاريخ الذى نظموا فيه قصائدهم المروية ، وما بقى من كلام الكهان المسجوع فهو ــ ان صح ــ ادل على قدم الشعر والقافية ، لان الكلام المقفى محاكاة للشعر الذى تلتزم فيه الاوزان والقوافى ، ودليل على سبق الكلام المنظوم للكلام المنثور ، ولم يثبت قط أن الشعر هو سجع متطور ، لان التاريخ

لم يحفظ لنا قط كلاما مسجوعا عن عصر من العصور ليس فيه شعر ، ولم نعرف عن الشعراء فى أقدم العصور أنهم سجعوا ثم تطوروا فنظموا . ولم تزل أسجاع الكهانة غير أوزان « الشاعرية » فى طبيعتها وموضوعها ، فالكاهن لا يتدرج من السجع الى النظم والشاعر لا يتعلم الكلام الموزون من المرانة على الكلام المسجوع

والآداب اليونانية هى مرجع الباحثين عن أوائل الآداب الاوربية القديمة ، وهى شاهد آخر على سبق النظم للنثر فى جميع الآداب ، لان « هومير » قد نشأ فى زمن سابق للقرن السابع قبل الميلاد ، وكان من معاصريه فى بعض الاقوال « أرشيلوكس » الذى أشار فى قصائده الى كسوف الشمس ، وحسب الفلكيون أنه كسوف أبريل سنة ٦٤٨ قبل الميلاد ، أو كسوف مارس سنة ٧١١ قبل الميلاد ، وليس فى المحفوظات اليونانيه كلام منثور يرجع الى ما قبل التاريخ .. وكل ما بقى من الكلام المسجوع الذى يقارب ذلك التاريخ فهو من قبيل سجع الكهان ، أو من قبيل السجع الذى يستعان به فى الخطابة ، وأقدم ما ورد من ذكره لا يرجع الى عصر سابق لعصر الناقد المعروف ثراسيما كوس Thrasymachus وهو من أبناء القرن الخامس قبل الميلاد

أما الادب اللاتينى فقد كان من الواجب أن تنعكس فيه هذه القاعدة لانه الادب القديم الذى امتاز بالرسائل المأثورة لسعة أطراف الدولة وتجدد الحاجة الى المراسلة بين سكان تلك الاطراف المترامية ، ومنهم الادباء والبلغاء

ولكن الثابت مع هذا أن الاغانى اللاتينية سابقة للملاحم والقصائد فى لغة اللاتين بعد تطورها ، وأن مشاهير الشعراء سابقون لمشاهير البلغاء والكتاب

واصحاب الرسائل المنتقاة ، ومنهم شيشرون الناقد الاديب الخطيب

وما يؤثر عن قدم الشعر فى الآداب العربية والاوربية شبيه بالمأثور عن آداب الامم الشرقية فى جملتها ، فليس فى آدابها نثر أقدم من قصائدها المقدسة وأغانيها الشعبية الاولى ، وكل محفوظاتها المسجوعة لاحقة بمحفوظاتها من الشعر الموزون

وقد يخطر على البال أن السبب راجع الى الحفظ لا الى القدم ، وأن النثر قد سبق الشعر ولكنه لم يبق كما بقى الشعر ، لان الكلام الموزون أيسر حفظا من الكلام المنثور . ولكنه خاطر مردود يسهل نقضه بقليل من الروية فيه ، فان سهولة الحفظ نفسها تحتاج الى التعليل ، وليس لها علة الا أن يكون الكلام المحفوظ اقرب الى الطباع وأدنى الى الفطرة وأغنى عن الصناعة ، وأن الكلام الذى يصعب حفظه بغير التسجيل فى الورق يعتمد على صناعات كثيرة ولا يكفى فيه الاعتماد على الفطرة ، فهو معلق بمعرفة الحروف ومعرفة الادوات الكتابية وتطور المجتمع مع تطور الحاجة فيه الى التدوين بغير الوسائل الفطرية ، وهى وسائل الحفظ والتعويل على الذاكرة

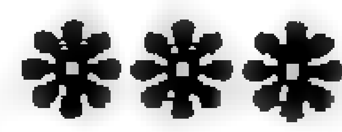
وقد يبدو للسيد « جوردان » أن تأخر النثر عن النظم شيء غريب ، لانه يخلط بين ظهور النثر وظهور اللغة ، وهى ولا شك سابقة لظهور الشعراء والبلغاء

لكن السيد جوردان مضحك كما أراده موليير ، ومضحك كما رأينا من فهمه لكل شيء . فالواقع أن تأخر النثر عن النظم ترتيب طبيعى لا غرابة فيه ، اذ كانت شروط الشعر تتوافر قبل توافر الشروط المطلوبة للكلام المنثور ،

ويكفي لظهور الشعر أن تظهر فى انسان من الناس ملكة غنائية ، وهى من أقدم الملكات فى الاحياء . أما الكلام المنثور فما الحاجة اليه فى المجتمعات الاولى ؟ وما أكثر الشروط الصناعية التى ينبغى أن تتوافر فى المجتمع قبل شعوره بالحاجة اليه !

ولا نخلط بين الخطيب والناثر فهما شيئان مختلفان ، فان الخطابة فى المجتمعات الاولى صفة من صفات الزعامة ، وليست كذلك صفة الناثر البليغ ، ولكننا — على فرض التشابه بين الخطابة والنثر — قد نتصور ظهور الشاعر قبل ظهور الخطيب والناثر ، لان ملكة الشعر لا تتوقف على نشوء « القبيلة السياسية » التى تستمع الى الخطباء فى شئونها العامة ، بل لعلها توجد مع الدوافع الحيوية التى تهم كل فرد على حدة ولا تتوقف على سياسة الجماعات

والغالب أن الشعر فطرة وأن النثر تعليم ، وأن الباعث الى الكلام البليغ يأتى بعد الباعث الى الغناء ، فقد تغنى الحى الذى لا يتكلم ، وليس بالمعقول أن يصل الحيوان الناطق الى الكلام وهو عاجز عن الغناء وعن صوغ كلامه فى النغم الموزون



فى حديث مروى عن استاذ المدرسة الموسيقية القديمة مصطفى رضا بك — رحمه الله — أنه كان يعجب للذين يعرضون أنفسهم على محطة الاذاعة المصرية للغناء وهم لا يفرقون بين المقامات الموسيقية وعناوين النغمات ، وأنه كان يشبههم بمن يتصدى لكتابة خطاب قبل أن يميز بين الحروف وأنواع الخطوط . وهذا قياس مع الفارق كما هو ظاهر ، فان الاحرى أن يقال ان المغنى

الذى لا يعرف أسماء المقامات والانغام كالشاعر الذى لا يعرف أسماء البحور والاعاريض

وقد وجد الغناء قبل أن توجد أسماء مقاماته وأنغامه ، ووجد الشعر قبل أن توجد أسماء بحوره وأعاريضه ..

لكن العجيب حقا هو أن يوجد ناثر قبل أن توجد الحاجة الى التدوين ، فحيثما وجد النثر فهناك جماعة تحتاج الى تدوين الكلام ، ولو لم يكن صاحب النثر نفسه هو الذى يدون ما يقول ، بالحروف أو بغير الحروف

ولهذا نرى أن سبق الشعر لا عجب فيه ، وأن سبق النثر فيه شيء من العجب ، وأن أولاهما بالسبق هو أغناهما عن الصناعة وتطور الجماعة ، وأقدرهما على الاكتفاء بالفطرة على ابسط ما تكون

الشعر لازم

الشعر لازم فى عامنا هذا كما كان لازما فيما سلف من ألوف السنين ومئات العصور

لاينقص من لزومه شيوع الصاروخ كما قيل ..

بل هو ألزم ما يكون حين تشيع الصواريخ وتشيع معها اخواتها من صفائح الحديد والخشب والات النار والكهرباء

وكلما غلبت المادة وصفائحها وآلاتها تحسس الانسان مكان روحه ، وارتد الى قرارة عواطفه ووجدانه ، يطمئن على نفسه : الا يزال انسانا بعد ، أو هو قد فقد الانسانية فى كيانه وصار مع الصاروخ واخواته آلة من الآلات ، وقطعة من الخشب والحديد ، وشواظا من النار والكهرباء

وما كانت بالانسان حاجة الى أن يتلمس دخيلة حياته بين جنبيه ، يوم كانت عشرته من الاحياء ، وطعامه من خيرات الاحياء ، ومقامه بين صنوف الاحياء ، ورحلته على متون الاحياء

ولكنه فى عصر الصاروخ ، احوج مايكون أن يتلمس موطن تلك الحياة ، وأن يستمع الى نجوى فؤاده بلسان الحياة ، وأن ينظم الشعر ويحن الى النغم ويشهد صور الجمال والعطف فى كل منظور ومسموع

وماكان الصاروخ ليحل محل الشعر واخواته من فنون الجمال ، اذ كان الناس لم ينظموا الشعر لانهم بحثوا عن الصاروخ فلم يجدوه ، وانما نظموه لانهم يحسون وينطقون ولانهم يترقون مع الزمن فيزدان النطق عندهم بالجمال ، ويحسن الانسان من التعبير الجميل مالم يحسنه الحيوان، ويستطيع من النظم ماليس يستطيعه الطير بالتغريد ، ولا الخيل بالصهيل ولاسباع الغاب بالزئير

ولئن سبق الصاروخ الطيارة لن يسبق الصاروخ سبحات الخيال ..

لقد سبقه الخيال يوم تحدث للانسان عن حصان الآبنوس ، وعن أجنحة واق الواق ، وسبقه الخيال فأملى على الصانع كيف يكون الطيران بالقوة ، وكيف يكون الطيران بالخفة ، وقد كان العلماء يجزمون جزم اليقين الا طيران فى الهواء بغير أداة أخف من الهواء ، عجزا منهم عن فهم الطير كيف يطير حين لم يعجز الخيال ، وانما هى القوة يطير بها ذو الجناح كما يطير بها الحصان الطيار

ان الشعر لازم للانسان الناطق ، مادام ينطق ويعقل ويترقى بالنطق فى معارج الكمال ومعارض الجمال

ان الشعر الزم مايكون للانسان فى عصر الصواريخ ..

وان حفاوتنا به فى هذا العصر شهادة لعصر الصاروخ تشرفه وتعليه ، لانه لم يتخلف عن عصور تعلم فيها الانسان كيف يكون انسانا بالمنطق الساحر واللسان المبين

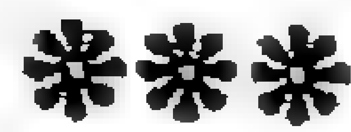
وفى الغرب الذى يدين بالصاروخ علامات كهذه العلامة، وآيات كهذه الآية ، تنويها بلزوم الشعر وعنوانا على اللهج به والحرص عليه

فى السنوات الست الاخيرات ـ سنوات الصاروخ ـ صارت الجائزة العالمية للادب الى ستة من الادباء : خمسة

منهم شعراء ، وهم خيمينيز الاسبانى ، وباسترناك الروسى وكوميميدو الايطالى وبيرس الفرنسى وسيفريس اليونانى

ومهما يكن من الرأى فى انصاف جائزة نوبل العالمية ، أو فى نظرتها الناقدة الى الآداب والفنون فلا نكران عليها انها علامة من علامات الزمن بصوابه وخطئه ، وبما يراه من لزوم ومالا يراه

ولا علامة للشعر اللازم فى هذا الزمن ، أصدق من العلامة التى تدل على امم خمس : بينها من المشابهات والفوارق مابين الاسبان والروس والطليان والفرنسيين واليونان



اذا لزم الشعر فى لغة من اللغات فانما يلزم لألزم ما فيه والزم ما فى الشعر انه فن من الفنون

والزم مافى الفن أنه ذو قواعد واصول ، توائم فى كل لغة ماطبعت عليه تلك اللغة ، وتوائمه فى اللغة العربية — خاصة — أنها لغة الوزن فى كل كلمة وفى كل صيغة ، فليست فيها كلمة واحدة تنعزل من وزن اشتقاق أو وزن سماع .. لا شعر بغير فن .. ولا فن بغير قاعدة

والذين يقولون بغير ذلك يقولون عجبا يستغربه السامع ويستغرب الذى يسمع ويفقه مايقال كيف يصغى اليه السمع وكيف يستجيب له الفهم ، وكيف يتكرر بعد تكرار اللسان فيه

يقولون ان قواعد الوزن تدعو الانسان أن يقول مالا يلزم ، تكملة للوزن حيث لا محل له من الكلام

هل يقال هذا فى الشعر وحده أو يقال فى شتى الفنون عندنا وعند غيرنا من العالمين ؟

ماذا يصنع منشد الغناء ؟

ماذا يصنع الراقص فى حركات يديه وقدميه ؟

ماذا يصنع الموسيقار فى صوته المرسل بغير كلام ؟

الا يزيد المغنى فى غنائه ليطابق فيه بين الالفاظ والالحان؟

انبطل الالحان لانها تسومنا المد فى الصوت وراء مايلزم .. كما يقال ! او لانها تسومنا الزيادة فى الحروف والكلمات وراء ماتتم به جملة المبتدأ والخبر أو جملة الفعل والفاعل ، أو جملة المحمول والموضوع ؟

انبطل الرقصة التى تسوم الماشى أن يخطو فوق خطوه أو يقصر عنه باختياره ؟

ان الفنان لايضع فى مده أو زيادته غير مايلزم ، بل غير اللازم قبل كل لزوم : وهو رعاية الفن والقاعدة فى الفنون . وليس الوزن زيادة فى المقال بل هو قوام المقال كله ، الا أن يكون من غير الفنون . وانما الشعر تفاعل كامل بين اللفظ والمعنى وقاعدة القواعد الفنية فى وزن أو نظام مقدور

وملكة الشاعر هى الملكة التى تقدر على هذا التفاعل بغير حشو أو فضول ، أو يكون الحشو والفضول ـ ان كانا ـ زيادة للمعنى وتوكيدا للاثر ، لا وقرا محملا عليه ، ولا فضولا ملصقا به ، ولا لغوا مضافا اليه

وكل بيت فى الشعر المطبوع آية على صدق هذا التفاعل التام بين الالفاظ والمعانى والاوزان ، وآية على لزوم الوزن كلزوم لفظ الشعر ومعناه

أمامنا مثل من ابيات لامرىء القيس وصفا للفرس :

وقد اغتدى والطير فى وكناتها
بمنجرد قيد الاوابد هيكل
مكر مفر مقبل مدبر معا
كجلمود صخر حطه السيل من عل

كميت يزل اللبـد عن حـال متنه
كمـا زلت الصـفواء بالمتنزل

لاشك أن كلمات « الهيكل » و « من عل » و «المتنزل» قد جاءت لوزن القافية اللامية

ولكن هل هي زائدة ؟ كلا .. ونجرب حذف الهيكل لنرى كيف ينقص المعنى والاثر ، ولو كان من الكلام المنثور

نقول مثلا : « اننا نغدو مبكرين قبل نهوض الطـير بمنجرد قيد الاوابد ...

فنسمع وصفا للسرعة ولا نسمع وصفا للشكل والحجم والمنظر ، وانما يتم ذلك كله حين نقول انه قيد الاوابد هيكل أي أنه ضخم جسيم

ولقد يقال أن كلمة أخرى تحل محل « هيكل » حـين نقول « ضخم أو جسيم أو مكين »

فهل ترانا نشعر بأثر لهذه الكلمات كما شـعرنا بأثر الهيكل فيما حققته الكلمة من وصف الجسامة والصوره والمثال ؟

جواب ذلك عند من يتهمون القافية بزيادة الفضول ، ان لم يكن جوابهم هنا من فضول المقال

ونأتي بعد ذلك الى كلمة « من عل » وهي التى تتمم وصف الجلمود وهو ينحط مع السيل ، فهـل يتم الاثر بحذف هذه الكلمة ؟ هل التذكير بانحطاط الحجر من الاعلى فضول وزيادة بغير مدلول ؟

وهل ذكر المطر دون وصفه بالمتنزل تنزيه للبيت من اللغو او هو مما يتمم هذا الوصف للمطر بالتنزل والزلل عن متن الصفواء فى هذه الحال

وابيات غير هذه الابيات من كلام المعرى يقول فيها مفتخرا :

الا فى سبيل المجد أنا فاعل
عفاف واقدام وحزم نائل

أعندى وقد مارست كل خفية
يصدق واش أو يخيب سائل

تعد ذنوبى عند قوم كثيرة
ولا ذنب لى الا العلا والفضائل

فمما لاشك فيه أن النائل والسائل والفضائل قد جاءت فى مواضعها هنا لان القافية لامية

ولكن لماذا نغيرها لضرورة المعنى ؟

ولماذا نقول معنى غير هذه المعانى التى تؤدى بهذا النظم وهذه القافية ؟

ولماذا نعدد فضائل اخرى تزيد على هذا العدد أو تنقص منه ، بعد ذكر العفاف والاقدام والحزم والنائل .؟ واذا كانت كلمة العطاء مثلا تؤدى معنى كلمة النائل ، فلماذا نفضلها عليها

ويقول ابن الرومى فى وصف مغن كريه الصوت والغناء:

أبو سليمان لا ترضى طريقته
لا فى غناء ولا تعليم صبيان

له اذا جاور الطنبور محتفلا
صوت بمصر وضرب فى خراسان

فمما لاشك فيه أن خراسان جاءت هنا وزانا لصبيان ، بل لاشك أن « محتفلا » فى الشطر الاول كلمة لازمة لتمام البيت ..

لكن الشاعر قد يقول بدلا من الشطر الثانى : « صوت

بمصر وايقاع ببغداد » اذا كانت القافية دالية .. فماالذى يختلف بين هذين الاسمين ؟

وقد يحذف الناثر كلمة « محتفلا » بعد الطنبور فيقول : له اذا تناول الطنبور صوت هنا وضرب هناك .. فهل يكسب البيت بحذف هذه الكلمة ويقوى ؟ أو يخسر ويضعف ؟

ان كلمة « محتفلا » تصور لنا اجتهاد المغنى وتأهبه بجلسته وايمائه واستعداد السامعين للاصغاء الى شىء حسن ، فاذا بهم يفاجأون بالصوت الردىء ، فلا يكون أثره فى نفوسهم كأثره فيها وهم لايرون ذلك الاحتفال ولا ينتظرون بعده الاتقان والكمال ... فما جاءت «محتفلا» هنا فضولا لاجل الوزن ، بل كان تفاعل الكلمة مع الوزن سببا لاستدراك نقص واستكمال اثر ، لم يكن لهما فى النثر من داع منبه لهذا الاستدراك

اننا نردد اليقين بالشعر اللازم والفن الألزم ..

لزوما يتم فيه المعنى واللفظ بالوزن والقافية ، وتؤدى فيه ملكة الشاعر المطبوع عملها « تفاعلا » حيا بين نغماته وحروفه وكلماته ، تتزاوج فيه جميعا لتزداد بلاغة فى الاثر وايناسا للسمع ، واشباعا للاداء ، ونفيا للفضول ،وتجاوبا بين الوقع والايقاع ... وعلى ذلك جبلت ملكة الشاعر المطبوع . من رزقها قال وتغنى وأفهم وأثر ، ومن لم يرزقها فلاحق له فى قول الشعر ولا فى القول فيه ، ولان يسكت فلا يقول شعرا ولا يقول عن شعر خير له وللناس ، وخير للشعر والفن وللعقول والاسماع

التجديد فى الشعر

اذا أوجزنا قلنا ان التجديد هو اجتناب التقليد ، فكل شاعر يعبر عن شعوره ويصدق فى تعبيره فهو مجـدد وان تناول أقدم الاشياء . هل شيء فى هذا العالم الارضى أقدم من الشمس ؟ ان الذى يصفها اليوم صـــادقاً فى وصفه غير مقيد فى تصويره مجدد تمام التجديد ، وان لم يأت بكلام جديد

هكذا تجدد الشمس النهار ، وتجدد الارض الربيع ، ويجدد الشباب الامل والحب جيلا بعد جيل

وليست الدنيا عتيقة بالية لانها تجيئنا كل عام بربيع كالربيع الذى تقدمه ، وليس الشـاعر عتيقاً باليا لانه يجيئنا بذلك الربيع كما جـــاءت به الدنيـا فى حينه ، موصوفاً على الصورة التى عهدها آدم فى جنة الفردوس ، ثم عهدها أبناؤه فى جناتهم على هـــذه الغبراء ! ... التجديد ـ فى كلمتين ـ هو اجتناب التقليد

أما اذا تعمدنا الاسهاب والتفصيل ، وتناولنا عناصر الشعر جميعا فهى مختلفة فى قبولها للتجديد ، أو مختلفة على الاصح فى حاجتها الى التجديد

هذه العناصر هى اللفظ والوزن والموضوع ، وهى على

هذا الترتيب فى حاجتها الى التجديد مع الزمن : فاللفظ الذى يتألف منه الشعر يبقى الف سنة ولا يطـــرأ عليه تغيير يذكر ، ويصلح فى هذه الحالة لشعر امرىء القيس كما يصلح لشعر البارودى ، مع قليل من التحـوير الذى لا يلتفت اليه الا المختصون بتسجيل أطوار الكلمات

ونعنى باللفظ هنا المفردات فى غير الجمل والأبيـات ، وهى المفردات التى تطرأ عليها الزيادة القليلة كل بضـعة قرون ، أو يطرأ عليها اختلاف الاستعمال من فتـــرة الى فترة فى حياة اللغة الواحدة ، ولابد للشاعر من متابعة هذه الاطوار وقد يكون هو عاملا من عوامل الزيادة والتصرف فى الكلمات

الا ان الجهد فى تجديد المفردات يظل على الدوام أقل واهون من الجهد فى تجديد الأوزان وتجديد الموضوعات . فالمعجم الشعرى اليوم قريب من المعجم الشعرى فى عهد اصحاب المعلقات . أما الوزن فقد اختلف فى عدد البحور، واختلف فى عدد القوافى ، ولا يزال قابلا للاختلاف ، وفى حاجة الى الاختلاف

كانت أوزان الشعر فى الجاهلية قليلة البحور ، وكانت القصيدة الواحدة قليلة الأبيات . ثم تعددت البحـــور ومجزوءاتها ، وتضاعف عدد الأبيات فى القصيدة الواحدة، وطرأ التنويع على القافية فى الرجز ثم فى التســـميط والتشيح ، ثم انتهينا الى العصر الحديث فظهر بيننا من دعاة التجديد من يدعو الى الغاء القافية ونظم الشـــعر مرسلا أو مطلقا على الطريقة الأوربيـــة ، ولكنها دعوة لم يكتب لها النجاح ، ولا نظنها جديرة بالنجاح فى المستقبل. لان أعاريض الشعر العربى تستلزم القـــافية من حيث لا تلزم فى الأعاريض الأوربية ، وقد يكون الاطلاق من القافية فى الأعاريض الأوربية نفسها مقصورا على المطولات والملاحم

التى تصلح للقراءة وقلما تصلح للسماع · والشعر قبل كل شيء سماع

والذى نعتقده او نشعر به ، أن تنويع القـــوافى اوفق للشعر العربى من ارساله بغير قافية ، وانه يقبل التنويع فى أوزان المصاريع والمقطوعات على أسلوب الموشـــحات ، فيتسع للمعانى المختلفة والموضوعات المطولة ، ولا ينفصل عن الموسيقية التي نشأ فيها ودرج عليها ، ولعلنا لانحتاج الى تيسير أوسع من هذا التيسير ، كائناً ما كان موضوع القصيد وان طال غاية المطال

تجديد قليلٌ فى اللفظ ، وتجديد أكثر منه فى الوزن ، وتجديد أكثر من هذين التجديدين فى الموضوع · فكيف يكون هذا التجديد فى الموضوع ؟

ان صرف الشعر الى الاجتماعيات والأحداث العـامة راى من الآراء فى تجديد الموضوعات الشعرية ، ويقترن به راى آخر ينادى بالطابع الاقليمى فى الشعر خاصـــة وفى الأدب عامة ، ويقول آخرون بالشعر المسرحى او شـــعر القصة المسرحية وغير المسرحية ، وكل هذه الآراء مقبولة من ناحية مرفوضة من ناحية ، لأن العبرة فى الشـــعر بالملكة التى توحى معانيه ، وليست العبرة بالعنوان الذى تختاره لموضوعاته ، كعنوان المسرحية او عنوان الشـــعر الاقليمى ، او عنوان الشئون الاجتماعية والمســـائل العالمية

ونحن اذا نظرنا الى الشعر من ناحية الملكة التى توحيه وجدنا ان ملكة الشعر الغنائى قد لازمت القصيدة العربية من نشأتها الاولى ، فهى تتردد بين نغمات الغزل والفخر والحماسة والرثاء ، او تتردد بين ألوان الشعور الفردى البسيط ، ويندر ان تتخطاه الى الشعور المركب المتوشج،

وهو الشعور المتجاوب بين عدة نفوس على عدة أمزجة وفى عدة حالات

فاذا كان للتجديد فى موضوع الشعر وجهة ، فهذه هى الوجهة التى أمامنا ، ولتكن سبيلها الرواية المسرحية أو الحادثة العالمية او الأوصاف الاقليمية ، فانما العبرة بالملكة التى توحى المعانى فى جميع الموضوعات ، وليست العبرة بالعناوين التى نخلعها على هذه الموضوعات

والفرق بين الشعر الغنائى والشعر المركب المتجاوب هو الفرق بين الربابة وبين الفرقة الموسيقية التى نسمع منها عشرات المعازف فى نغمات متعددة مع التناسق بينها والوحدة فى مجموعها ، وينبغى أن نذكر هنا أن التنوع والتجاوب هما المقصودان بالتصرف والتجديد ، وليس المقصود هو كثرة الآلات التى نعزف عليها فى وقت واحد. فان ألف ربابة توقع لنا لحنا واحدا هى أسلوب ساذج بغير تصرف . وقد يكون التصرف كل التصرف فى ربابة ومزمار ودف وبيان تختلف وتتجاوب وتفلح فى الارتفاع بالشعور من البساطة والانفراد الى التجاوب والتركيب

ولكن الخير أن نبقى كما نحن ، وأن نقصر نظمنا على الشعر الغنائى ، اذا كنا ننظم فى الموضوعات الجديدة تقليدا للذين سبقونا الى النظم فيها ، فان التقليد نقيض التجديد ، والدرهم الصحيح أنفس من الدينار الزائف يحكى الذهب باللون والصورة ولا يحكيه بالمعدن والقيمة

ومن أمثلة الدعوات الزائفة الى التجديد أن يسمع بعضنا بالشعر الاقليمى فى اللغة الانجليزية ــ وأكثره من شعر الامريكيين ــ فيخطر له أن الشعر الاقليمى اختراع واختيار، وينسى أنه واقع طبيعى لا محل لفرضه على الشعراء ، حيث لا تفرضه عليهم طبيعة الحياة ، وفى أمريكا أقاليم لا تتشابه

في الموقع ولا في المكان ولا في المعيشة ، فهم لا يختـــارون الاقليمية في الشـعر ولا في الجغـــرافية ؛ ونحن هنا لن نستطيع أن نزرع قمحا في التربة المصرية دون أن يصبح قمحا اقليميا باختيارنا أو بغير اختيارنا ، ومن قال للشاعر : كن اقليميا فقد قال له كن مقلدا • ولكنه اذا كان من طبيعته منتميا الى اقليمه فلا حاجة به الى الامر والارشاد

كذلك يقول بعضهم متعجبا : هل توحي حرب طروادة الى هوميروس بالالياذة ولا تظهر في العصر الحديث الياذة أضخم منها بعد الحرب العالمية العظمى ؟

ولو كان هؤلاء القائلون يفهمون وحي الابتكار في الشعر لما خطر لهم أن شـــاعرا عصريا ينبغي أن ينظم الياذة في الحرب العالمية ، لان شاعرا قديمـــا نظم اليـــاذة في حرب طروادة • مـن أين لهم مثـــلا أن هوميروس كان ينظم في الحرب العالمية الياذة لو أنه عاش في زماننا ؟

من أين لهم أن ضخامة الحـرب هي التي توحي بالنظم فيها ؟ فقد تكون الحرب بين عشرين فارسا متقابلين أعنف في اثارة النفس من حرب الملايين بين الخنادق لا يشـــهد بعضهم بعضاً ولا يعرفون من الحركة غير ضغط الزناد !

كذلك لا يفقه التجديد من يحسب أن الشعر المسرحي حيث كان أرفع من الشعر الغنائي في كل موضوع • فان الشاعر المسرحي الذي لا يرسم لك شخصية واحدة صحيحة أقل من الشاعر الغنائي الذي يتحدث لك عن غناء البلبـل فيصدقك الحديث والشعور ، فكل فضل الشاعر في الملكة التي توحي اليه شـعره دون العنـــاوين التي يطلقها على موضوعاته ، ونحن لا نفضل الشاعر المسرحي على الشاعر الغنائي الا لان الشاعر المسرحي يستطيع شعر الغنـــاء ويستطيع زيادة عليه ، وهـذه الزيادة عليـــه هي الحس

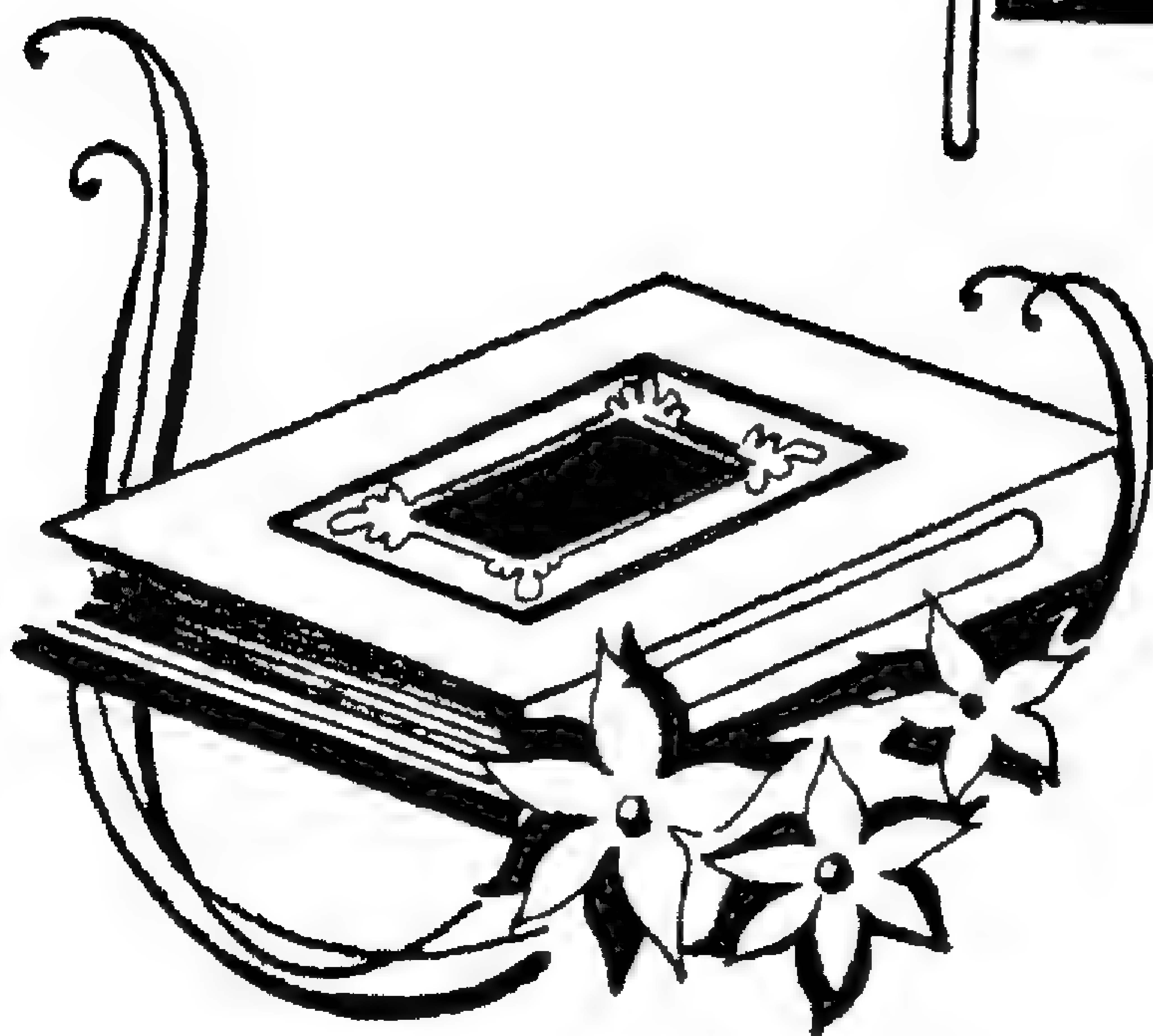
المتجاوب فى النفوس المتعددة ، فان كان يملك هذا الحس فهو صاحب الفضل بهذه الملكة أيا كان الموضـــوع الذى يختاره لنظمه ، وان لم يملكها فالموضوع لا يعطيه ملكة هو محروم منها

واذا كان التجديد هو اجتناب التقليد فالتجديد كذلك هو اجتناب الاختلاق ، والمختلق هو كل من يجدد ليخالف، وان لم يكن هناك موجب للخلاف · ان الذى يمشى على يديه يأتى بجديد ويدل على براعة لا يستطيعها من يمشى عـلى قدميه · ولكننا قد نضع فى يده درهمـا وقد نزج به فى مستشفى المجاذيب ، ولا نمشى على الايدى من أجل تـلك البراعة وذلك الاختلاف أو الاختلاق

نجدد فلا نقلد ولا نختلق ، ونحن مجددون كما ينبغى ـ وكأحسن ما ينبغى ـ اذا خرجنا بالشعر العربى من لحن الربابة الى لحن الفرقة الموسيقية ، شـــعورا منا بتعدد النغمات النفسية ، لا لمجرد المباهاة بكثرة المعازف وارتفاع الضجيج

الفصل الثالث عشر

أدبٌ وفن





من هو الأديب ؟

كان جماعة من « الادباء » يتحدثون عن وظيفة الادب الاجتماعية ، فاختلفوا فى الفرق بين وظيفة الاديب فى المجتمعات القديمة ووظيفته فى مجتمعاتنا العصرية ، فخطر لى ان اسألهم : ومن هو الاديب فى المجتمعات القديمة ؟

اننا نتكلم عن الادب فى المجتمعات قديمها وحديثها كأن الادب بمعناه الذى نعرفه اليوم قد كان معروفا هكذا بين جميع الامم وفى جميع الازمنة ، وهو ولاشك خطأ لايصمد لاول سؤال

فأنت اذا نزلت اليوم ببلد من بلدان الحضارة وقلت لهم دلونى على رجل من أدبائكم لم يجهلوا ماتريد ودلوك على واحد ممن يصح أن يطلق عليهم وصف الاديب كما تعنيه ..

ولكن على من يدلك أهل الجاهلية مثلا اذا نزلت بينهم وقلت لهم : دلونى على واحد من أدبائكم ؟..

انهم لايدلونك على الشاعر ، ولا على الراوية ، ولا على النسابة ، ولا على الخطيب ، وان كان العلم بالشعر والتاريخ والخطب مما يدخل فى نطاق صناعة الادب فى الازمنة الحديثة . ولو أنك سألت عن اديب فى صدر

الاسلام لفهموا أنك تقصد انسانا بريئا من العنجهية البدوية واللوثة الاعرابية :

وانى على مافى من عنجهية
ولوثة أعرابيتى لاديب

وقد تتحدث الى هذا الاديب الذى يدلونك عليه فيخوض معك فى سمر شائق وطرائف شتى من أطايب الحديث ، ولكنه قد يرضيك من هذه الوجهة ولايحسب فى زمنه من أهل العلم ، ولا يحسب فى الزمن الحديث من زمرة الادباء

ولعلهم يدلونك على مثله فى أنس محضره وظرف معشره لو أنك نزلت بمصر أو بقطر من أقطار العربية فى أواخر القرن التاسع عشر ، وسألتهم أن يجمعوك بأديب من الادباء

أما معنى الاديب كما نفهمه اليوم ، فهو من المعانى المستحدثة التى تطورت فترة بعد فترة فى العصور الاخيرة ، فكان الاوربيون يفهمون من مقابل هذه الكلمة Man of letters أنه رجل مطلع على الكتب دارس للعلوم، لان دراسة الكتب على اختلافها كانت هى الفارق بين العلماء والجهلاء . ثم شاعت الدراسة وتنوعت فعرفوا الفرق بين عشرات من الموضوعات التى يطلع عليها الدارسون ، ومنها الموضوع الذى خصص لمعنى الادب بمدلوله المصطلح عليه فى هذه الايام ...

ولكن ما هو هذا المدلول ؟ ومرة أخرى من هو الاديب ؟

أهو الشاعر ؟ أهو القصاص ؟ أهو ناقد الشعر ؟ أهو المطلع على سير الادباء والقصاصين والنقاد ؟

انك اذا قلت « فلان شاعر » فقد وصفته بغير حاجة الى وصف الادب بعد ذلك ، وكذلك تصف « القصاص »

سواء كتب القصة المطولة أو النادرة القصيرة ..
فاذا قلت عن العارف بالشعر والقصاص انه أديب قيل لك : حسن ! ولكن ما الفرق بين مؤرخ الادب وناقدالادب وبين الاديب ؟

حينئذ يلوح لك أن دليلك القديم لم يكن على ضـــلال بعيد ..

ونعنى بالدليل القديم ذلك المرشد الذى كنت تسأله فى العصور الاولى أن يرشدك الى أديب فيـــذهب بك الى رجل حسن الحديث ..

فالاديب بكلمة واحدة هو «المحدث » فى جميع العصور، وقيمته فى كل عصر تختلف باختلاف حديثه ومن يحدثه ومن يتطلب منه الحديث ، سواء كان حديثه مما تســمعه الآذان أم تعبره الاعين فى صفحات الاوراق

وبهذه الصفة وحدها يمكن أن تميزه من الشاعر ،ومن القصصى ، ومن الناقد ، ومن مؤرخ الآداب .. أيـــكون الاديب شاعرا ؟ أيكون قصاصا ؟ أيكون ناقدا للشـــعر والقصة ؟ .. أيكون عالما مطلعا على تاريخ هؤلاء وتواريخ غيرهم ممن يحفل بهم التاريخ

نعم ، ولكنه فى هذه الحالة يكون شاعرا وأديبا ، أو قصاصا وأديبا ، أو ناقدا وأديبا ، أو مؤرخا وأديبا .. ولا يلزم حتما أن يكون واحدا من هؤلاء ليقال انه أديب. فهو محدث حسن الحديث ايا كان موضـــوع الحديث وأية كانت صفاته الاخرى التى تقترن بحسن الحديث

وبهذا المعنى كان أديب الزمن القديم محدثا فى مجلس الصحب أو محدثا فى مجلس الامير .. وبهذا المعنى اصبح أديب الزمن الحاضر محدثا لقرائه ومستمعيه ، ولو لــم يجمعه بهم مجلس أو مقام

ولم ننزل بوظيفة الاديب لاننا جعلناه « محدثا » فى العصور الاولى أو فى هذه العصور .. فانما العبرة بما يقال وبمن يقال لهم فى جميع الاحاديث

فمن الناس من يحدث ليعلم ويهذب ، ومنهم من يحدث ليضرب للناس أمثال البطولة والشرف ، ومنهم من يحدث ليروح عن النفس ، ومن يحدث ليكشف للنفس سريرتها، ومن يحدث ليسلى ويلهى ، ومن يسلى ويلهى كرام الناس، ومن يقصد بالتسليه واللهو غير هؤلاء الكرام

وكلهم على هذا المعنى أديب ، ولكن شتان بين أديب وأديب ..

فلا ينزل الادب لانه حديث ..

وانما ينزل الادب اذا نزل موضوعه ومن يستمع اليه..

وقد نزل الأدب فى عصرنا هذا وصعد على جميع هذه الدرجات، فكان من أدباء العربية فى أوائل القرن العشرين من يوصف بالادب لانه سمير مجلس ، ثم شهدنا من أدباء العربية فى أيامنا هذه من يحدث قراءه جميعا كما يشاء فيجد من يصغى اليه . وكل ما تغير بين أمس واليوم أن الحديث كان بالامس موقوفا على سامع واحد أو سامعين قلائل ، فأصبح اليوم موجها الى مئات وألوف ، لعلهم لا يجتمعون بالمتحدث فى مكان

وربما صح أن شيئا اخر قد تغير بهذا الصدد ، وهو أن الادب — حيثما كان بضاعة تنتظر الجزاء — لم يكن ينتظر جزاءه فيما مضى من غير الآحاد القلائل ، وأن الاديب كان يدون أحاديثه فى الورق ليقرأه كل من حصل عليه ،ولكنه لا ينتظر الجزاء الذى يغنيه فى عيشه من هؤلاء القراء ، وانما ينتظره من فرد يتصل به ويعول عليه

أما اليوم فالاديب على نقيض ما كان بالامس ينتظر هذا الجزاء ممن يوجه اليهم حديثه على يد المطبعة أو المذياع ، وهم مئات وألوف فى وطنه وفى غير وطنه وفى زمنه وغير زمنه ، لا يلقاهم ولا يلقونه فى أغلب الاحوال

وذلك هو باب الخير الكثير ٠٠ وذلك أيضا هو باب الشر المستطير ٠٠٠

لأن استغناء الأديب عن هذا السيد أو ذاك قد فتح له باب الاستقلال فى المعيشة والاستقلال بالرأى ، والاستقلال بالشعور

الا أنه قد يغنى عن هذا السيد أو ذاك ثم يتقيد بهذه الجماعة أو تلك ، واستعباد الجماعة شر من استعباد الآحاد

وليس من الحتم أن تستعبد الجماعة محدثها ، لأن الجماعة طوائف شتى من الناس ، ولمن يحدث هذه الطوائف ان ينص الحديث لمن شاء منها ويضن به على غيره ، وان يقنع بالمهذب الكريم من سامعيه ويطوى كشحه عن سواه ، فله ولا شك أن يختار وان صعبت عليه الموازنة بين أسباب الاختيار

وهناك باب من أبواب الحرية يطرقه من يستطيع حين يشاء ، فيتحدث « المحدث » العصرى وحده ، كأنما يتحدث لنفسه .. ويسمعه من يريدون أن يسمعوه : وهو لا يأخذ نفسه بكلفة الجليس فى محضر الامير او اشباه الامير

وهو على كل حال «محدث» على نمط العصر واسلوبه، وخليفة للمحدث القديم على ما كان لعصره من نمط واسلوب

وليس لوظيفة الادب فى اعتقادنا تعريف أصدق من

هـذا التعريف ، فانه هو التعريف الوحيد الذى يزيل اللبس بينه وبين الشاعر والراوية والناقد والمؤرخ ، ولا يمنعه مع ذلك أن يأخذ بسهم أو سهوم من جميع هذه الفنون ، على اعتبار أنه مادة من مواد الحديث

فمن هو الاديب فى كل عصر من العصور ؟ هو المحدث فى كل مجتمع ، على اختلاف العصور .. وتسأل مرة أخرى : هل الادب اذن وظيفة اجتماعية ؟

فان أردت أن الحديث يجرى بين متحدث ومستمع أو مستمعين فالادب ولا شك وظيفة اجتماعية ..

ولكنك خليق أن لا تنسى بعد هذا أن الملكة الشخصية شرط لا معدى عنه فى كل حديث كائنا ما كان قائله ومستمعوه ، فان الناس جميعا أعضاء فى بنية جماعة ، ولا يحسن التحدث منهم الا الآحاد المعدودين ..

كذلك لا تنس أن الاديب فى مجتمع هذا العصر يستطيع أن يكلم نفسه ولا يحسب من المجانين بل من صفوة العقلاء .. أو يضمن المستمعين اليه كلما كان حديثه لنفسه جديرا بالاصغاء

الفن بين الصدق والكذب

ما الصدق ؟ هو كما عرفوه مطابقة للواقع ...

ولكن ما هو الواقع ؟ وكيف نطابقه ؟ هل نطابقه بادراك الحواس ؟ أو نطابقه بألفاظ اللسان ؟ .. أو نطابقه بوعى القريحة والخيال ؟

كل اولئك مطابقة .. وكل مطابقة من هذه المطابقات صدق على حسب ذلك التعريف ، ولكنها على هذا تختلف فيما بينها أوسع اختلاف فى التعبير والتمثيل

فاذا رأيت مرجا من مروج الربيع صدقت فى وصفه حين أقول انه رقعة من الارض ذرعها ألف ذراع ، يتخللها جدول ماء ، وفيها ثمر من فصيلة كذا وكذا وزهر من فصيلة كذا وكذا فى علم النبات ..

وصدقت فى وصفه حين أقول انه جميل مريح ..

وصدقت فى وصفه حين أقول انه يتألق كما تتألق العيون ، ويزدهر كما تزدهر الوجنات ، ويفتر كما تفتر الثغور ، وتمرح فيه النضرة كما يمرح صفو الشباب فى الصبايا الحسان ، وتتغنى فيه العصافير كما تتغنى الوصائف الثملات فى الأعراس ..

أما اذا قلت اننى رأيت فيه ثغورا ووجنات ، ولمحت

فيه أحداقا مؤتلقـات ، واسـتخفنى المرح من قدود حسانه ، واستطارنى الطرب من ألحان عيدانه ، فما أنا بكاذب ، وما أنا بمخالف لما قلته فى تلك العبـارة التى أوردتهـا مورد التشبيه ، وكل ما هنـالك أننى حذفت الكافات والكائنات ، واعتمدت على فطنة السامع فى فهم هذه التشبيهات .. فعبرت عن الواقع بأسلوب يختلف فى اللفظ ولا يختلف فى المدلول

ان كان هذا هو الـكذب الذى أرادوه حين قالوا ان « أعذب الشعر أكذبه » فهذا هو الواقع بعينه فيمـا نراه

وغاية ما فى الأمر أننا نطابق الواقع هنا بوعى القريحة والخيال ، ولا نحب أن نطـابقه بلغة الحس ، أو بلغة الحساب والاحصاء ..

وأيا كان نوع المطابقة فهو صدق على أية حال ..

***

مثل آخر قريب من هذا المثل ..

أعرابى غمر يغرب فى رحلة مهلكة فى مفازة موحشة ..

تسأله فيقول لك انها عامرة بالغيلان والسـعالى ، متجاوبة بأصداء الجن والعفاريت ، من يسلكها لا يسلم من شر سكانها هؤلاء ، ومن سلم منهم فقد كتب له عمـر جديد ..

هذا الاعرابى الغمر كاذب ان شئت ، ولكن فى حساب واحد ، هو حساب الرحلات الجغرافية والمباحث العلمية

فان الرحالين والباحثين يجوبون تلك الصـحراء ويعودون منها فينوئون وهم صادقون : ما عثرنا فى تلك الصحراء بسعلاة ، وما السعلاة التى ذكرها الاعـرابى مما يمكن العثور عليه ..

ولكنه اذا كذب فى حساب الجغرافيين أفما من حساب آخر هو صادق فيه ، أو مطابق للواقع فيما يدعيه ؟ ..

بلى ! هناك حساب هو صادق فيه كل الصدق ، مطابق للواقع كل المطابقة ، وهو حساب الشعور والخيال ..

لانه وصف الخوف من الهلاك ، ولا فرق بين الهلاك من الغول والسعلاة والهلاك من الوحشة والانقطاع وغاية ما فى الامر أنه وصف الخوف محذوفا منه العافات والكائنات ، ولا يزال صادقا حين قال لنا : ان من يسلم من شر تلك المفازة فقد كتب له عمر جديد ..

وكذلك قل فى عرائس البحار ..

وكذلك قل فى كنوز الارض ومايحرسها من المردة والشياطين ..

وكذلك قل فى همسات النسيم ونجوى الأنفاس ..

وكذلك قل فى كل واقع تطابقه بالشعور والخيال ، ولا نقصر المطابقة فيه على اللمس والعيان ..

***

وننتقل الى الشعر الذى يتمثل فيه هذا الضرب من الواقع فتذكر بيت أبى الطيب فى وصف الاسد :

ورد اذ ورد البحيرة شاربا

ورد الفرات زئيره والنيلا

فعلماء الطبيعة يقولون لك أنه كذب .. لانهم يقيسون سرعة الصوت في الهواء ، وسرعة الصوت فى الماء ، ويقيسون المسافة بين البحيرة ومصر والعراق ، ويقدرون النسبة التى يتخافت بها الصوت فيجدون ان زئير الاسد الذى وصفه أبو الطيب لا يصل الى النيل ، ولا يصل الى الفرات ..

أفكاذب أبو الطيب فيما وصف ؟ ..

ان قلت نعم مع علماء الطبيعة ، قلت لا على الاثر مع سامع ذلك الزئير ..

لان زئير الاسد ملأ جوانب نفسه وشاع فى منافذ حسه ، فلم يدع فيها فراغا لغير الرهبة والحذر ..

ورهبة تملأ كل مكان فى دنياه ، خليقة ان تملأ كل مكان على وجه الارض ، ولو فى الساعة التى ملأته الرهبة فيها ، وذلك حسبه من مطابقة الواقع كما وقع فى لحظة من اللحظات ..

ولو أن أبا الطيب قال يومئذ فى وصف شعوره بزئير الاسد انه وصل فى الدقيقة الى بعد كذا من الاميال لما خالف الواقع فى حساب العلم الطبيعى ، ولكنه لا يذكر لنا شيئا عن الواقع فى طبيعة الشعور

وهذا هو الواقع الذى يعنينا ويعنيه من وصف الاسد وزئيره ..

كذلك يقول البحترى فى وصف البناء السامق :

ذعر الحمام وقد ترنم فوقه
من منظر خطر المزلة هائل

فيصيب فى تمثيل الذعر كما يحســـه الواقف على شرفات ذلك الصرح ولا يخطىء الا من ناحية بعيدة من هذه الناحية ، لانه يقول عن الحمام المذعور انه يترنم ، وللترنم حال لا تشبه حال مذعور ..

ويقول أبو العلاء فى سخرية الموت والحياة :

رب لحد قد صار لحدا مرارا   ضاحك من تزاحم الاضداد

والواقع ان اللحد لا يسخر ، ولكنه من حقه ان يسخر اذا استطاع ، وان هناك سخرية فى تعاقب الموتى على مكان واحد يكرهونه ، ويتزاحمون عليه كأنهم يشتهونه . فاذا أعرنا اللحد سخريتنا فنحن لم نغير من الســـخرية

ولا من الواقع ، ولكنها « استعارة » لا تضيع معها الحقوق ! ..

هذه خلاصة القول عن الفن بين الصدق والكذب ..

فلن يكون الفن جميلا اذا كان فنا كاذبا لا يطابق الواقع ولكن أى واقع ؟ .. وأى مطابقة ؟ ..

الواقع فى الشعور ، والمطابقة لذلك الشعور ، وهى مطابقة لا ريب فيها ، ومطابقة اصدق من كل مطابقة أخرى ، اذا كانت المطابقات الاخرى خلوا من تمثيل ما نشعر به ونؤديه فى فن من الفنون ، سواء أديناه بالقلم أم بالريشة أو بالازميل أو بالوتر والمزمار ..

ويصدق على الواقع التاريخى ما يصدق على الواقع الحاضر أمامنا ..

فمن مثل لنا بطلا فى غير عصره فأحسن تمثيله فهو صادق فى الفن كاذب فى التاريخ ، أو هو شاعر حسن ومؤرخ ردىء ، نلومه على كسله وجهله ، ولا ننكر عليه الصدق فى حسه وخياله ولا القدرة على حسن تعبيره وتمثيله .. فنمنحه درجة النجاح فى الشعر ونضن عليه بها فى التاريخ ..

وكل فن جميل ، فلن يكون كاذبا ابدا ، لانه لابد له من مطابقة الواقع ، على اختلاف صور المطابقة فى الشعور ..

ولقد قيل عن أرواح شكسبير وعفاريته انها لو برزت الى عالم الحياة لما برزت فى غير الصورة التى تصورها .. وما قيل عن المخلوقات الخيالية فى شعر شكسبير يقال عن كل مخلوق خيالى يمثل لنا حالة نفسية نشعر بها ونتصورها فيه ، لانه ولد من شعورنا ، فان لم يطابقه فلا صلة بيننا وبينه فى عالم الحس ولا فى عالم الخيال

المدرسة الرمزية

١ ــ حب الازياء

كانت باريس فيما بعد القرون الوســـــطى عاصمة الحضارة الاوربية ، وكان بلاطها الفخم مصدر المراسم والتقاليد فى ارجاء الغرب كله ، تصــدر عنـــه الازياء والآداب والعرف المتبع فى مجالس الطبقات العليا ، وكان لها الشأن ــ كل الشأن ــ يومئذ فى جميع البلدان ٠ فلا تنقضى فترة يسيرة من الزمن دون ان يسفر التنافس بين فرسان البلاط وحسانه عن شارة جــــديدة وزى جديد ، ولم يكن لهم بد من طرافة يتحدثون بها فى عالم الادب والفن كما يتنافسون بالطرائف فى عالم الشارات والازياء ٠ فلما بدأت نهضة الاحياء الحديثة باستحياء الاساليب اللاتينية واليونانية رحب بها طلاب الجــديد ريثما طال عليها العهد فبرموا بها وتطلعوا الى نمـــط جديد ٠ فتوالت الانماط بين أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن العشرين من المدرسة المجازية الى المدرسة الواقعية الى المدرسة البرناسية الى المدرسة الرمزية ،

الى هذه المدارس التى تسمى بالمستقبلية تارة وبما وراء الواقعية تارة اخرى ، ولا تستقر طويلا على حال

ولم يكن التفات الناس الى عاصمة الازياء وانتظارهم منها الجديد بعد الجديد هو الباعث الوحيد الى تعاقب هذه المدارس بمختلف الاسماء والاراء ، وانما صادفت هذه الحالة معينا لها من حب الاندفاع فى السليقة الفرنسية ، فأصبح حب التغيير نتيجة لازمة لكل اندفاع بلغ مداه واستنفد قواه

فلا تجد في غير فرنسا ولعا كهذا الولع بالمدارس الادبية المتلاحقة ، ولا سأما كهذا السأم من أسلوب بعد أسلوب ، وصبغة بعد صبغة

وفى فرنسا نفسها لا تجد هذه المدارس فى القمم العالية أو الاعلام البارزة من افذاذ الادب المعدودين ، وانما تجدها فى بيئات الاوساط واشباه الاوساط الذين يخضعون لموجات التقلب وحركات التكلف والاصطناع

أما أعلام الادب الفرنسى من أمثال موليير وراسين وفولتير وشاتوبريان ولامرتين وهوجو وموسيه وأناتول فرانس وبروست فأنت لا تجدهم تحت راية من هذه الرايات ، ولا على شارة من هذه الشارات ، واذا بدت على احدهم مسحة من هذه الصبغة او تلك فهى مسحة لا تنحرف به قط عن اللونين الخالدين اللذين يرجع الانقسام بينهما الى طبيعة الانسان لا الى تقلب الازياء بين جيل وجيل ، وهما لون الواقعية ولون المجازية ، او لون البساطة ولون التنميق ، وسمهما بعد ذلك بما تشاء من الاسماء

٢ ـ ظهور الرمزية

وكان الصف الاول من صفوف الطليعة فى هذه المدارس هو صف الاحياء ، أو صف الاساليب اللاتينية واليونانية القديمة ، ولا يخلو من دعوة الى بساطة « الطبيعة » على السنة الفلاسفة والشعراء

ثم تفنن الادباء فى المجاز على أنماط شتى من الاساليب المجازية التى توشك ان تتعدد بتعدد الآحاد .. فأسلوب هوجو مجازى ، ولكنه مجاز يريك الدنيا كأنها فى موكب دائم من الطبول والابواق ومن الغنائم والاسلاب ، واسلوب لامرتين مجازى ولكنه مجاز يريك الدنيا كأنك تعيش منها أبدا فى عالم مسحور تتهامس فيه الارواح وتتخافت فيه الاصداء

واتفق فى الايام الاخيرة من هذه المدرسة المجازية أن شاعت مباحث العلم ومقررات العلماء المحدثين ، فظهرت المدرسة الواقعية والمدرسة البرناسية ونزعت كلتاهما الى الاسلوب المدرسى البسيط ـ أسلوب اللاتين واليونان ـ ممزوجا بلون الدراسات العلمية التى اشتغل بها كل عقل مثقف فى عهد المدرسة البرناسية على التخصيص

ويدل اسم المدرسة البرناسية على مذهبها بعض الدلالة لان اصحابها يسمون انفسهم بالبرناسيين المعاصرين منتسبين الى البرناس وهو جبل أبولون وعرائس الفن فى اليونان القديمة . فالبرناسيون المعاصرون مدرسيون من ناحية الاقتداء بأعلام الادب اليونانى القديم ، ومحدثون علميون من ناحية التجديد العصرى على نمط لم يعرفه قدماء اليونان

وكان شعارهم « الكلمة المحكمة » أى الكلمة فى موضعها

الذى لا تتجاوزه للتنميق أو للتهويل ، وعقيدتهم « أن الفن للفن » بغير قصد اخر غير احكام التعبير وحسن الاداء

وأفرط البرناسيون كما يفرط الدعاة الى المدارس الخاصة فيندفعون فيها الى الطرف الاخير ، أو الى حيث يحسن الارتداد والرجوع ، وكان أفراطهم هذا مسوغا بعض التسويغ لظهور الرمزيين

٣ ـ مسوغات الرمزية

والتعبير بالرموز عادة قديمة فى تعبير الانسان ، بل علاة قديمة فى بديهة الانسان

فالحالم مثلا يعبر فى منامه عن شعور الضيق أو الخوف بقصة رمزية يتمثل فيها شيئا مخيفا فى صورة وحش أو مارد مرهوب

والكاتب الذى لم يعرف الحروف الابجدية يرمز الى المعانى بالشخوص والرسوم ، ويعبر لك عن الكتابة بصورة الكاتب أو صورة القلم او صورة المكتوب ، وقد يلجأ الى الاستعارة بعد عرفان الحروف لانها نوع من التصوير الذى يساعد على اختصار التعبير

وكهان الديانات يرمزون ويعمدون كثيرا الى الكنايات والالغاز ، لانهم يجعلون لغة الدين لغة سرية ينفردون بها ولا يطلعون سواد الناس على دخائلها ، فيختارون الرمز فى التعبير وان قدروا على الافصاح والتصريح

والنساك المتصوفون يرمزون لانهم لا يستوضحون المعانى الغامضة التى تجيش بها نفوسهم فى حالة كحالة الغيبوبة أو نشوة من نشوات الذهول . فيؤثرون التشبيه لانهم عاجزون عن التوضيح ويخاطبون من يعرف

حالهم برمز من هنا وتورية من هناك فلا يحتاج منهم الى زيادة ايضاح

وكان بعض الدول يقهر الرعية على عقيدة لا يدينون بها وقد يدينون بغيرها ، فيشيرون الى عقائدهم برموز يفهمونها ويجعلون للالفاظ الشائعة معانى غير معانيها المتفق عليها فى اللغة المتداولة ، ثم ينبذون تلك الرموز اذا ارتفع عنهم الضغط والاكراه

وقد يكون الرمز اختصارا لعبارة مفهومة أو صورة ظاهرة ، كرمز الرياضيين والكيميائيين بالخطوط والنقط الى الافلاك أو العناصر أو المقادير

فالرمز شيء مألوف فى تعبير الانسان وفى طبيعة الانسان ، ولكنه مألوف على حالة واحدة لا يخلو منها معرض الرمز والكتابة ، وهى حالة الاضطرار والعجز عن الافصاح ، فلم يرمز الانسان قط وهو قادر على التصريح والتوضيح ، ولم يجد كلمة واضحة لمعنى واضح ثم آثر عليها الالتواء شغفا بالالتواء

فاذا لوحظت هذه الحالة فالرمز اسلوب متفق عليه لايحتاج الى مدرسة تنبه الاذهان اليه . فالخيال لايستشير مدرسة من المدارس لتشير عليه أن يحلم بالصور والتشبيهات أو يحلم بقواعد التحليل والتركيب فى معامل الكيمياء ، والشاعر لايعاب اذا مثل لنا الكواكب والازهار فألبسها ثياب الاحياء ، ومن ضاق به اللفظ فعمد الى التخييل والتشبيه فالناس لايحسبونه من هذه المدرسة أو تلك ، لان المدرسة التى يصدر عنها فى هذه الحالة هى مدرسة البديهة الانسانية حيث كان الانسان وبأى لغة من اللغات الغز أو أبان

وفحوى ذلك أنه لاحاجة الى مدرسة لتعليم الناس

كيف يرمزون ويكنون حين ينبغي الرمز وتنبغي الكناية ، ولكنهم قد يحتاجون الى مدرسة لتذكيرهم بحقيقة واحدة قد ينسونها فى دفعة الافراط والمغالاة ، وهى أن الحياة تنطوى على كثير من الاسرار ، وان العالم نور وظلام وجهر وخفاء ، وأنه يفاجئنا أحيانا بمعانى لاتترجم عنها الالفاظ ولا غنى فيها عن الاشارة والاستعارة ، أو عن تمثيل الظل بالظل ، والحجاب بالحجاب

وقد كانت الآداب الفرنسية بحاجة الى هذا التذكير فى النصف الاخير من القرن التاسع عشر ، ولم تكن هذه الحاجة مقصورة على الآداب الفرنسية فى الواقع لانها كانت حاجة من حاجات التطور العقلى فى العالم بأسره ، ولكنها أظهر ماتكون حين يكون الاندفاع من الاطراف الى الاطراف

فالعالم الاوربى قد تنقل فى ثلاثة أطوار عقلية منذ عصر الاصلاح :

طور لم يكن فيه سلطان للعقل فى تفسير الوجود ، وطور ثار فيه العقل لحقوقه المشروعة ثم بالغ فى الثورة حتى أوشك أن يستبد بكل سلطان ، وطور ثارت فيه البديهة الانسانية لتذكر العقل بالحقيقة التى نسيها فى شططه وغلوائه ، وهى أن البديهة الانسانية تشاطر العقل حقوقه فى تفسير العالم والاتصال بخفايا الوجود

ففى الطور الاول كان السلطان للكهنة ورجال الدين ، وكانت النصوص التى يساء فهمها ويساء العمل بها هى مرجع المراجع كلها فى العلم والحكمة والفنون والاداب

وفى الطور الثانى تفرد العقل بتفسير كل شىء وزعم أن العلوم التجريبية وحدها كفيلة بالكشف عن جميع الحقوق وجميع الاسرار

وفي الطور الثالث صنع « رد الفعل » صنيعه المعهود في أمثال هذه الاطوار ، فثار المفكرون أنفسهم على العقلية «Rationalism» كما ثار الفنانون على الواقعية «Realism» وسمعنا بضروب شتى من دعوات المثاليين والنفسانيين والروحانيين وفلاسفة المنطق الحديث الذي يدين بالبصيرة كما يدين بالقياس والتحليل

في هذه الفترة ظهر الرمزيون في الاداب الفرنسية وكان لهم حق في الظهور

بل ظهروا « متأخرين » عن رواد هذا المذهب في الاداب الاوربية الاخرى، وفي عالم الفنون التي لها تأثير بين على الاداب ..

فكانت موسيقى « فاجنر » تدوى في أرجاء القـــارة الاوربية قبل ان تتحول الموسيقى الفرنسية من لغة الطرب والمشاهد الواقعية الى لغة الاغوار والكنايات ، وكان كولردج وبروننج وسوينبرن وتنيسون من أعلام الشعر الانجليزى يتناولون المعاني الغامضة تارة بالرمز والكناية وتارة بالكلمات التي تماثلها في الغموض . ويكفي ان يذكر القراء تأثير دافيد هيوم في روسو وفولتير ، وتأثير بيرون في لامرتين ، ليذكر أن المدرسة الرمزية في الآداب الفرنسية لم تكن فريدة في الاداب الاوربية حين ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر وراجت الى أوائل القرن العشرين

لكنها ظهرت سائغة مدعوة الى الظهـور بدعوة التطور في التفكير والشعور، ثم استحقت الاحتجاب قبل أن تتمكن من الثبات على الاساس الصحيح .. وصدقت عليها الفكاهة التي تحدث بها ظرفاء بغداد عن بهلول المجنون ، حين قالوا انه كان يغني بدرهم ويسكت بدرهمين

فان المدرسة الرمزية التي وجب ظهورها مرة وجب سكوتها بعد ذلك مرتين ، ولم يلبث الفرنسيون أن إطلقوا

عليها اسم مدرسة الهبوط والانحدار «Decadents» ولم يظلموها بهذه التسمية الصادقة ، لان شعراءها وكتابها قد جعلوا ديدنهم من الرمز أن يرمزوا الى كل وضيع خليع، وأن يعتبروا التسمية مطلوبة لذاتها لا لمزية من مزايا التعبير والتقرير . فلو تهيأت لهم للمعنى الواحد عبارتان تؤديانه على السواء لفضلوا الاغمض منهما على الاوضح فى غير سبب معقول لهذا التفضيل ، بل يفضلون الغموض على الوضوح ولو كان الوضوح أجمل فى اللفظ واقرب الى البديهة واثبت فى الافهام

وما هو الا ان تلقفوا من الافواه كلمة عن مذهب فرويد واقوال العلماء النفسانيين عن « الوعى الباطن » و « اللاوعى » المكنون فى اطواء النفس حتى اندفعوا من الرمزية المتطرفة الجامحة الى رمزية أبعد منها فى التطرف والجموح . فنشأت بينهم مدرسة يسمونها بمدرسة ماوراء الواقع ، تترجم الرموز بالرموز ، والالغاز بالالغاز وراجت هذه البدعة الجديدة فى عالم التصوير ، لان رواجها فى عالم الكتابة والشعر يستلزم جمهورا كاملا من المخبولين والادعياء ، وقلما يجتمع جمهور كامل من هؤلاء ، كما يتفق اجتماع الآحاد من طلاب الصور الملفقة بين الاغنياء

وخلاصة ما وعاه هؤلاء الرمزيون الغلاة من الوعى الباطن انهم لا يفقهون ماهو الوعى الباطن وما هو الوعى الظاهر على السواء ، فان الوعى الباطن قديم لم تخلقه التسمية الحديثة فى كتب العلماء النفسانيين ، وقد كان الناس بوعيهم الباطن حين وصفوا ماوصفوه وصوروا ماصوروه من المناظر والضمائر والوجوه ، ومن شأن العقل الباطن أن يظل عقلا باطنا حيث خلقه الله ، فان برزت لنا بعض خباياه فليس معنى بروزها أنها تلغى العقل الظاهر وتبطل عمل الحواس ، وتقلب معالم الاجسام

والاشياء ، ولا موجب لتمييز المصورين بالقلم أو الريشة بالتخمين والتنجيم عن الوعي الباطن أو العقل الباطن لانهم يستعدون لصناعتهم بمزج الالوان ونقل الاشياء لا بالتدرب على الكهانة ونقش الطلاسم ووضع الالغاز

فالرمزية في حدودها المعقولة - مالم تجعل الدنيا كلها رموزا وكنايات واطيافا - تعيش في الظلام ولا تعيش في الضياء ، وهي ضرورية ماشعر الانسان بضرورتها في تمثيل الدقائق والاسرار ، ولكنها تخرج من الضرورة الى الضرر اذا أصبحت مطلوبة لغير سبب وأصبح شعارها « الرمز للرمز » والغموض للغموض والتلفيق للتلفيق

وهي على الجملة « خطر » حين تصبح مدرسة قائمة بذاتها لان الانسان لا يحتاج الى مدرسة ليكون انسانا يعبر باللفظ الصريح حين يتأتى له التعبير باللفظ الصريح ويعبر بالكناية حين لا تسعفه وسيلة غير وسيلة الكناية . وقد عرف الناس « الاستعارة » في جميع اللغات فلم تكن استعارتهم الا ضربا من الرمز والتصوير بالكلام ، ولم تفسد هذه الاستعارات الا حين أصبحت فنا مصطنعا وانقطع ما بينها وبين البداهة الصادقة والتخيل السليم

وكذلك أفاد الرمزيون الفرنسيون حين التزموا هذه الحدود المعقولة ومثلوا ثورة البديهة على غرور العلميين والعقليين ، وأطلقوا الشعر الفرنسي والشعر الاوربي عامة من أوزانه المتحجرة وقيوده العتيقة ، ولكنهم لم يقفوا عند ذلك فاستحقوا أن يقال فيهم انهم : غنوا بدرهم وسكتوا بدرهمين

فهرس

صفحة

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

اللاذقيـــة : السيد نخلة سكاف

جـــــدة : السيد هاشم بن على نحاس ـ ص.ب ٤٩٢

البحـــرين : السيد مؤيد احمد المؤيد ـ ص.ب ٢١

البرازيـل : Sr. Miguel Maccul Cury,
R. 25 de Marco, 994,
Caixa Postal 7406,
Sao. Paulo, BRAZIL

سـنغافورة : Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit
Almaktab Attujari Assharat,
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

انجـلترا : ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopsthorpe Road
London S.E. 26
ENGLAND

نيجـيريا : Mr. Mohamed Said Mansour
Atlas Library Company,
26, Naamdi Azikiwe Street
LAGOS NIGERIA



هذا الكتاب

سئل « سعد زغلول » مرة عن رأيه فى ((العقاد : الاديب)) فقال : « أديب فحل ، له قلم جبار .. ما قرأت له بحثا أو رسالة فى جريدةأو مجلة الا أعجبت به غاية الاعجاب . وهو لا يعالج موضوعا الا احاط به جملة وتفصيلا احاطة لا تترك بعدها زيادة لمستزيد » .. ويضم هـــذا الكتاب باقة مختارة من البحـــوث والمقالات ، تحكى قصة حياة هـــذا القلم الجبار منذ ولادته ،وتتابعه فيما مر به من معارك وأزمات ، وماتخطاه من أشواك وعقبات فى سبيل المبادىء التى عاش بها ولهـــا ، كما تعطى صورة حية نابضة للفكر العبقرى الذى يتناول الموضوعات فى تحليل دقيق واحاطة شاملة وفهم عميق ..